صداقتهما ستغيِّر كل شيء.

الدُّبّ الأخير

’رواية لا تُنسى‘
مايكل موربورغو



هانا غولد

رسوم: ليفي بنفولد



الدُّرب الأخير



الدُّب الأخير

تأليف: هانا غولد

رسوم: ليفي بنفولد

ترجمة: صفاء كنغ

تدقيق: نابغة عبدالباري

الطبعة الأولى: 2023 م

ISBN 978-9948-8608-8-4



دار أشجار للنشر والتوزيع

DAR ASHJAR PUBLISHING & DISTRIBUTION

هاتف: 4270575 4 971+   فاكس: 4270576 4 971+

ص ب: 231347 دبي، الإمارات العربية المتحدة

info@darashjar.com /www.darashjar.com

 darashjar  Darashjar  darashjar  dar_ashjar  Dar Ashjar

حاصل على إذن الطباعة من المجلس الوطني للإعلام

رقم إذن الطباعة: MC-10-01-9634342

طُبعت في: تركيا

التصنيف العمري: E «تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

الدُّب الأخير

هانا غولد



رسوم ليفي بنفولد





إلى والديّ، كوكبِ الأرض
والدببةِ القطبيةِ في كلِّ مكانٍ



كهف
(دُب)



أجراف
ناتئة

بحيرة على
شكل قلب



الكبينة
+
محطة الأرصاد
الجوية





نقطة
الوصول

ترومسو،
النرويج
332 ميل

لونغيربين،
سفالبارد
266 ميل

خليجُ
والروس

جلاميد
عملاقة

جزيرة الدّب





الفصلُ الأوَّلُ

الرِّسالةُ

وجَدَتْ إبريل وود نفْسَها واقِفةً أمامَ الدُّبِّ القُطبيِّ وجهًا لوجْهٍ بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ بالتَّحديدِ مِنْ وُصولِها إلى جزيرةِ الدُّبِّ. لكنْ قبلَ ذلِكَ، كانَ يَجِبُ عليها أنْ تبلُغَ جزيرةَ الدُّبِّ أوَّلًا، وقدِ استغرقَتْ رحلتُها إلى هُناكَ قُرابةَ أربعةِ أشهُرٍ.

حتّى تلكَ اللَّحظةِ، كانَ لِحياةِ إبريل اليوميَّةِ سِمَةٌ طبيعيَّةٌ، على الرّغم منْ أنّها كانتْ أوّل منْ يَعترِفُ بأنَّها سِمَةٌ طبيعيّةٌ مِنْ نَوْعٍ

غَرائبِيٍّ بعضَ الشّيءِ. كانَ والِدُها يعملُ باحِثًا في جامعةٍ قريبةٍ، كانَ يمضي أيّامَهُ في إجراءِ بُحوثٍ حولَ أنماطِ الطّقْسِ. وكما هيَ حالُ الطّقْسِ، كانَ يأتي إلى المنزلِ، ويغادرُهُ في أكثرِ الأوقاتِ الّتي يصعبُ التَّنبُّؤُ بها - أحيانًا كانَ يعودُ إلى المنزلِ في السّاعةِ الحاديةَ عشرةَ مساءً، أو يغادرُهُ فورَ عودَتِها مِنَ المدرسةِ. وأحيانًا كانَ يعملُ خِلالَ عُطلةِ نهايةِ الأسبوعِ؛ فيحصلُ حينَها على إجازةٍ لِثلاثةِ أيّامٍ تعويضًا عنْ ذلِكَ. لكنَّهُ حتّى خِلالَ هذهِ الأيّامِ، كانَ يُغلقُ على نفسِهِ بابَ مكتبِهِ، ويدفِنُ وجهَهُ في كُتُبٍ قديمَةٍ عَلاها الغُبارُ مكتوبَةٍ بِخطوطٍ صغيرةٍ للغايَةِ، تُسبِّبُ لِعينيكَ الألمَ بمجرَّدِ قراءتِها. عندما كانتْ إبريل تُحْضِرُ لهُ إبريقًا مِنَ الشّايِ أوْ عَشاءَهُ، كانَ يهزُّ رأسَهُ، ويخلعُ نظّارَتَهُ، وينظرُ إليها بِفضولٍ كما لو أنّهُ نَسِيَ تمامًا بأنّ لديْهِ ابنَةً، ثمَّ يقولُ: «أوه! شكرًا لكِ . . . يا إبريل.» ثمَّ يعودُ لِدَفْنِ رأسِهِ في الكتابِ مِنْ جديدٍ، وهوَ يمضُغُ الجزءَ العُلْوِيَّ مِنْ قلمِهِ، فتَخرُجُ، وتغلِقُ خلفَها بابَ المكتَبِ بِرِفْقٍ.

كانتْ إبريل في الرّابعةِ مِنْ عمرِها عندَما تُوُفِّيَتْ والدتُها، وكلَّما فكَّرَتْ فيها، بَدا لها الأمْرُ أشْبَهَ بالتَّفكيرِ في عُطْلَةٍ صَيفِيَّةٍ جميلةٍ قَضَتْها ذاتَ يومٍ. لَمْ يتزوَّجْ والدُها مَرَّةً أُخرى، وانعكسَ ذلكَ بوضوحٍ على المنزلِ. كانَ منزِلًا مرتفِعًا وضيِّقًا، وكئيبًا دائمًا

في الزّوايا والمُنْعَطفاتِ، وفي الدّاخِلِ كانَ بارِدًا على الدّوامِ. كانتْ هُنالِكَ طَبَقَةٌ رقيقةٌ مِنَ الغُبارِ تُغَطّي كُلَّ شَيءٍ، وشعورٌ مُريعٌ بأنَّ ثَمَّةَ شَيئًا مَفقودًا - شُعورٌ لَمْ تعرفْ إبريل بَتاتًا كيفَ تُعَبِّرُ عنْهُ بِالكلماتِ.

وهكَذا قضَتْ إبريل معظمَ وقتِها في حديقةِ منزِلِها الخلْفيَّةِ، حيثُ عاشتْ عائلةٌ مِنَ الثّعالِبِ الأليفةِ في شُجيرةِ توتٍ برِّيّةٍ غيرِ مُشَذَّبَةٍ. كانتْ إبريل مَفتونةً بواحِدٍ مِنْ تلكَ الثَّعالِبِ عَلى نَحْوٍ خاصٍّ، أَسْمَتْهُ: (القلبَ الشُّجاعَ)؛ لأنّهُ بَدا لها أكثرَ جُرْأَةً مِنَ الثّعالِبِ الأُخرى، ولأنّهُ ذاتَ مرَّةٍ *أوشَكَ* أنْ يَدَعَها تُطعِمُهُ بعضَ الفراولَةِ مِنْ يَدِها. كانَ الوقتُ الّذي تقضيهِ إبريل في الحديقةِ يمضي سريعًا، ولا يقطعُهُ سِوى موعِدِ الذَّهابِ إلى المدرسةِ. لَمْ تحبَّ إبريل المدرسةَ، ربَّما لَمْ تحبَّها الفتياتُ في المدرسةِ. لَمْ تكنْ تعرفُ إنْ كانَ السَّبَبُ وراءَ ذلكِ هوَ رائحَةُ الثّعالِبِ العالِقَةُ بِها، أوْ حقيقةُ أنّها كانتْ أصغَرَ فتاةٍ في فَصْلِها، أو لأنَّها قصَّتْ شعرَها بنفسِها بمِقَصِّ تَشْذيبِ الأشجارِ. أيًّا كانَ السَّبَبُ، فإنَّ إبريل لَمْ تَكْتَرِثْ لِذلِكَ كثيرًا؛ لأنَّها كانتْ على كلِّ حالٍ تُفضِّلُ الحيواناتِ على البَشَرِ؛ فقدْ كانتِ الحيواناتُ ألْطَفَ.

ثُمَّ وصلَتِ الرّسالةُ.

كانتْ إبريل تأكلُ رَقائقَ الذُّرةِ، وقدْ تربَّعَتْ على الأرضِ في الجانبِ الآخَرِ مِنْ غرفةِ المعيشةِ، فيما كانَ والِدُها يمسِكُ بقطعةٍ مِنَ الخُبْزِ المُحَمَّصِ، يَقْطُرُ مِنها مُربّى البرتقالِ على الجريدةِ. كانَ ذلكَ اليومُ في نهايةِ شهرِ نوفمبر. ركَضَتْ إبريل نحوَ البابِ عندَما سمعَتْ صوتَ ارتطامِ البريدِ على عَتَبَةِ بابِ المنزلِ. هلْ يكونُ ما سمعَتْهُ بِطاقةَ مُعايدَةٍ بمناسبةِ عيدِ الميلادِ مِنَ الجَدَّةِ (أبلز)؟ لَمْ تكُنِ الجَدَّةُ ترسِلُ لها بطاقاتِ المعايدَةِ في وقتٍ مُبكِّرٍ فَحَسْبُ، بلْ كانتْ أيضًا جَدَّتَها المفضَّلَةَ؛ لأنَّها كانتْ تعبقُ برائحةِ المُعجَّناتِ السّاخنةِ المُحَلّاةِ، وتعيشُ بالقرْبِ مِنَ البحرِ.

لم تكنْ هنالِكَ بطاقاتُ عيدِ ميلادٍ، بلْ ظَرْفًا كبيرًا ممتلِئًا، وعليهِ دَمْغَةٌ «**وثيقةٌ حكوميّةٌ رسميّةٌ**» وخَتْمُ بريدِ النِّرويجِ.

وضعَتْهُ بجانبِ قطعةِ الخُبْزِ المحمَّصَةِ الخاصَّةِ بوالِدِها، فتناوَلَهُ شارِدَ الذِّهنِ لِيأخُذَ مِنْهُ قَضْمَةً. وعندَما أدركَ ما كانَ يمسِكُ بِهِ، سَرى عَلى وجهِهِ تعبيرٌ مضحِكٌ كَما لَوْ أنَّ شخصًا ما ألْقى تَعويذَةً سِحْرِيَّةً في عَينيهِ.

سألتْهُ إبريل «ما هذا؟»

قالَ والِدُها وهوَ يقرأُ الرّسالةَ، وعيناهُ تَطرِفانِ بِسرعةٍ: «نحنُ ذاهبانِ إلى الدّائرةِ القُطْبِيَّةِ الشّماليّةِ! لقدْ حصلتُ على الوظيفةِ!



بصراحةٍ، لَمْ أتوَقَّعْ ذلِكَ، ظَنَنْتُ أنَّهمْ سَيختارونَ شَخْصًا مِنَ المنطقةِ نفسِها. لكنْ يبدو أنَّ ورقتي البحثِيَّةَ الخاصَّةَ بِالدّراسةِ العِلْميّةِ لغلافِ الأرضِ الجَوِّيِّ قدْ أقنعَتْهُمْ. إنَّها محطّةُ أرصادٍ جَوِّيَّةٍ عَلى جزيرةٍ صغيرةٍ، على بُعْدِ يومٍ بالقاربِ مِنْ ساحِلِ النّرويجِ.»

قفزتْ إبريل إلى الأعْلى عِدَّةَ مَرّاتٍ قبلَ أنْ تُجيبَ: «ما نوعُ تلكَ الجزيرةِ؟ كَمْ عَدَدُ الّذينَ يعيشونَ هُناكَ؟»

«آه!» نظرَ والِدُها إلى الأسفَلِ بِحَرَجٍ، وقالَ: «إنّها ليستْ مِنْ ذاكَ النّوعِ مِنَ الجُزُرِ . . . الحقيقةُ . . . لَنْ يكونَ هناكَ أَحَدٌ سِوانا.»

«نحنُ الاثنانِ فَقَطْ؟» سَرَتْ في جسدِها قَشْعَريرَةٌ مُنْعِشَةٌ، «على جزيرةٍ وَحْدَنا تَمامًا؟!»

انْحَنى والِدُها إلى الأمامِ وهوَ على كُرْسِيِّهِ، وقالَ: «فَكِّري في المُغامراتِ الّتي سَنَخوضُها. سنكونُ مِثْلَ سكوت القطبِ الجنوبيِّ[1]. لا وَجْهَ لِلمقارَنَةِ بينَ الجزيرةِ وهذا المكانِ؛ ففي الجزيرةِ بُحيراتٌ وجبالٌ وجداولُ. تَخَيَّلي الأَمْرَ يا إبريل. إنّها آخِرُ مكانٍ رائعٍ غَيْرِ مُسْتكشَفٍ. لَنْ تكونَ هناكَ سيّاراتٌ أوْ قِطاراتٌ أوْ طائراتٌ. ولا حتّى طُرُقٌ! إنّها أرضٌ نقِيَّةٌ، أرْضٌ غيرُ مَأهولَةٍ، لَمْ يَعْبَثْ بِها أَحَدٌ.

لَمْ يَكُنْ بِحاجَةٍ إلى قولِ المزيدِ؛ لأنَّ قلبَها كانَ قَدْ شَرَعَ

يُسابِقُها إلى هناكَ. لَنْ يكونا في الدّائِرَةِ القُطْبِيَّةِ الشّماليَّةِ فَحَسْبُ، بلْ سَيكونانِ أيضًا طَوالَ الوَقْتِ معًا. فقطْ هُما الاثنانِ. سيكونُ بِمقدورِهِما فِعْلُ أشياءَ كثيرةٍ – مِثْل بِناءِ رِجالٍ مِنَ الثّلجِ والتَّزلُّجِ عَلى الجِبالِ و . . .

«بالطَّبعِ، سيكونُ عَمَلي هناكَ مُهمًّا جِدًّا،» أضافَ والدُها بأكثرِ مَلامِحِ وَجْهِهِ الجادَّةِ. انْقبضَتْ أحشاؤها قَليلًا.

«ماذا ستفعلُ هناكَ؟»

«تريدُ الحكومةُ النّرويجيّةُ تَصَوُّرًا أدَقَّ عنِ الكيفيّةِ الّتي يؤثِّرُ بِها الاحتباسُ الحرارِيُّ عَلى منطقةِ القُطْبِ الشّمالِيِّ؛ لذلكَ سأراقِبُ البياناتِ على مدارِ سِتَّةِ أشهرٍ.»

كانتْ إبريل تعرفُ كثيرًا عنْ ذَوبانِ الغطاءِ الجليدِيِّ، بالإضافةِ إلى ما تعرفُهُ عنْ صيدِ الثّعالِبِ، كانَ هذا الأمرُ يجعلُها تشعرُ بالغضبِ، وقِلَّةِ الحيلَةِ في الوقتِ ذاتِهِ.

سألتْ إبريل: «وماذا عَنْ مدرَسَتي؟»

قالَ والِدُها وهوَ يميلُ بجسدِهِ نَحْوَها إلى الأمامِ: «إبريل، سِتَّةُ أشهرٍ في القُطْبِ الشّماليِّ ستُعَلِّمُكِ أكثرَ ممّا ستَتَعَلَّمينَهُ خلالَ سِتِّ سَنواتٍ في المدرسَةِ.»

تَفَحَّصَتْهُ بِنظرِها مِنْ جديدٍ. كانتْ عيناهُ تلمعانِ، وكانتْ هناكَ

بُقْعَتانِ وَرديَّتانِ على وجْنَتَيْهِ. سَرَتْ في جسدِها تلكَ القَشْعريرَةُ المنعِشَةُ مِنْ جديدٍ!

«متى سنذهَبُ؟»

بالطَّبْعِ، لَمْ يتحَمَّسِ الجميعُ للأمْرِ. اتَّصلَتِ الجَدَّةُ (أبلز) ثلاثَ مَرّاتٍ كُلَّ يومٍ عَلى الأقَلِّ لِتُخْبِرَها إلى أيِّ مَدى كانا مُسْتَهْتِرَيْنِ. ماذا عنْ درجاتِ الحرارةِ قارِسَةِ البُرودةِ، والأمواجِ الّتي تُعادِلُ ناطحاتِ السّحابِ في ارتِفاعِها، وحيواناتِ الفَظِّ القاتلةِ ذاتِ الأنيابِ الحادَّةِ الّتي شاهَدَتْها في أحَدِ أفلامِ (ديفيد أتينبورو) الوَثائقِيَّةِ، أو خُطورةِ الإقامةِ في جزيرةٍ ليسَ فيها مُستشفى، أو طبيبٌ عامٌّ واحدٌ، أو حتّى أيُّ شخصٍ آخَرَ يُمكنُهُ مساعَدَتُهُما في حالِ تعرَّضا للخطرِ؟!

قالتِ الجَدَّةُ إنَّ الأمْرَ ليسَ مُناسبًا لفتاةٍ في الحاديةَ عشرةَ مِنْ عمرِها. وبصورةٍ خاصَّةٍ، لِفتاةٍ حسّاسَةٍ مِثْلِ إبريل، صارتْ، بفضلِ والِدِها، فتاةً مُستوحِشَةً بِما يكفي. كيفَ بِمقدورِهِ أنْ يعتقدَ بأنَّ الذَّهابَ إلى جزيرةٍ مهجورةٍ - لا تشرقُ فيها الشّمسُ - يمكِنُ أنْ يكونَ في مصلحَتِها؟

لكنَّ والدَها كانَ عنيدًا بِما يكفي، وتظاهَرَ بِعدمِ سَماعِ ما

كانتْ تقولُهُ الجَدَّةُ (أبلز).

صاحتِ الجَدَّةُ بإحْباطٍ: «باللهِ عليكَ يا إدموند، اسمُها جزيرةُ الدُّبِّ! ماذا لَوْ الْتَهَمَها حيوانٌ هُناكَ؟»

وعلى الرّغمِ مِنْ أنَّهُ حاولَ أنْ يؤكِّدَ لها أنَّ جزيرةَ الدُّبِّ خاليةٌ مِنَ الدِّبَبَةِ، فإنَّ الجَدَّةَ (أبلز) رَفَضَتِ الإصْغاءَ إليهِ.

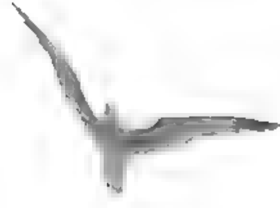
قالتْ لِحفيدتِها: «إذا رأيتِ دُبًّا قُطْبِيًّا يا إبريل، تَذَكَّري أنْ **تركُضي سريعًا.**»

وهكَذا، في الأوَّلِ مِنْ شهرِ إبريل، بدأتِ المرحلةُ الأولى مِنْ رحلَتِهِما. كانَ عليهِما أنْ يَسْتَقِلّا طائرةً إلى (أوسلو)، ثُمَّ طائرةً أُخرى للتَّوَجُّهِ نحوَ بلدةٍ صغيرةٍ تُسَمّى (ترومسو) ومِنْ هُناكَ كانَ عليهِما أنْ يأخُذا قارِبًا إلى جزيرةِ الدُّبِّ.

عندَما أقلعتِ الطّائرةُ، واستدارتْ مقدِّمَتُها شَمالًا، ضغطَتْ إبريل بوجهِها على النّافذةِ، ونظَرَتْ نحوَ موطِنِها الآخِذِ في التَّلاشي.

هذهِ هيَ البِدايةُ.

كانا في طريقِهِما إلى الدّائرَةِ القُطْبِيَّةِ الشّماليَّةِ.



الفصلُ الثّاني

جزيرةُ الدُّبّ

«تعرفينَ أنَّ والدَكِ مُستهتِرٌ؟»

قفزتْ إبريل لَدى سماعِها الصَّوتَ المفاجِئَ، فارْتَطَمَ مِرْفَقُها بِالحاجزِ المعدنيِّ. حَلَّقَ طائرُ النّورسِ الّذي كانتْ تطعِمُهُ بيدِها فتاتَ البسكويتِ مبتعِدًا ومطلِقًا زعْقَةً ساخِطةً.

وقفَ بجوارِها صَبِيٌّ كانتْ قدْ سمعَتْهُ يشتُمُ بصوتٍ عالٍ في مَرْفَأِ (ترومسو) وهوَ يرفعُ مجموعةَ والدِها الكاملةَ مِنْ أسطواناتِ



موتزارت وآلةَ تشغيلِها إلى مَتْنِ سفينةِ الشّحْنِ النّرويجيّةِ الصَّدِئةِ، والّتي عَثرا عليها لِتُقِلَّهُما إلى جزيرةِ الدُّبِّ. كانَ الصَّبِيُّ هوَ ابنُ القُبْطانِ، رُبَّما كانَ يُكْبِرُها بِعامينِ أوْ ثلاثةِ أعوامٍ.

عندَما اقتربَتْ منهُ انبعثَتْ منهُ رائحةُ البحرِ، وزيتُ المحرِّكاتِ

وشيءٌ آخَرُ لَمْ تستطعْ تَعَرُّفَهُ. لكنْ بوجهٍ عامٍّ، كلُّ شيءٍ صارَ مختلفًا منذُ غادرا الوطنَ، صارَ أكثرَ وحشيَّةً وأكثرَ فراغًا، لذلكَ رُبَّما لَمْ تكنْ رائحةُ الصَّبِيِّ غريبةً على الإطلاقِ.

ومعَ ذلكَ، لَمْ يجعلْ هذا كلماتِهِ مقبولَةً لَدَيْها، وهيَ بالتّأكيدِ لا تستحقُّ أنْ تَرُدَّ عليها. ليسَ ذلكَ فَحَسْبُ، بلْ إنّها لَمْ تثقْ بِقدرتِها على الكلامِ؛ لأنّها شعرتْ بأنّها على وشَكِ استفراغِ شَطيرةِ زُبدَةِ الفولِ السّودانيِّ الّتي كانتْ قدْ تناولَتْها في وقتٍ سابقٍ.

قالَ لها الصَّبيُّ ناصِحًا: «لوْ كنتُ مكانَكِ لاسْتَلْقَيْتُ.» وأشارَ إلى المقعدِ المحشورِ تحتَ مقدّمَةِ السَفينةِ. «سيخفِّفُ هذا مِنْ دُوارِ البحرِ.»

نظرتْ إبريل بتردُّدٍ إلى المقعدِ الخشبيِّ الصّلبِ. لكنّها، بعدَ نوبةِ غَثَيانٍ عنيفةٍ أخرى، سارتْ باتِّجاهِهِ، واستلقَتْ عليهِ بحيثُ صارَ كلُّ ما يمكِنُها رؤيَتُهُ لَحْظَتَها هوَ السّماءُ. هُنا، بينما هيَ محشورةٌ في الأسفلِ كانتْ، على الأقلِّ، بِمَعْزِلٍ عنِ الرّياحِ العاصفَةِ الّتي لَسَعَتْ وَجْهَها حتّى الاحمرارِ. توقَّعَتْ أنْ يختفيَ الصّبيُّ، لكنَّهُ بدلًا مِنْ ذلكَ جَلَسَ بِهدوءٍ على حافَّةِ المقعَدِ، وراحَ يخرجُ الأوساخَ العالِقَةَ تحتَ أظافِرِ أصابِعِ يديهِ.

عندَما بدأَ شعورُ الغَثَيانِ يزولُ مِنْ مَعِدَتِها، قالتْ إبريل

للصّبيِّ: «إنَّهُ ليسَ مُستَهترًا، إنّهُ عالِمٌ.»

استدارَ الصَّبِيُّ نَحوَها، وقالَ: «هذا أَسْوَأُ.»

«أبي يقولُ إنّ محطَّةَ الطَّقْسِ على الجزيرةِ لطالما كانتْ مأهولَةً بالموظَّفينَ منذُ عامِ 1918.»

«نعمْ! لكنْ لَمْ تَعِشْ فيها . . . فتاةٌ.»

«لا أعرفُ لِمَ عليكَ أنْ تقولَ: «*فتاةٌ*» بنَبْرَةِ الصّوتِ هذهِ،» جلسَتْ إبريل ساخِطَةً، وتابعَتْ: «فقطْ لأنَّني لستُ وَلَدًا لا يعني أنَّني ضعيفةٌ. ذاتَ مَرَّةٍ تسلَّقْتُ شجرةَ الكَستناءِ المزروعةَ في حديقةِ منزِلنا الخلفيَّةِ حتّى قمَّتَها؛ لأتمكَّنَ مِنْ إنقاذِ قِطٍّ جيرانِنا!»

لَمْ يُجِبْها الصّبيُّ. لكنّه بَدلًا مِنْ ذلكَ، ضَحِكَ ضحكةً، كَتِلكَ الضّحكاتِ الكبيرةِ القادمةِ مِنَ الأحشاءِ، وفَرَدَ ذراعَيْهِ ليشيرَ بذلك إلى الامتدادِ الهائلِ للسّماءِ المُزركَشَةِ بالغيومُ، والبحارِ الهائجةِ القاسيةِ، والإحساسِ بأنَّهما ليسا على كوكبِ الأرضِ على الإطلاقِ.

«ماذا تعرفينَ عنْ هذا الجزءِ مِنَ العالَمِ؟» سألَها الصَّبِيُّ بعدَ أنِ انتهى مِنَ الضّحكِ. «هلْ سَبَقَ لكِ أنْ جئتِ إلى هذِهِ المنطقةِ القَصِيَّةِ مِنَ الشّمالِ؟»

قالتْ إبريل: «أعرِفُ أنَّكَ وَلَدٌ وَقِحٌ، وأعرفُ أنّي لو كنتُ مكانَكَ لَقُلْتُ شيئًا مُفيدًا عَمّا يمكنُ لِزائرٍ أَنْ يتوقَّعَهُ . . عَدا عَنْ ذلكَ، أنا

لستُ خائفةً مِنَ المجهولِ.»

شيءٌ ما في وَجْهِ الصَّبِيِّ أصبحَ أكثرَ ليونةً. مَدَّ يدَهُ نحوَها وقالَ: «أنا تور . . . لا تكترثي لأمرِنا . . . أنا وأبي نقضي وقتًا طويلاً في البحرِ، وهذا يجعلُنا ننسى كيفَ نتصرَّفُ كَبَشَرٍ.»

«إبريل. إبريل وود.»

صافحتْ يدَهُ، كانَ ملمَسُها مِثْلَ حَبْلٍ قديمٍ، لكنَّها مريحةٌ على نَحْوٍ غريبٍ أيضًا. كانت مِثْلَ يَدٍ تستطيعُ أنْ تنتشِلَها مِنْ وَرْطَةٍ.

سألتْ بصوتٍ هادئٍ: «هلِ الجزيرةُ خطيرةٌ؟»

قالَ تور: «إنَّها جزيرةٌ بَرِّيّةٌ. وجميعُ الأشياءِ البَرِّيّةِ خطيرةٌ.»

«لكنْ لا توجدُ فيها دِببَةٌ قُطْبِيَّةٌ؟»

هَزَّ تور رأسَهُ نافيًا، وقالَ: «لَمْ تَعُدْ فيها دِببَةٌ منذُ سنواتٍ. لكنْ، علامَ هذا الوجْهِ الحزينِ؟ الدِّببةُ القُطبيّةُ ليستْ حيواناتٍ وَدودَةً. إنَّها ليستْ حيواناتٍ أليفةً. ستَلْتَهِمُ فتاةً مِثْلَكِ وهيَ حَيَّةٌ.»

تظاهرتْ إبريل بِالتَّحديقِ في البحرِ بدلًا مِنَ النّظرِ إلى ابتسامتِهِ السّخيفةِ.

«بِالمناسبةِ، أنا لا أفهمُ الحيلةَ الّتي تستخدمينَها معَ طيورِ النّورسِ.»

«أيُّ حيلةٍ؟» استدارتْ إبريل إلى الخلفِ لِتنظرَ إليهِ.

«الكيفِيّةُ الّتي تجعلينَها تأكلُ مِنْ يدِكِ»

«إنّها ليستْ حيلةً،» قالتْ لهُ، وقدِ انتصبَ جسدُها مُتخشِّبًا مِنْ ذلكَ الافتراضِ. «أنا فقطْ تعلَّمْتُ كيفَ أجعلُ الحيواناتِ تشعرُ بالأمانِ معي.»

رفعَ تور أحدَ حاجبَيْهِ، لكنَّ شيئًا ما في وجهِهِ دَعاها إلى متابعةِ الحديثِ.

«الأمرُ يتعلَّقُ بالاستماعِ إليها،» شرحتْ لهُ، وهيَ تلمسُ جِهَةَ قلبِها على صدرِها. «هُنا.»

«أنتِ مختلفةٌ.» قالَ تور.

«لستُ مُجَرَّدَ فتاةٍ إذن؟»

ابتسمَ تور وكانتِ ابتسامةً كبيرةً جِدًّا لِدرجةٍ لَمْ تستطعْ معها إبريل إلّا أنْ تُبادلَهُ الابتسامَ.

«عندما تكونينَ على الجزيرةِ، لَنْ تتمكَّني مِنَ المغادرَةِ، أنتِ تعرفينَ هذا، أليسَ كذلِكَ؟» قالَ تور بِنبرةِ صَوْتٍ منخفضةٍ. «ليسَ حتّى نأتي بعدَ سِتَّةِ أشهرٍ لِنُقِلَّكُما مِنْ هناكَ.»

كانَ لدى إبريل شعورٌ بأنَّ هناكَ شيئًا آخَرَ. كانتْ بارعةً في إخفاءِ الأمورِ الّتي تريدُ حقًّا أنْ تقولَها، خاصَّةً معَ والدِها، وكانَ لَديها حاسَّةٌ سادسةٌ تجعلُها تعرِفُ حينَ يفعلُ شخصٌ آخَرُ الشّيءَ

نفسَهُ. أمهلَتْهُ حتّى يُفصِحَ هوَ عنْ ذلكَ الأمرِ؛ لأنّهُ، مَهْما يكُنْ، فهيَ تُفضِّلُ أنْ تعرفَهُ. لكنْ في النّهايةِ، أخرجَ تور قلمَ رَصاصٍ صغيرًا جِدًّا مِنْ سُترتِهِ، وكتبَ بِسرعةٍ رَقْمَهُ على ظَهْرِ ظَرْفٍ كانَ قدْ دَسَّهُ في جَيْبِهِ.

قالَ تور: «جزيرةُ الدُّبِّ مكانٌ موحِشٌ. كوني حَذِرَةً يا إبريل وود. وإذا احْتَجْتِ إليَّ في أيِّ وقتٍ، فقطْ اتَّصلي بهذا الرَّقْمِ.»

لمْ تستطعْ أنْ تتخيَّلَ لِمَ قَدْ تحتاجُ إليهِ، لكنَّها وضعتِ الظَّرْفَ في جيبِ مِعْطفِها تَحَسُّبًا، ثُمَّ راقبَتْهُ وهوَ يعاوِدُ الانضمامَ إلى زملائهِ مِنْ أفرادِ الطّاقمِ الّذينَ بِأطرافِهِمُ الصّلبةِ القويّةِ، وأيديهمُ المُتشقِّقةِ بِفعلِ الطّقْسِ البارِدِ، ووجوهِهِمُ الخاليةِ مِنَ التّعبيرِ، جعلوا والدَها يبدو وكأنَّهُ مصنوعٌ مِنْ وَرَقِ جِلْدِ الماعِزِ الرّقيقِ. منذُ غادرَتِ السّفينةُ الميناءَ، أغلَقَ والدُها عَلى نفسِهِ داخلَ المَقصورَةِ، وأحاطَ نَفْسَهُ بِالكُتُبِ استعدادًا لِوظيفَتِهِ الجديدةِ، ولأنَّها كانتْ تعلمُ بأنَّهُ لا يريدُ أنْ يزعِجَهُ أحدٌ، ولأنَّ المقصورةَ كانتْ تفوحُ برائحةِ سَمَكِ الإسقَمْرِيِّ، استَلْقَتْ على المقعدِ الخشبِيِّ مُجَدَّدًا، ونامَتْ.

«إنَّها اليابسةُ!» تردَّدَ صَدى النِّداءِ في جميعِ أنحاءِ السّفينةِ كما

يُعلِنُ جَرَسُ كنيسةٍ عَنْ حَفْلِ زَفافٍ.

«إنَّها اليابسةُ!»

استوَتْ إبريل في جلسَتِها، رأسُها يَتَرَنَّحُ بِالأحلامِ. كانَ عليها أنْ تَطْرِفَ بِعينَيْها مَرَّتينِ؛ لِتتأكَّدَ مِنْ أنَّ ما كانتْ تَراهُ حقيقيًّا. كانَ تور واقفًا أمامَها على سطحِ السّفينةِ، كَفُّهُ مَمْدودةٌ وبِها قطعةُ خبزٍ، وبينما كانَ يُحدِّقُ نحوَ السّماءِ، اكْتَسى وجهُهُ بِتعبيرٍ مُشرقٍ بِالأملِ، كالّذي اكْتَسى بِهِ وجهُها في أوَّلِ يومٍ لَها في المدرسةِ. شَيءٌ ما في ذلكَ التّعبيرِ جعلَها تميلُ نحوَهُ.

«تحتاجُ أنْ تُبْقِيَ جسمَكَ أَخَفَّ بِقليلٍ، وأنْ تَكُفَّ عَنْ حَبْسِ أنفاسِكَ.»

أَرْخى كَتِفَيْهِ، وَأراحَ ذِراعَهُ، وقالَ: «هكَذا؟»

«مِنَ الدّاخِلِ أَكْثَرَ،» قالتْ إبريل: «كَما لَو أنَّكَ مصنوعٌ مِنْ ماءٍ، ناعمٍ ولطيفٍ، هكَذا بالضَّبْطِ، بِبساطَةٍ وَيُسْرٍ، والآنَ لا تتحرَّكْ، إنّهُ هُنا فوقَكَ تمامًا. لِنَصْمُتْ الآنَ، و -»

«تور!» صاحَ القُبطانُ مِنْ على سطحِ السّفينةِ! زَعَقَ النّورسُ، وانطلقَ مبتعِدًا نحوَ السّماءِ.

تراجعتْ إبريل إلى الوراءِ. لَمْ تستطعِ تكوينَ فِكرةٍ عنِ القُبطانِ. لَمْ يكنْ مِثْلَ أَيِّ شخصٍ قابَلَتْهُ مِنْ قَبْلُ.

قالَ القُبطانُ وهوَ ينظرُ بِفضولٍ نحوَ قِطعةِ الخُبْزِ في يَدِ تور: «آملُ أنّكَ لا تُلْهي ضُيوفَنا. نحتاجُ مساعدَتَكَ في مقدِّمةِ السّفينةِ.»

أسقطَ تور قطعةَ الخبزِ وَجَرى، في حينِ حبستْ إبريل أنفاسَها بينما عَبرَتْها نَظراتُ القُبطانِ المشتعلةُ. كانَ هنالِكَ شيءٌ مِنَ الشّراسةِ في وجهِهِ، كما لَوْ أنَّهُ اعتادَ بِشِدَّةٍ على بحارِ الشّمالِ الموحِشةِ حتّى نَسِيَ أينَ ينتهي هوَ، وأينَ تبدأُ هيَ. ولِمَرَّةٍ واحدةٍ، بَدَتْ سعيدَةً بِقامَتِها القصيرةِ، وبِالطّريقةِ الّتي جعلَتْها غيرَ مَرئِيَّةٍ.

مَشى القُبطانُ مُبتعِدًا، مِنْ دونِ أنْ يَتَفَوَّهَ بِأيِّ كلمةٍ أُخرى، فأطلقَتْ إبريل زَفْرَةَ ارتياحٍ طويلةً.

كانَ سطحُ السّفينةِ مزدحِمًا مِنْ حولِها بِأفرادِ الطّاقمِ، وهمْ يؤدّونَ مهامَهُمْ بِسرعةٍ وهِمَّةٍ ونشاطٍ. لَمْ تتمكَّنْ إبريل مِنْ رؤيةِ تور، لكنْ كانَ مِنَ المستحيلِ ألّا تلمحَ والدَها. كانَ يتّكِئُ على مقدّمةِ السّفينةِ، مُرتدِيًا سترتَهُ المصنوعةَ مِنَ الصّوفِ، وبنطالَ بدلَتِهِ المكوِيَّ، مُتجاهِلًا درجاتِ الحرارةِ المتجمِّدَةَ، ومحدِّقًا بِرهبةٍ في الأفقِ. مَشَتْ مُقترِبةً مِنْهُ، وعلى الرّغمِ مِنْ رائحةِ البحرِ الطّاغيةِ، استنشقتْ رائحةَ حلوى اليانسونِ المألوفةِ الّتي يحبُّ أنْ يتناولَها.

«بابا؟»

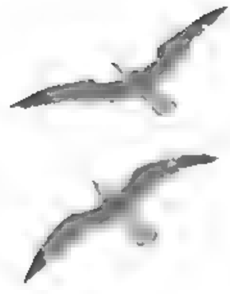
أجابَها مِنْ دونِ أنْ يشيحَ بِنظرِهِ: «نحنُ هنا يا إبريل! نحنُ هنا! لقدْ وصلْنا.»

أشارَ إلى شيءٍ ما، لكنّها لَمْ تستطعْ أنْ ترى أيَّ شيءٍ سوى رَذاذِ البحرِ والأمواجِ الرّصاصِيَّةِ المتواليةِ، وشعورًا بأنَّهما يدخلانِ جزءًا محظورًا مِنَ الكَوْنِ.

«أليستْ جميلةً؟»

أخيرًا ظهرَتِ الجزيرةُ في مَرمى البصرِ، بِالطّريقةِ الّتي تُدَوِّرُ بها عدسَةَ المِنظارِ، فتصبحُ الأشياءُ نقِيَّةً وواضِحةً فجأةً.

«جزيرةُ الدُّبِّ،» قالَ والدُها بِصوتٍ هامِسٍ مملوءٍ بِالرّهبةِ والدّهشةِ.



الفصلُ الثّالثُ

هديّةٌ مِنَ الوقتِ

وقفَ والِدُ إبريل على الشّاطئِ الّذي كَنَسَتْهُ الرّيحُ. كانَ مُحاطًا بِالصّناديقِ وحقائبِ السّفرِ. قالَ لابنتِهِ وهوَ يتطلّعُ مِنْ حولِهِ: «هذهِ هيَ الجزيرةُ، ما رأيُكِ؟»

تذوَّقَتْ إبريل مُلوحَةَ البحرِ على شفَتَيْها وقدْ عَلِقَتْ نُدَفٌ مِنَ الثّلجِ على رُموشِها. كانتْ الجزيرةُ مغلّفَةً بِضبابٍ كثيفٍ رَطْبٍ، جعلَ رؤيةَ أيِّ شيءٍ أمرًا شِبْهَ مستحيلٍ.

لكنْ لَمْ يكنْ أيٌّ مِنْ هذا كافيًا لِوَقْفِ الرّجفةِ الكهربائيّةِ الّتي هَمْهَمَتْ في عُروقها. لقدْ وصلا أخيرًا.

كانا في الواقعِ في الدّائرةِ القُطبيّةِ الشّماليّةِ.

بَدا الأمرُ كما لو أنّها اجتازتْ نوعًا مِنَ التُّخومِ غيرِ المرئيّةِ على الأرضِ. بالمقارنةِ معَ المتنزَّهاتِ والأراضي الرّيفيّةِ الخصبةِ الخضراءِ المُسَيَّجَةِ في موطِنِها، كانتِ الأرضُ هنا عاريةً وفارغةً. أمّا أشواكُ نباتِ الجَوْلَقِ الدّاكِنَةُ الّتي بزغتْ مِنْ بينِ الثّلوجِ، فقدْ كانتِ الإشارةُ الوحيدةُ على الحياةِ البرِّيّةِ. على الجانبِ الآخَرِ مِنَ الجزيرةِ، كانتْ إبريل بالكادِ تستطيعُ أنْ تتبيَّنَ ثلاثةَ جِبالٍ غرانيتيّةٍ شاهقةٍ، وسماواتٍ تُشبهُ سلَّمًا صاعِدًا إلى الأعلى نحوَ الفضاءِ.

لكنَّ البردَ كانَ الفارقَ الأكبرَ. ذلكَ النّوعُ مِنَ البردِ الّذي يتسلَّلُ مِنْ تحتِ ملابسِكَ، ويجعلُكَ ترتجفُ مِنَ الدّاخلِ إلى الخارجِ، وتَتوقُ لِقِرْبَةٍ مِنَ الماءِ السّاخِنِ.

«حسنًا؟» سألَ والدُها مرَّةً أُخرى.

الْتَقَطَتْ إبريل أقربَ صندوقٍ، رفعتْ وجهَها نحوَ السّماءِ، وأخرجتْ لِسانَها؛ لِتلتقِطَ بِهِ نُدَفَ الثّلجِ. «هيّا نكتشفُ ذلكَ!»

بمساعدةِ زَلّاجَةِ ثلجٍ تُسحَبُ بِاليَدِ، أمْضَيا بعضَ السّاعاتِ التّاليةِ في نَقْلِ حاجِيّاتِهِما مسافةَ نصفِ ميلٍ إلى بيتِهِما الجديدِ. كانَ البيتُ مؤلَّفًا مِنْ كوخينِ خشبيَّينِ، واحدٍ للنّومِ، وآخرَ أكبرَ حيثُ يستطيعُ والدُ إبريل أنْ يُجْرِيَ فيهِ أبحاثَهُ المتعلِّقةَ بِالأرصادِ الجوّيّةِ.





بَدا الكوخانِ مِثْلَ جميعِ المنازلِ النّرويجيّةِ الأخرى الّتي شاهَدَتْها إبريل حتّى الآنَ، سقفانِ مائلانِ، وألواحٌ خشبيّةٌ مَطلِيَّةٌ، وصوتٌ هامِسٌ يروي عنها حكايةً سِحْريّةً. الشّيءُ الوحيدُ الّذي أفسدَ المشهدَ كانَ مُوَلِّدَ الكهرباءِ الجاثِمَ بِالقربِ مِنَ البيتِ.

كانتْ مقصورةُ المعيشةِ مؤلَّفَةً مِنْ طابقٍ واحدٍ، ولها بابٌ خارجيٌّ يُفتَحُ على رُواقٍ صغيرٍ حيثُ يُمكِنُهما أنْ يخلعا مِعطفَيْهما ووشاحَيْهما وهواءَ الخارجِ القارسَ المريرَ. يوجَدُ بعدَ ذلكَ بابٌ داخليٌّ يُفْتَحُ على غرفةٍ مُستطيلةٍ-بيضاويَّةِ الشّكلِ، ذاتِ سَقْفٍ مقوَّسٍ مرتفِعٍ، وبها مِدفأةٌ مفتوحةٌ وأريكَتانِ بالِيَتانِ. وفي أحدِ أركانِ الغرفةِ يوجَدُ رفٌّ كتبٍ ضَيِّقٌ صُفَّتْ عَليهِ مجموعةٌ مِنَ الكتبِ بأوراقٍ مَعقوفَةِ الأطرافِ، وهاتِفٌ يعملُ بواسطةِ الأقمارِ الاصطناعيّةِ للاستخداماتِ الطّارئةِ فقطْ. في الزّاويةِ المقابِلةِ مِنَ الغرفةِ كانَ مطبخٌ صغيرٌ، يؤدّي بِدورِهِ إلى غرفَةِ تخزينٍ بِها أرْفُفٌ مُكْتَظَّةٌ بِالأطعمَةِ المُعَلَّبَةِ ومؤونَةٌ تَكفي لمدَّةِ سِتَّةِ أشهرٍ.

في غرفةِ المعيشةِ الرّئيسةِ تَناثرتْ مُخَلَّفاتُ السُّكّانِ السّابقينَ؛ مِنْفَضَةُ سَجائرَ بِها عُقْبُ سيجارةٍ، فَرْدَةٌ مِنْ قُفّازٍ أحمرَ، وبعضُ قُصاصاتِ ورقِ الملاحظاتِ، وقلمُ حِبْرٍ جافٌّ قديمٌ.

كانتْ خريطةُ الجزيرةِ المُثَبَّتَةُ على الحائطِ هي أكثرُ ما اسْتَرْعى انتباهَ إبريل حقًّا. على خريطةِ العالَمِ كانتْ جزيرةُ الدُّبِّ مُجرَّدَ نقطةٍ ضئيلةٍ موضوعَةٍ في مكانٍ ما بينَ النّرويجِ وأرخبيلٍ[2] مِنَ الجُزُرِ الصّغيرةِ بِالقربِ مِنَ القُطْبِ الشّماليِّ تُسَمّى (سفالْبارد). (على الرّغمِ مِنْ أنَّ جزيرةَ الدُّبِّ تُعَدُّ تِقنيًّا جُزءًا مِنْ ذلِكَ الأَرخبيلِ، إلّا أنَّها بعيدةٌ عَنْهُ جِدًّا لِدرجَةِ أنَّها تَبدو مَكانًا مُستقِلًّا). كانتْ جزيرةُ الدُبِّ مُتناهِيَةَ الصِّغَرِ لِدرجةِ أنَّكَ إنْ لَمْ تكنْ تعلمُ بِوجودِها هناكَ، فلنْ تَراها أبدًا. شعرتْ إبريل بِأنَّ الأمرَ ينطبِقُ عَليها، فمعظمُ النّاسِ يَغفلونَ عن وَجودِها أيضًا.

على الرّغمِ مِنْ أنَّ إبريل كانتْ تعرِفُ تلكَ المعلوماتِ، إلّا أنَّها حَدَّقَتْ في الخريطةِ بِإمْعانٍ؛ لِتَقرأَ أبعادَ الجزيرةِ: في الحقيقةِ، بلغَ طولُ الجزيرةِ نحوَ اثْني عشرَ ميلًا بينَ أبعدِ نقطتينِ مِنَ الشّمالِ إلى الجنوبِ، وبلغَ عرضُها نحوَ عشرةِ أميالٍ. وبينَما كانَ الجزءُ الشّماليُّ مِنَ الجزيرةِ جَبَلِيًّا، تألَّفَ الجزءُ الجنوبيُّ في الغالِبِ مِنْ سُهولٍ مُنخفضَةٍ، حيثُ أشارتْ علامةُ صليبٍ أحمرَ إلى محطَّةِ الأرصادِ الجوّيّةِ. كانَ في الجزيرةِ كنزٌ دفينٌ مِنَ الكُهوفِ والشُّطآنِ والبحيراتِ، وبِالطَّبعِ الجبالُ الثّلاثةُ الّتي رَصَدَتْها إبريل مِنَ الشّاطئِ، ستكونُ كلُّها قَيْدَ

التَّحَرّي والاستكشافِ خلالَ الأشهرِ السِّتَّةِ المقبلَةِ. حتّى إنْ لَمْ تكنْ هناكَ دِببَةٌ قُطبيّةٌ في *الواقعِ*، فسيكونُ هناكَ ثعالِبُ قطبيّةٌ، والآلافُ مِنَ الطّيورِ البحريّةِ النّادرةِ، وربَّما حتّى بعضُ الحيتانِ المهاجرةِ. وربّما أكبرُ مكافأةٍ على الإطلاقِ: قضاءُ بعضِ الوقتِ معَ والدِها.

قالتْ لاهثةً: «بابا! انظرْ إلى كلِّ الأشياءِ الّتي يمكنُنا القيامُ بها معًا! هلْ يمكنُنا أنْ نذهبَ غدًا إلى الجبالِ، ونأخذَ معنا الزّلّاجَةَ؟»

استدارتْ حولَ نفسِها معتقِدَةً أنّهُ ما زالَ في الغرفةِ، لكنّها لَمْ تجدْ شيئًا سِوى صَدى صوتِها. أزاحتْ خيبةَ أملِها جانبًا. نظرتْ عَبْرَ النّافذةِ، وراقبَتْهُ وهوَ يدخلُ مقصورةَ الأرصادِ الجوّيّةِ، ويغلقُ البابَ خلفَهُ.

أطلقتْ إبريل تنهيدةً عميقةً فَغَبَّشَتْ أنفاسُها الدّافئةُ زجاجَ النّافذةِ. إنَّهُ اليومُ الأوّلُ فقطْ، قالتْ لِنفسِها بِحَزْمٍ، ومِنَ المهِمِّ أنْ يُثبِّتَ قدمَيْهِ. لا داعيَ لِأنْ تشعرَ بالانزعاجِ حقيقةً، فَوجودُ ستّةِ أشهرٍ كاملةٍ أمامَهما، يعني أنَّهُما يملكانِ الصَّيفَ كلَّهُ لِيَقضياهُ معًا. وهكذا، مسحتِ البُخارَ عنْ زجاجِ النّافذةِ، وشدَّتْ كَتِفَيْها إلى الوراءِ، وقرَّرتْ أنْ تفرِّغَ حقيبتَها بدلًا مِنْ ذلكَ.

بعدَ ساعةٍ أوْ نحوَ ذلِكَ، كانتْ إبريل نصفَ نائمةٍ على الأريكةِ، ولَمْ تسمعْ والدَها، حتّى وقفَ أمامَها مباشرةً، وصَفّى حنجرَتَهُ بِسَعْلَةٍ عنيفةٍ. فتحتْ عينَيْها، كانتْ نَظْرَتُهُ المُتفَكِّرَةُ مُرْسَلَةً نحوَها.

«بابا!.»

مرَّرَ يدَهُ عَبْرَ شَعْرِهِ غيرِ المُرَتَّبِ، صَفّى حنجرَتَهُ بِضْعَ مَرّاتٍ أُخْرى، ثُمَّ دَفَعَ بِهديّةٍ مَلفوفةٍ بِعنايَةٍ إلى يَدَيْها.

لَمْ تكنْ تلكَ البادِرَةُ مفاجأةً كبيرةً بِالنّسبةِ لها؛ لأنَّهُ اعتادَ على تقديمِ الهَدايا في لحظاتٍ غيرِ متوَقَّعَةٍ. لكنَّ البادِرَةَ كادتْ، لكنْ ليسَ تمامًا، أنْ تعوِّضَها نِسيانَهُ عيدَ ميلادِها. فتحتِ الهديَّةَ لِتكشِفَ عنْ ساعةٍ فِضّيّةٍ رفيعةٍ بِلونِ ضَوْءِ القمرِ.

قالَ والِدُها مشدِّدًا على كلماتِهِ بِعنايَةٍ: «أعْلَمُ . . . أعْلَمُ أنَّهُ لا يوجَدُ أحَدٌ هُنا سِوانا، وأقدِّرُ أنَّ هذا تَبَدُّلٌ غيرُ عاديٍّ لِحياتِنا، وربَّما هو تبدُّلٌ لا يوافِقُ عليهِ معظمُ النّاسِ. ولا تُقِرُّهُ جَدَّتُكِ على أيِّ حالٍ.»

جَفَلَتْ إبريل وهيَ تتذكَّرُ الدُّموعَ المنهمِرَةَ في المطارِ.

«لكنْ،» تابعَ حديثَهُ. «هناكَ كثيرٌ مِنَ الدّهشةِ في مكانٍ كَهذا. على مدى قرونٍ، انجذبَ النّاسُ إلى هذه الأجزاءِ مِنَ العالَمِ.

بعضُهُمْ يأتي مِنْ أجْلِ العُلومِ. وبعضُهُمْ مِنْ أجْلِ الاستكشافِ. وآخرونَ يأتونَ لِأسبابٍ لا يفهمونَها أنفُسُهُمْ.» ابتلعَ ريقَهُ بضعَ مرّاتٍ، وبَدا فجأةً نحيفًا وهَشًّا كأحَدِ كتبِهِ، وقالَ: «رُبَّما لِهذا السَّبَبِ أنا هنا أيضًا – لِأعثُرَ على شيءٍ فقدْتُهُ منذُ وقتٍ طويلٍ.»

عندما تمكَّنَ مِنَ العثورِ عَلى كلماتِهِ التّاليَةِ، كانَ لِصوتِهِ شرخٌ في المُنتصفِ تمامًا. «(*فريلوفتسليف* Friluftsliv)،» قالَ، بينما حَدَّقَتْ إبريل فيهِ بِحَيْرَةٍ. «اللّغةُ الإنجليزيّةُ لُغَةٌ مُفيدةٌ جِدًّا، لكنَّها تفتقِرُ أحيانًا إلى الأدواتِ اللّازمَةِ لِوَصْفِ تعبيراتٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوْ أشخاصٍ مُعَيَّنينَ. هذهِ كلمةٌ نرويجيّةٌ تَعني الاستمتاعَ بِالهواءِ الطّلقِ. حَرْفِيًّا، تَعني (الحياةَ في الهواءَ الطّلقِ).» لانَتْ تَعبيراتُ وَجْهِهِ وتابَعَ «هذه الكلمَةُ تُذَكِّرُني بِكِ . . . الطّريقةُ الّتي تَقضينَ بِها كثيرًا مِنَ الوقتِ في الحديقةِ. أنْظُرُ إليكِ مِنْ نافِذَةِ مَكتبي أحيانًا و . . . أقسمُ أنَّني أرى والدتَكِ.»

أومأتْ إبريل بِرأسِها، كانَ نَفَسُها مقبوضًا بِقُوَّةٍ في مكانٍ ما في صدرِها. لمْ تكنْ تعلمُ أنَّ والدَها كانَ يراقبُها أحيانًا، وهذِهِ الفكرةُ جعلتْ مَعِدَتَها تدورُ كالعَجَلَةِ.

قالَ والدُها: «لقدْ أحبَّتْ والدتُكِ الحيواناتِ أيضًا، خاصَّةً الّتي تعيشُ في البرِّيّةِ. كانتْ قريبةً مِنْها على نَحْوٍ قَلَّ مثيلُهُ. حتّى

إنّها قالتْ إنَّ بإمكانِها أنْ تتكلَّمَ معها، لكنَّ معظمَ البَشَرِ نَسوا كيفَ يُصْغونَ. هكذا كانَتْ والدتُكِ. كانتْ . . . مختلِفةً عنِ الآخرينَ. على أيٍّ حالٍ، النّقطةُ الّتي أحاولُ توضيحَها هِيَ أنَّها كانتْ سَتُحِبُّ أنْ تأتيَ إلى مكانٍ كَهذا. هذهِ السّاعةُ كانتْ لَها، وفكَّرْتُ أنّها بهذِهِ الطّريقةِ على الأقَلِّ ستعيشُ التّجربةَ أيضًا.»

«(*فريلوفتسليف*)،» كرَّرَتْ إبريل بِصوتٍ هادئٍ. كانتِ الكلمةُ تُشبِهُ حورِيّاتِ البحرِ، أوِ الغاباتِ المسحورةَ، أو شيئًا أثيرِيًّا وفاتِنًا.

كانتْ ذكرياتُ إبريل عنْ والدَتِها ضَبابِيَّةً. لكنَّ الشّيءَ الّذي تتذكَّرُهُ جيِّدًا هوَ كيفَ كانَتْ تُحَضِّرُ شَرابَ الشَوكولاتَةِ السّاخنَ في إبريقِ شايٍ بِاللّونِ الأحمرِ القاني، ثُمَّ يجلسونَ ثُلاثَتُهُمْ على حافَّةِ سَريرِ إبريل لِيشربوه مَعَ بَسكويتِ كريما الكاسترد المَرصوصةِ على صُحونٍ ورقيّةٍ مَقصوصةٍ على شَكْلِ أُقحواناتٍ. تلكَ كانتِ الأيّامُ الّتي امتلأَ فيها المنزلُ بِالضَّحِكِ وليسَ بِالحزنِ، وكانَ والدُها يتذكَّرُ تَقبيلَها قَبْلَ أنْ تخلُدَ إلى النّومِ. وبدلًا مِنْ قصّةِ ما قبلَ النّومِ، كانا يتَناوبانِ على إخْبارِها عنْ جميعِ الحيواناتِ المختلفةِ في العالَمِ؛ قُطعانِ الفِيَلةِ الّتي تَجولُ عَبْرَ سهولِ إفريقيا، النّمورِ السَّيبيريّةِ النّادرَةِ الّتي تعيشُ في جبالِ

آسيا، طيورِ البِطْريقِ الإمبراطوريِّ المَهيبَةِ الّتي تحتَشِدُ معًا في تَجمُّعاتٍ لِتتجاوَزَ فُصولَ الشّتاءِ الطّويلَةَ والمريرةَ في القارّةِ القُطبيّةِ الجنوبيّةِ، وبعضِ الحيواناتِ الغريبةِ جِدًّا، والاستثنائيّةِ، مِثْل: آكِلِ النَّمْلِ الحَرْشَفِيِّ الّذي يتكوَّنُ جسمُهُ بِالكامِلِ مِنَ الحراشِفِ. كانَ مِنَ الصّعبِ عليها التَّصديقُ بأنَّها لَمْ تكنْ قِصصًا منسوجَةً مِنْ وَحْيِ الخيالِ. ممتلئةً بِوَهْجِ صوتِ والدَيْها الدَافئِ، كانتْ إبريل تَخْلُدُ إلى النّومِ، وابتسامةٌ تَعلو وجهَها، فتحْلُمُ بِعجائبِ الأرضِ الكثيرةِ.

في هذه الأيّامِ، نادرًا ما تَحَدَّثَ والدُها عنْ والدَتِها، ناهيكَ عنْ سَرْدِ قِصَصٍ لها قَبْلَ النّومِ؛ لِذا جعلَتْها هديَّةُ السّاعةِ تشعرُ وكأنَّهُ وضعَ يدًا دافئةً حانيةً على قلبِها.

قالتْ إبريل مرَّةً أُخْرى: (فريلوفتسليف) وشعرَتْ بِخشونَةٍ مُفاجئةٍ في حَلْقِها، ثُمَّ مَرَّتْ بعضُ اللّحظاتِ قَبْلَ أنْ تفكِّرَ في مُعاينَةِ الوقتِ.

كانتِ السّاعةُ الحاديةَ عشرةَ مساءً.

نظرتْ إلى الأعلى، لكنَّ والدَها كانَ قدِ انصرفَ إلى غرفةِ نومِهِ، وتناهَتْ إلى مسامِعِها أنغامُ موسيقى (الفالس) البطيئةُ لِأسطوانةِ (موتزارت) الّتي بدأتْ في العَزْفِ. كانتْ إحدى

المقطوعاتِ الّتي عُزِفَتْ في حَفْلِ زَفافِهِ، ولمْ تكنْ مُتأكِّدَةً إطلاقًا إنْ كانَ الاستماعُ إليها يجعلُهُ أسْعَدَ أمْ لا.

ولأنَّها لا تملِكُ شيئًا يمكِنُها القيامُ بِهِ، عادتْ إبريل إلى غرفَةِ نومِها. فتحتِ النّافذةَ على مِصراعَيْها، لكنَّ الهواءَ القادِمَ مِنَ الخارِجِ صَدَمَها ببرودتِهِ وقسوتِهِ، وآلَمَ رِئَتيها. قالَ لها والدُها إنَّ درجةَ الحرارةِ بالكادِ ترتفعُ فوقَ الصِّفْرِ هُنا، حتّى في ذروةِ الصَّيفِ، فشعرَتْ بِالسّرورِ؛ لأنَّهما أحْضرا معهُما كثيرًا مِنَ الملابسِ. في الأعلى، تَلاشى الضّبابُ تارِكًا سماءً زرقاءَ مُرَقَّطَةً بِالغيومِ. حَدَّقَتْ فيما حولَها بدهشةٍ. وعلى الرّغمِ مِنْ أنَّ الشّمسَ كانتْ منخفضَةً في الأفقِ، فإنَّ الضّوءَ كانَ ساطِعًا في الخارجِ، وكأنَّهُ مُنتصفُ النّهارِ، دونَ وجودِ أيِّ إشارةٍ على غُروبِ الشّمسِ. حتّى وأسطوانةِ (موتزارت) تعزِفُ بِحزْنٍ في الغرفةِ المُجاورَةِ، أفلتَتْ مِنْ بينِ شَفتَيْها تنهيدةُ رِضًا ناعمةٌ. وعلى الرّغمِ مِنَ اليومِ الطّويلِ الّذي مَرّا بِهِ، والرّحلةِ الطّويلةِ الّتي خاضاها، لَمْ تَشعرْ إبريل بِالتّعبِ. بِدلًا مِنْ ذلِكَ، امتلأتْ نفسُها بِنَفادِ الصَّبْرِ الّذي تشعرُ بِهِ عَشِيَّةَ عيدِ الميلادِ. ما أرادَتْهُ حقًّا هوَ الذَّهابُ إلى الخارجِ.

ارتحلَتْ عيناها فوقَ الجبالِ البعيدةِ. البحارُ الهائجةُ إلى

يَسارِها، الأرضُ المُنبسِطَةُ المُغطّاةُ بِالثّلوجِ المُمْتَدَّةِ بِاتّساعٍ أمامَها. ثُمَّ ركَّزَتْ نظرَها، وحَدَّقَتْ مَرَّةً أُخْرى. هُناكَ في الأفقِ، مُسْقِطًا ظِلَّ جسدِهِ أمامَ الشّمسِ، تحرَّكَ شيءٌ! حدثَ هذا في طَرْفَةِ عينٍ. بسرعةٍ فائقةٍ. حتّى إنَّها كادتْ تُفَوِّتُ رؤيَتَهُ. شيءٌ كبيرٌ وذو خطواتٍ واسعةٍ، ولا يمكِنُ توقُّعُهُ أبدًا.

لا يُمكِنُ أنْ يكونَ . . . ؟

طَرَفَتْ عينَيْها مرَّةً أُخْرى. أيًّا كانَ فقدِ اخْتَفى.

لكنَّ إبريل كانَ بإمكانِها أنْ تُقْسِمَ أنَّها لَمَحَتْ لِلتَّوِّ دُبًّا قُطْبِيًّا.



الفصلُ الرّابعُ

اسْتِكشافٌ

«أنا ذاهِبةٌ للاسْتِكشافِ،» أعلنَتْ إبريل.

كانَ هذا اليومُ هوَ أوّلُ يومٍ فِعْلِيٍّ لَهُما على الجزيرةِ؛ لِذا فقدِ انتظرَتْ والدَها معظمَ فترةِ الصَّباحِ لِتقترِحَ عَليهِ المَشيَ أوِ القيامَ بِمغامرةٍ مِنْ نوعٍ ما. لكنْ عندَما حلَّ وقتُ الغَداءِ، كانتْ قدْ سئمَتْ مِنَ العَبَثِ بِأصابعِها. لَبِسَتْ حِذاءَ المطرِ، وقبّعَتَها الحمراءَ، وقفّازاتِها الصّوفَ، ونظرتْ نحوَهُ بِجِدِّيَّةٍ.

«هممم؟» كانَ والدُها مُنغمِسًا في قراءةِ أوراقِ العملِ الّتي تركَها الموظَّفُ السّابِقُ، ولَمْ يشعُرْ بِثِقَلِ نَظراتِها المُحَدِّقَةِ فيهِ. «أحتاجُ أنْ أبدأَ بِقياسِ دَرجاتِ الحرارةِ. اذْهَبي أنتِ مِنْ دوني.» كانَ مُحاطًا بِسجلّاتٍ بَدا مِنْ مَظهرِها أنَّها مُهمَّةٌ. لَوَّحَ بيدِهِ في اتِّجاهِها في إشارةٍ إلى أنَّهُ لا يُمانِعُ حقًّا ما ستفعَلُهُ ما دامتْ لَنْ تقومَ بإزعاجِهِ.

«هلْ أنتَ مُتأكِّدٌ مِنْ أنَّكَ لا تريدُ أنْ تأتيَ؟» ضغطَتْ إبريل بأنفِها على النّافذَةِ، وتابعتْ «يبدو الجَوُّ . . . مِثاليًّا جِدًّا في الخارجِ.»

«في يومٍ آخَرَ يا إبريل،» أجابَها دونَ حتّى أنْ يرفعَ عينَيْهِ. «رُبَّما عندَما لا أكونُ مشغولًا جِدًّا. العملُ هنا أكثرُ بكثيرٍ مِمّا توقَّعْتُ.»

نظرتْ بتردُّدٍ إلى الوراءِ، ثُمَّ انطلقَتْ إلى الخارجِ. تعلَّقَتِ الشّمسُ مشرقةً في السّماءِ، وشَعَّ نورُها على الثّلجِ كَغُبارِ النّجومِ، لكنَّ البردَ ما يزالُ يُفاجِئُها بِلسعاتِهِ القارسةِ. يتسلَّلُ مِنْ أسفلِ معطفِ المطرِ الّذي ترتديهِ، ثُمَّ يزحفُ صاعِدًا فوقَ جِلْدِها، ويتغلغَلُ في عظامِها، وعلى الرَّغمِ مِنَ البردِ، أوْ رُبَّما بِسبَبِهِ، شعرَتْ بِالهواءِ نَقِيًّا. كانتْ لَهُ رائحةٌ ذَكَّرَتْها بِالملاءاتِ

المغسولَةِ لِلتَّوِّ أوْ بِرائحةِ شاطئِ البحرِ بعْدَ هدوءِ العاصفةِ.

كانتْ رائحةً زَكِيَّةً لِلغايَةِ لِدرجةِ أنَّها أرادتْ أنْ تَشرَبَها.

أخذتْ نَفَسًا عميقًا، وانطلقَتْ في الاتِّجاهِ الّذي ظنَّتْ أنَّها شاهدَتِ الدُّبَّ القُطْبِيَّ فيهِ. كانَ تفكيرُها المنطقِيُّ يقولُ لَها إنَّ الأمرَ قدْ لا يعدو أنْ يكونَ خدعَةَ ضَوْءٍ اختصَّ بِها هذا الجزءُ مِنَ العالَمِ. إلّا أنَّ هذا الاحتمالَ لَمْ يمنعْها مِنْ أنَ تتحقَّقَ مِنَ الأَمرِ.

رُبَّما كانتْ فِكرةُ مُشاركَةِ جزيرةٍ مهجورةٍ مَعَ دُبٍّ قُطْبيٍّ لَتُثيرُ الخوفَ لَدى بعضِ الأطفالِ، لكنْ ليسَ لَدى إبريل. لَمْ يخطرْ بِبالِها حتَى أنْ تَخافَ. في الواقِعِ، شعرَتْ بِعكسِ ذلِكَ، كانتْ تشعُرُ بِوَميضٍ بَرّاقٍ مِنَ الحَماسِ، كَما لَوْ أنَّ شَخصًا قَدْ نَثَرَ عَليها التِّرْترَ اللَّمّاعَ. هنا، كانَ العالَمُ الواسِعُ الّذي طالَما تحدَّثَتْ عنهُ والِدَتُها، وإبريل صارتْ تعيشُ بِداخلِهِ تمامًا.

لكنْ بَعْدَ نَحْوِ ساعةٍ مِنَ المَشْيِ، انْقطعَتْ أنفاسُها، وأخذَتْ آمالُها تتلاشى. كانَتِ الطّريقُ مُنبسطَةً، إلّا أنَّها داستْ لِأكثرَ مِنْ مَرَّةٍ جَيْبًا ثلجيًّا عميقًا غيرَ مُتَوَقَّعٍ، وتركَتْ وراءها فَرْدَةً مِنْ حِذائها الواقي مِنَ المطرِ. كانتْ تَرتدي ملابسَ التَّدفئةِ الدّاخليّةِ، وقميصًا قُطْنيًّا رقيقًا، ومعطفًا صوفيًّا قصيرًا بِسَحّابٍ أماميٍّ وبنطالًا أزرقَ واقيًا مِنَ الماءِ (كانتِ التّعليماتُ تَنُصُّ على أنْ

ترتدِيَ كلَّ هذه الملابسِ هيَ ووالدُها). فوقَ كلِّ هذا، ارتدَتْ سُتْرتَها الحمراءَ المقاوِمَةَ لِلماءِ، وحِذاءَ المطرِ بِلونِ قَوْسِ قُزَحَ. وعلى الرّغمِ مِنْ كلِّ هذا، كانَ جَوْرَباها رَطبينِ، وأنفُها أحمرَ، وعيناها تَدمعانِ بِسببِ الرّيحِ.

«مَرحبا!» نادتْ إبريل، بَدا صوتُها غريبًا وضعيفًا وسطَ كلِّ هذا الفراغِ: «هلْ يوجَدُ أَحَدٌ هُنا؟!»

أدارتْ رأسَها لِتُنصِتَ جَيِّدًا، لكنّها لَمْ تسمعْ شيئًا سِوى الصّوتِ النّاعِمِ لِتَساقُطِ الثّلوجِ وَهديرِ البحرِ البعيدِ.

كانَ الأمرُ مختلِفًا تمامًا عمّا هوَ عليهِ في مَوطِنها - الهَمْهَمَةُ الدّائمَةُ لِحركةِ المرورِ، ضَجيجُ الطّائراتِ فوقَ الرُّؤوسِ، رائحةُ المُحرِّكاتِ وصوتُها المُختنقُ، والملايينُ مِنَ النّاسِ في الشّوارعِ تتدافَعُ وتهروِلُ لِلوصولِ إلى مكانٍ ما. لَمْ يكنْ حتّى مِثْلَ ما هوَ عليهِ في مزرعةِ الجَدَّةِ (أبلز) الممتلئةِ بِأشجارِ التّفّاحِ النّاضِجِ، تُخَشْخِشُ أوراقُها في النّسيمِ، رائحةُ المُعجَّناتِ، وصيحاتُ الأطفالِ البعيدةُ وهُمْ يلعبونَ في ماءِ الخليجِ الفَيروزِيِّ.

كلُّ شيءٍ هنا كانَ هادِئًا، بِكْرًا، لَمْ تَمْسَسْهُ يَدٌ. كَصورةٍ دخلَتْ فيها عَنْ غيرِ قَصْدٍ. وبِاسْتِثناءِ طيورِ النَّورسِ الصَّيّاحةِ - والعديدِ مِنَ الطّيورِ البحريَّةِ الأُخْرى الّتي لَمْ تَتَعَرَّفْها - كانَ الدّليلُ

الوحيدُ عَلى وجودِ حَياةٍ هوَ آثارُ قدمَيْها في الثّلجِ. حَدَّقَتْ فيها، تلوّتْ خلفَها مِثْلَ خَطٍّ مِنْ فُتاتِ الخُبْزِ. كانَ مكانًا فارغًا. مكانًا بِإمكانِهِ أنْ يكونَ مُوحِشًا لِلغايةِ إذا لَمْ يكنْ لَديكَ مَنْ تُشارِكُهُ مَعَهُ. رُبَّما كانَ هذا هوَ الشّيءُ الّذي حَذَّرَها مِنْهُ تور. الشّعورُ بِأنَّها على حافَّةِ الكُرةِ الأرضيَّةِ. الإحساسُ بِأنَّها إذا نظرَتْ إلى الأعلى فَسيكونُ بِمقدورِها أنْ تُطِلَّ مِنْ هذا العالَمِ عَلى العالَمِ الآخَرِ.

استمرَّتْ في المَشيِ لِمُدَّةِ ساعتينِ أُخْرَيَيْنِ، حتّى صارَ الجوُّ بارِدًا للغايَةِ بِحيثُ لَمْ يَعُدْ بِمقدورِها المواصلةُ، وشعرَتْ بِأنَّ أنفَها على وشَكِ أنْ يَسقُطَ. كانتْ قدْ أبقَتْ عَينَيها مَفتوحتينِ طَوالَ الوَقتِ بحثًا عَنْ أيِّ دليلٍ على الدُّبِّ القُطبيِّ - بَحْثًا عنْ أدلَّةٍ، مِثْلِ: بُرازِ دُبٍّ قُطبيٍّ، فُقْمَةٍ مَقتولَةٍ أوْ آثارِ أقدامِهِ - بَحْثًا عنْ شيءٍ يُفسِّرُ ما رأتْهُ اللّيلةَ الماضِيةَ.

لكنَّها لَمْ تَرَ أيَّ عَلامةٍ تَدُلُّ عليهِ.

عادَتْ إلى المنزلِ، وقضَتْ بَقِيَّةَ يومِها تتدفَّأُ أمامَ النّارِ. وفي ذلِكَ المساءِ، وأثناءَ العَشاءِ، سألَتْ والدَها: «لماذا سَمَّوْها جزيرةَ الدُّبِّ إذا لَمْ يكنْ فيها دِببَةٌ قُطْبيَّةٌ؟»

كانَ والدُها قدْ وضعَ دَفاترَهُ على الأرضِ أخيرًا، وجلَسا جنبًا

إلى جنبٍ على الأريكَةِ يَتناولانِ عَشاءَهُما مُباشرةً مِنَ العُلَبِ المعدنيَّةِ. كانَ ذلكَ هوَ اليومُ الأوَّلُ فقطْ، لكنْ ومِنْ خلالِ اتِّفاقٍ غيرِ مُعلَنٍ، قَرَّرا أنَّ الأطباقَ والأوعِيَةَ هِيَ إضافةٌ غيرُ ضروريَّةٍ في أوقاتِ الوَجَباتِ.

وَضَعَ يَخْنَةَ اللَّحمِ الخاصَّةَ بِهِ على الأرضِ، وعَدَّلَ جلسَتَهُ؛ لِيصيرَ مُواجِهًا لَها، وقالَ: «لأنَّهُ قبلَ زَمَنٍ طَويلٍ كانتِ الجزيرةُ مُمتلِئَةً بِالدِّببَةِ.»

«إذنْ، هيَ في الحقيقةِ تُسَمّى جزيرةَ الدُّبِّ بِسببِ الدِّببَةِ؟» سألتْ إبريل مُبتهجَةً بِحصولِها على كاملِ انْتباهِهِ. «اعتقدْتُ أنَّهُ رُبَّما كانَ مُجَرَّدَ اسمٍ مُخْتَلَقٍ.»

«لا. إنَّهُ اسمٌ حقيقيٌّ،» قالَ والِدُها، وقدْ بدا سعيدًا لِتَمَكُّنِهِ مِنْ مشاركَةِ بعضٍ مِنْ مَعرِفَتِهِ: «يعودُ تاريخُ هذا الاسمِ إلى عامِ 1596 عندما سُجِّلَتْ أوَّلُ عملِيَّةِ قَتْلٍ لِدُبٍّ قُطْبِيٍّ على هذه الجزيرةِ. صارَعوا الدُّبَّ لِأَكْثَرَ مِنْ ساعتينِ قَبْلَ أنْ يَقتلوهُ في النِّهايَةِ - ثُمَّ بعدَ ذلكَ أطلَقوا عَلى الجزيرةِ اسْمَ جَزيرةِ الدُّبِّ.»

«*ساعتانِ؟*» قالَتْ، والألَمُ يعتصِرُ قَلْبَها. «المسكينُ.»

«هذا ما كانوا يَفعلونَهُ في تلكِ الأيّامِ.»

عَبَسَتْ إبريل. «إذنْ، لا توجَدُ دِببَةٌ؛ لأنَّ النّاسَ *قتلوها*

جميعَها؟»

«هذا، والأغطِيَةُ الجليديَّةُ.»

كانتْ إبريل تعرفُ أنَّ بعضَ الأغطِيَةِ الجليديَّةِ تتشكَّلُ في الشّتاءِ، ثُمَّ تذوبُ في الصَّيفِ، وأنَّها تبدو مِثْلَ قِطَعِ أُحْجِيَةٍ مُتراصَّةٍ تَطفو فوقَ الماءِ. كانتْ تعلمُ أيضًا أنَّهُ في يومٍ مِنَ الأيّامِ كانَ هناكَ كثيرٌ مِنَ الأغطِيَةِ الجليديَّةِ أكثرُ ممّا يوجَدُ منها حالِيًّا. لكنْ ما لَمْ تكُنْ تعرِفُهُ هو كيفَ أثَّرَ ذلك في جزيرةِ الدُّبِّ.

أوضحَ والدُها: «كانتِ الأغطِيَةُ الجليديَّةُ تمتدُّ إلى هذِهِ النّقطةِ في جنوبِ الجزيرةِ.»

«ما يَعْني أنَّ الدِّببةَ كانَ بإمكانِها الوُصولُ إلى الجزيرةِ في الشّتاءِ؟»

«بالضَّبطِ.» أجابَ: «الدِّبَبَةُ القُطبيَّةُ هيَ في الغالِبِ حيواناتٌ بحريَّةٌ، وتستخدمُ الأغطِيَةَ الجليديَّةَ كَقاعدةِ صيدٍ لِلإمساكِ بحيواناتِ الفُقْمَةِ. لكنَّ الأغطِيَةَ الجليديَّةَ تذوبُ حالِيًّا، وهذا يَعْني أنَّ الدِّبَبَةَ لا تستطيعُ الارتحالَ مَسافاتٍ بعيدةً كَما كانتْ تَفْعلُ مِنْ قَبْلُ. هذا هوَ سَببُ انخفاضِ عَددِ الدِّببةِ القُطبيَّةِ.»

جلستْ إبريل تفكِّرُ وهيَ تنظرُ في علبةِ يَخْنَةِ الحُمُّصِ الخاصَّةِ بِها. (كانتْ نَباتِيَّةً فَخورةً منذُ أكثرَ مِنْ عامينِ.)

«لكنْ إذا كانتِ الأغطِيَةُ الجليديَّةُ هنا تذوبُ . . . »

«قدْ ذابتْ،» صَحَّحَ والدُها.

«قدْ ذابتْ،» عدَّلَتْ إبريل جملَتَها، وتابعَتْ: «إذا كانَتِ الأغطِيَةُ الجليديَّةُ هنا قد ذابَتْ، فهلْ يَعني هذا أنَّهُ ليسَ بِمقدورِ دُبٍّ أنْ يعودَ إلى جزيرةِ الدُّبِّ *أبدًا*؟»

«لنْ يستطيعَ في غيابِ الأغطِيَةِ الجليديَّةِ. أقرَبُ تجمُّعٍ لِلدِّببةِ القُطبيَّةِ موجودٌ في (سفالْبارد)، وهيَ تبعُدُ ما يقرُبُ مِنْ مِئتينِ وخمسينَ ميلًا. في الأيّامِ الخَوالي، كانتْ (سفالْبارد) هيَ المكانُ الّذي ترتحِلُ مِنهُ الدِّببةُ لِلوصولِ إلى جزيرةِ الدُّبِّ، لكنْ حالِيًّا صارتِ المسافةُ بعيدةً جِدًّا بِالنِّسبةِ لها لِتتمكَّنَ مِنْ قَطْعِها سِباحةً.»

«ولا حتّى دُبٍّ واحدٍ؟» سألتْ بِصوتٍ صَغيرٍ، متخيِّلَةً الدُّبَّ في ذِهْنها.

«ولا حتّى دُبٍّ واحدٍ.»



الفصلُ الخامسُ

خليجُ (والْروس)

في الأسبوعينِ التّاليينِ، انْتظمَ كُلٌّ مِنهُما وَفْقَ إيقاعٍ واحدٍ. لَمْ يكُنِ الإيقاعُ الّذي تَوقَّعَتْهُ إبريل أو حتّى أرادتْه، لكنَّهُ كانَ إيقاعًا مألوفًا على الأقلّ. كانَ والدُها يستيقظُ مَعَ الفَجْرِ، ثُمَّ يَختفي في العَمَلِ، على الرَّغْمِ مِنْ أنَّ العملَ على جزيرةِ الدُّبِّ لَمْ يتطلَّبْ منْهُ استخدامَ المواصلاتِ العامَّةِ للتَّنقُّلِ عَبْرَ مدينةٍ مزدحمةٍ، وإنَّما المشْيُ ثلاثينَ ثانيةً نَحْوَ مَقصورةِ الأرصادِ

الجوّيّةِ. ولأنَّ قياسَ درجاتِ الحرارةِ كانَ عملًا يستغرقُ اليومَ بِأكملِهِ، فإنَّهُ لَمْ يكُنْ يعاودِ الظّهورَ إلّا بعدَ موعِدِ العشاءِ بوقتٍ طويلٍ.

احتفظتْ إبريل بشرارةِ الأملِ متّقِدةً في داخِلِها، بأنَّ والدَها قدْ يُعلِنُ يومًا أنَّهما ذاهبانِ للتَّزلُّجِ أوْ لِصناعَةِ رَجُلٍ مِنَ الثّلجِ أو حتّى للمَشْيِ مَعًا فَحَسْبُ، لكنَّ تلكَ الشّرارةَ كانتْ تخبو شيئًا فَشيئًا معَ كُلِّ يومٍ يَمُرُّ. لقدْ سمعَتْهُ يُتمتِمُ، أكثرَ مِنْ مرَّةٍ، حولَ حجمِ العمَلِ المتوقَّعِ مِنْهُ القيامُ بِهِ. وفي الأوقاتِ الّتي تزدادُ فيها ضُغوطُ العملِ، كانَ معرَّضًا للإصابةِ بِنوباتِ غَضَبٍ شديدةٍ. لَمْ تكنْ تلكَ النّوباتُ تدومُ طَويلًا، ولمْ تكنْ تنِمُّ عَنْ سوءِ نِيَّةٍ، لكنَّها كانتْ بقوَّةِ عاصفةٍ خاطفةٍ، ولِهذا كانتْ إبريل تُراقِبُ المشهدَ بِحَذَرٍ مِنْ بعيدٍ، تفادِيًّا لِنوبةِ غَضَبٍ مُصَوَّبَةٍ نَحوَها عَنْ طريقِ الخطأِ. حتّى إنّها في يومٍ طَويلٍ متوتِّرٍ جِدًّا، عَرَضَتْ عَليهِ مُساعَدَتَهُ في قياسِ درجاتِ الحرارةِ، لكنَّهُ صاحَ فيها قائلًا: إنَّهُ ليسَ بِعَمَلٍ لِفتياتٍ صَغيراتٍ. كلُّ هذا كانَ يَعْني أنَّها تمتلكُ بينَ يَديها كَثيرًا مِنْ وقتِ الفراغِ؛ أكثرَ بِكثيرٍ مِمّا أرادتْ عَلى أيِّ حالٍ.

كانَ يومُها يَمْضي على هذا النَّحْوِ تَقريبًا:

6 صباحًا – 7 صباحًا: الاستلقاءُ على السّريرِ، وعَدُّ الثّواني حتّى يصبحَ مِنَ الواجبِ عَليها النّهوضُ. وعَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ التّاريخَ كانَ في منتصفِ شهرِ أبريلَ، فإنَّ الطَّقْسَ في الدّائرةِ القُطبيّةِ الشّماليّةِ بَقِيَ باردًا للغايَةِ طَوالَ اليومِ، بَلْ وَأَشَدَّ بَرْدًا في أوّلِ النَّهارِ، خاصَّةً إذا نَسيتَ أنْ تَجلِبَ خُفَّيْكَ مَعَكَ.

7 صباحًا: تناولُ الفطورِ. عادَةً، بسكويتُ الشّوفانِ الجافُّ، ليستْ سيِّئةً إذا دَهَنْتَها بزُبْدَةِ الفولِ السّودانيِّ. (أحضرتْ إبريل معها الكثيرَ منْ بَرطماناتِ زُبدةِ الفولِ السّودانيِّ). لكنْ في أيّامِ الآحادِ، كانَ يمكِنُهُما تَناولُ ما يرغبانِ بِهِ، وعادةً ما تختارُ البسكويتَ بالشّوكولاتةِ مَعَ كوبٍ عملاقٍ مِنَ الشّوكولاتةِ السّاخنةِ.

8 صباحًا – 21 ظهرًا: المدرسةُ، لكنْ فقطْ مِنَ الإثنينِ إلى الجمعةِ.

لمْ تكنْ مَدرسةً حقيقيّةً بِالطَّبْعِ. كيفَ لَها أنْ تكونَ كذلِكَ؟ لكنَّ والدَها وَعَدَ مُعَلِّمَةَ إبريل بأنَّهُ سَيُدَرِّسُها في المنزلِ، لذلكَ جَلَبَ مَعَهُ سِتَّ مَوسوعاتٍ – واحدةً لكُلِّ شهرٍ تَقضيهِ هُنا. رُبَّما لَمْ

يكنْ هذا ما خَطَرَ في أذهانِ المُعَلِّمينَ. لكنَّها عَلى الرّغمِ مِنْ خُطوطِها الصّغيرةِ جِدًّا، وأوراقِها الَّتي تَفوحُ مِنْها رائحةُ الغبارِ، كانَ بِها صُورٌ جميلةٌ لحيواناتٍ، والأهَمُّ مِنْ هذا، أنَّها ستُعلِّمُها عَنْ هذا الجزءِ مِنَ العالَمِ الّذي وَجَدَتْ نفْسَها الآنَ فيهِ.

بهذِهِ الطّريقةِ، تعلَّمَتْ إبريل أنَّ كلمةَ القُطْبِ الشَّماليِّ باللُّغةِ الإنجليزيّةِ (Arctic) جاءتْ مِنَ الكلمةِ اليونانيّةِ (آركْتوس Arktos) وَمعناها *الدُّبُّ*. اكتشفتْ أيضًا أنَّ الدّائرةَ القُطبيّةَ الشّماليّةَ لَمْ تكنْ دائرةً حقيقيّةً عَلى الإطلاقِ، وإنّما خطٌّ غيرُ مَرئيٍّ يلُفُّ الجزءَ العلويَّ مِنَ الكرةِ الأرضيّةِ، مُطوِّقًا العديدَ مِنَ البُلدانِ المختلفةِ، بِما في ذلكَ النِّرويج وروسيا، وفِنْلندا وكَنَدا وأمريكا. وأنَّ مِنْ بينِ سُكّانِ العالَمِ *بأسرِهِ*، يعيشُ أربعةُ ملايين مِنَ البَشَرِ هُنا عَلى مدارِ السّنةِ، بَشَرٌ مِثْلُ تور ووالدِهِ. في لَحظاتٍ كَهذهِ، تمنَّتْ إبريل لو كانَ بِمقدورِها التّحدُّثُ مَعَ تور وسؤالُهُ عَنْ أُمورٍ ليسَ لَدى الموسوعاتِ مُتَّسَعٌ للإجابةِ عَنْها. كانَ تور قدْ أعطاها رَقْمَهُ، لكنَّها ظنَّتْ بأنَّ هاتفَ الأقمارِ الاصطناعيّةِ لَمْ يكنْ مُخصَّصًا للمحادثاتِ، كأنْ تتَّصلَ بِهِ لِتسألَهُ عَنْ حقيقةِ وجودِ مئةٍ وثمانينَ كلمةٍ مختلفةٍ لِوصفِ الثّلجِ في لغةِ شعبِ قوميَّةِ *السّاما*[3].

21 ظهرًا: الغداءُ. تُسَخِّنُ إبريل عادةً علبةً مِنْ حَساءِ الطّماطمِ، وتتناوَلُها مَعَ مزيدٍ مِنْ بسكويتِ الشّوفانِ. كانتْ تأخذُ حصَّةَ والدِها مِنَ الحَساءِ إلى كَبينَةِ الطّقسِ - كَما اعتادتْ أنْ تُسمّيَهُ - وتتركُها عَلى مقربةٍ مِنْهُ حتّى لا تُزعجَهُ.

03.21 بعدَ الظُّهرِ - حتّى وقتٍ مُتأخِّرٍ: وقتُ البحثِ عنِ الدُّبِّ القُطبيِّ.

فَبِغَضِّ النَّظرِ عَمّا قالَهُ والدُها، لمْ تكنْ إبريل مُستعدَّةً للاعْترافِ بِعدمِ وجودِ دُبٍّ هُنا. كما أنّ انشغالَ والدها الكَبيرَ، منَحَها الكثيرَ من الوقتِ لِتفعلَ ما تريد. وهكذا - مُتسلِّحةً بِمنظارٍ، وبوصَلةٍ، وحذائِها الواقي مِنَ المَطرِ الملوَّنِ بِألوانِ قَوسِ قُزَحَ، وقُبَّعَتِها، وقُفّازَيها، ونحوَ ألفِ طَبقةٍ مِنَ الملابسِ - انطلقَتْ إبريل بعدَ ظَهيرةِ كُلِّ يومٍ للبحثِ عَنِ الدُّبِّ.

بمرورِ الأيّامِ، أخذَ جليدُ الأرضِ يذوبُ، وسريعًا لَمْ يعُدْ بمقدورِها تتبُّعُ آثارِ أقدامِها عِلى الثَّلجِ. لكنْ لِحُسْنِ الحَظِّ، شَرحَ لَها والدُها كيفَ تستخدمُ البوصلةَ، وَأوضحَ لَها أنَّها إذا سارَتْ نحوَ الجنوبِ، فستجدُ طريقَها دائمًا إلى المَقصورتينِ. كانَ الأمرُ

الوحيدُ الّذي حذَّرَها مِنْهُ هوَ ألّا تُغامِرَ بالاقترابِ كَثيرًا مِنْ حافَّةِ البَحرِ، كي لا تسحَبَها مَوجَةٌ عاتِيَةٌ. كانتْ مِياهُ البَحرِ في القُطْبِ الشَّماليِّ مُتجمِّدَةً، وَبإمكانِها أنْ تَقتُلَها في بِضْعِ دَقائقَ فَقَطْ.

عَدا عَنْ ذلِكَ، أطلَقَ لَها والدُها العِنانَ، وكانَ بإمكانِها أنْ تفعلَ ما تُرِيدُ.

بالطَّبْعِ، أَبقتْ إبريل مهمّتَها طَيَّ الكِتمانِ. كانتْ تعلَمُ أنَّ والدَها سيقولُ لَها إنَّ الدِّبَبَةَ القُطبيّةَ شديدةُ الخُطورةِ، وسترغَبُ عَلى الأرجحِ بالْتِهامِ فَتاةٍ مثلِها. لكنَّ هذا لَمْ يمنعْها مِنَ البحثِ.

صاحتْ مُناديةً: «أينَ أنْتَ؟ أينَ تَختبِئُ؟»

استغرقَ الأمرُ نَحْوَ أُسبوعٍ كامِلٍ مِنَ البحثِ.

خِلالَ ذلكَ الوقتِ، تقبَّلَتْ عَلى مَضَضٍ حقيقةَ أنَّها ووالدَها كانا الشَّخصينِ الوحيدينِ الموجودينِ عَلى الجزيرةِ، ونَظَرًا لقلَّةِ الوقتِ الّذي يقضيهِ والدُها مَعَها، فلابدَّ مِنْ أنَّها ستكونُ بمفردِها هُنا أيضًا. لكنَّها، رغمَ ذلكَ، بدأتْ تشعرُ بأنَّ جزيرةَ الدُّبِّ صارتْ مَوطِنًا لَها - وإنْ كانتْ مكانًا خارِجًا عَنِ المألوفِ. كانَ للجزيرةِ نَبْضٌ غامِضٌ خاصٌّ بِها، ومنْ دونِ أنْ تدركَ ذلكَ، تلاشَتْ أصواتُ حياتِها السّابقةِ في المدينةِ، وضجيجُها، وضوضاؤها، وصداها. صارَ للمنزلِ المرتفعِ المظلمِ حوافٌّ

ضَبابيَّةٌ، وصارَ يصعبُ عَليها تذكُرُهُ. حتّى بيتُ الجَدَّةِ (أبلز) عَلى البحرِ بدأتْ ألوانُهُ تَبْهَتُ. أمّا المدرسةُ فكانتْ شيئًا نَسيَتْهُ تَمامًا، رغمَ أنَّ نِسيانَها لمْ يكنْ صَعْبًا بالتّأكيدِ.

كانَ الأمرُ أشبَهَ بِوجودِها في عالَمٍ جديدٍ بالكامِلِ. وأقربَ إلى الشّعورِ بِالعيشِ داخلَ قِصَّةٍ خياليَّةٍ، كانتْ إبريل قد أحسَّتْ بِهِ طَوال عمرِها.

معَ ذوبانِ مَزيدٍ مِنَ الثّلوجِ يومًا بعدَ يومٍ، اكتشفَتْ إبريل بُحيراتٍ داخليّةً، بعضُها يماثِلُ لونُها لونَ البحرِ مِنْ شِدَّةِ زُرقتِهِ. قفزَتْ فوقَ جَداولِ الماءِ الّتي كانتْ تَشُقُّ طَريقَها مُغَرْغِرَةً نَحْوَ البحرِ عَبْرَ المُنحدراتِ المُلتويَةِ في الجبالِ المُغطّاةِ بِالثّلجِ، اسْتلقَتْ عَلى ظهرِها، وشاهدتْ آلافَ النّوارسِ تعبُرُ فوقَ رأسِها كَقوسٍ أبيضَ مهيبٍ. حتّى إنّها رأتْ ذاتَ مرَّةٍ ثَعلبًا قُطْبِيًّا وحيدًا، يقفُ ثابِتًا وواثِقًا على مَسافةٍ مِنْها، فروُهُ أبيضُ مُخملِيٌّ برّاقٌ. حَبَسَتْ إبريل أنفاسَها مِنَ الدّهشةِ، بينما لَفَّتِ الجزيرةُ ثوبَها السّحريَّ حولَها بإحكامٍ.

كلُّ ما تحتاجُهُ الآنَ هوَ العُثورُ على دُبِّها القُطْبِيِّ.

«أنتَ ذَكَرٌ، أليسَ كذلِكَ؟» صاحَتْ عالِيًا. أعْلَمُ أنَّكَ ذَكَرٌ. لا أعرفَ كيفَ عرفْتُ ذلِكَ، لكنَّني أعرِفُ؟»

أحيانًا كانَ يُخالِجُها شعورٌ بأنَّ الدُّبَّ يُراقِبُها مِنْ مكانٍ ما. لمْ يكنْ شُعورًا قائمًا عَلى شيءٍ مَلموسٍ، وإنَّما شيءٌ يُشبهُ الحاسَّةَ السّادسَةَ. إحساسٌ بأنَّها ليستْ دائمًا بِمُفرَدِها. لكنْ، في كُلِّ مَرَّةٍ ترفعُ فيها رأسَها، وتحدِّقُ فيما حولَها، لَمْ يكُنْ هُناكَ ما يمكِنُ رؤيَتُهُ عَدا ضوءَ الشَّمْسِ وَالجبالَ والأمواجَ المُتكَسِّرَةَ عَلى الشّاطئِ.

هذا اليومُ كانتْ قدِ اسْتكشفَتْ نِصفَ الجزيرةِ تقريبًا. لكنَّها بعدَ الظّهيرَةِ قرَّرَتْ زِيارةَ محطَّةٍ قديمةٍ لِصيدِ الحيتانِ في خليجٍ صغيرٍ يُسمّى خليجَ (والْروس Walrus bay) عَلى الجانبِ البعيدِ مِنَ الجزيرةِ. قبلَ سنواتٍ وسنواتٍ، حاولَ البشرُ العيشَ في هذا الخليجِ، لكنَّهمْ فَشِلوا، وقد أعجبَتْ تلكَ الفكرةُ إبريل كثيرًا. ولتَصِلَ إلى هناكَ مَرَّتْ بِمجموعةٍ مِنَ البُحيراتِ الدّاخليَّةِ المُتلألِئَةِ، ثُمَّ توجَّهَتْ نحوَ الجبالِ الثَلاثةِ.

عَلى الخريطةِ لَمْ يَبْدُ خليجُ (والْروس) بعيدًا، لكنَّ الوصولَ إلى هُناكَ استغرقَ وقتًا أطولَ بِكثيرٍ ممَا توقَّعتْهُ، وبعدَ قرابةِ ثلاثِ ساعاتٍ، كانتْ عَلى وشكِ العودةِ مِنْ حيثُ أتتْ. لمْ يكنِ الظّلامُ ليحلَّ قبلَ مُنتصفِ اللَّيلِ، لكنّها لَمْ ترغبْ في البقاءِ خارجَ المنزلِ لِوقتٍ متأخِّرٍ. فهناكَ ضَبابٌ غريبٌ عادةً ما يستقرُّ

فوقَ الجزيرةِ وقتَ الظَّهيرةِ، مُتشبِّثًا بِها كشبحٍ، ومُحيلًا نورَها إلى لونٍ أصفرَ مُخيفٍ.

في تلكَ اللّحظةِ سمعَتِ الصّوتَ.

رفعتْ إبريل رأسَها. لمْ يكنْ صَوتًا سمِعَتْهُ مِنْ قَبْلُ، سواءٌ عَلى جزيرةِ الدُّبِّ أو في موطِنِها.

لمْ يكنْ حتّى صَوْتًا بَشَرِيًّا. ذكَّرها الصّوتُ بِشيءٍ ما، لكنَّها كلَّما حفرَتْ عَميقًا في ذاكِرَتِها باءتْ محاولاتُها بِالفشلِ في العُثورِ عَلى الذِّكْرى. وقفتْ بِلا حَراكٍ، صَعِدَتْ أنفاسُها في الهواءِ البارِدِ مثلَ دُخانٍ. توقَّفَ الصّوتُ فأطلقتْ تنهيدةَ ارتياحٍ عميقةً. لمْ يكنْ ذلكَ النَّوعُ مِنَ الصّوتِ الّذي ترغَبُ في الاستماعِ إليهِ لِفترةٍ طويلةٍ. كانَ عميقًا وأجشَّ، وجعلَ جلدَها يشتَدُّ. لكنْ بِالسّرعةِ الّتي اعتقدتْ أنَّهُ اختفى معَها، عادَ الصّوتُ مِنْ جديدٍ. في هذِهِ المرَّةِ أعلى.

اختنقَتْ إبريل حينَ أدركَتْ فجأةً ما ذكَّرَها الصّوتُ بِهِ: كانَ هذا قبلَ ثلاثةِ أعوامٍ، عندَما علقَتْ قَدَمُ أحَدِ الثّعالِبِ في علبةِ صَفيحٍ صَدِئَةٍ، ولمْ يتمكَّنْ مِنْ إخراجِها مِنْها. كانَ صوتًا مُريعًا يعتصرُ الأحْشاءَ، لِحيوانٍ يتألَّمُ.

«أوه كَلّا.» انقبضَ قَلْبُ إبريل بِشِدَّةٍ. لمْ يكنْ مِنَ المُمكنِ

أنْ تعودَ أدراجَها الآنَ. ليسَ حينَ يكونُ هُناكَ حَيوانٌ بِحاجةٍ إلى مُساعدَتِها، ليسَ حينَ لا يكونُ هُنالِكَ أحَدٌ لِإنقاذِهِ سِواها. أسرعَتْ في مِشيَتِها، تعثَّرَتْ، ثُمَّ تَزحلقَتْ ما تَبَقّى مِنْ مِئاتِ الأمتارِ الأخيرةِ، أنفاسُها تُؤلِمُها في حلْقِها، وصدرُها يحترقُ، حتّى وصلتْ أخيرًا إلى خليجِ (والْروس).

توقَّفتْ، وجسدُها يَرْتَجُّ.

كانَ الضَّبابُ آخِذًا بِالزّحفِ إلى الجزيرةِ، يَسْعى فيها كَثُعبانٍ عَلى الأرضِ. كانَ هُناكَ جِسْرٌ خَشبِيٌّ مُمتدٌّ عَلى مياهِ الخليجِ، لكنَّهُ لَمْ يُستخدَمْ مُنذُ فترةٍ طويلةٍ حتّى صارَ مُجَرَّدَ سِلسلةٍ مِنَ الألواحِ المُتعفِّنَةِ المُفكَّكَةِ. في مكانٍ آخرَ، كانَ هُناكَ كوخٌ خَشبيٌّ قديمٌ بابُهُ مخلوعٌ ومعلَّقٌ مِنْ مُفَصّلاتِهِ، ونوافِذُهُ القَديمةُ مُحطَّمةٌ. عَلى الشّاطِئِ هَيْكَلٌ مَهجورٌ لِقاربِ صَيْدٍ قديمٍ مَقلوبٌ وَبجانبِهِ كومَةٌ مِنَ الحِبالِ المعدنيَّةِ الصَّدئةِ. بَدا المَشهدُ كلُّهُ وقدِ اكْتَنفَهُ الضّبابُ المُخيفُ، كأنَّهُ خارجٌ مِنْ فيلمٍ عَنِ الأشباحِ.

ثُمَّ عادَ الصّوتُ مرَّةً أُخْرى.

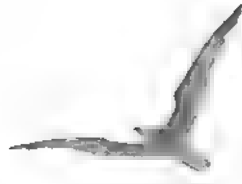
أقربُ بِكثيرٍ الآنَ. كانَ في هذِهِ المرَّةِ عَنيفًا ومرتفِعًا ومخيفًا، شعرَتْ مَعَهُ بقشعَريرَةٍ تَسْري عَلى طولِ عَمودِها الفقرِيِّ. حتّى

لَوْ أرادتِ الهَرَبَ، ما كانتْ لَتستطيعُ أَنْ تَفْعَلَ. بَدَلًا مِنْ ذلِكَ، تَجَذَّرَتْ في الأرضِ، بينَما هَسْهَسَ وَهَمْهَمَ كُلُّ عَصَبٍ في جَسدِها مِثْلَ الكَهرباءِ. بَدا كَما لَوْ أنَّ الوقتَ تَجمَّدَ فَجأةً، أو عَلى الأقَلِّ تَباطَأَ. شَعرتْ بِالهواءِ حادًّا وساكِنًا. توقَّفَتِ الرّيحُ. حتّى البحرُ حَبَسَ أنفاسَهُ.

وعرفتْ إبريل أنّها إذا ما نظرَتْ للأَعلى، فلنْ تعودَ حياتُها إلى ما كانتْ عليهِ مِنْ قَبْلُ. إنَّ هذهِ اللَّحظةَ نَفسَها ستغيِّرُها بطريقةٍ ما. ربَّما حتّى إلى الأبَدِ.

رفعتْ عينَيْها بِبطءٍ.

وهناكَ، واقِفًا عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الشّاطئِ، عَلى بُعْدِ نَحْوَ خَمسينَ مترًا، كانَ أروعُ مَخلوقٍ رأتْهُ عَلى الإطلاقِ.



الفصلُ السّادسُ

جَريحٌ

اِستقامَ عَلى قائمتَيْهِ الخَلفيَّتينِ، مُنتصِبًا نحوَ السّماءِ مِثْلَ حِصانٍ أبيضَ رائعٍ. كانتْ ذَقْنُهُ ممدودةً نَحْوَ الأمامِ بِثقةٍ، لَمْ يَبْدُ أنَّهُ يتألَّمُ. في الحقيقةِ، استقامَ بِطريقةٍ تدُلُّ عَلى أنَّهُ يدركُ تمامًا كَمْ هُوَ مهيبٌ.

كانتْ أنفاسُها تَحتبسُ أمامَ ذلِكَ المزيجِ مِنَ العضلات القوية والقدرة الوحشيَّةِ الخالِصَةِ.

وَضَعَت إبريل يَدَها على فَمِها لِتوقِفَ شَهَقاتِها العاليةَ.
«أنتَ رائعٌ،» همستْ لنفسِها.
ومِنْ دونِ حتّى أنْ تعرفَ السَّببَ، سالتْ على وجهِها دمعةٌ. ليسَ لأنَّها كانتْ حزينةً. بلْ لأنَّ البكاءَ كانَ الطّريقةَ الوحيدةَ لِإخراجِ عاطفةٍ بِحجمِ العاطفةِ الّتي كانتْ بِداخلِها. كالطَّريقةِ الّتي تدفعُها مشاهدةُ أخبارٍ عَنْ تدميرِ غاباتِ الأمازون إلى الصّراخِ بِغضبٍ أحيانًا، أوْ كيفَ تجعلُها بعضُ الكُتُبِ ترغبُ في أنْ تصدَحَ بِأغنيةٍ سَخيفةٍ عندما تصلُ إلى أَجزائها الرّقيقةِ، أوْ حينَ تَعتصِرُ عَواطفُها، وتتقلَّبُ بَعْدَ سَماعِ مقطوعةٍ أوِ اثنتينِ مِنْ مَقطوعاتِ والدِها الموسيقيّةِ إلى حَدٍّ يكونُ فيهِ الرَّقْصُ وَسيلَتَها الوحيدةَ للتَّعبيرِ عَنْها.
تأرجحَتْ مشاعرُ إبريل بينَ الرَّهبةِ والدَّهشةِ والفرحِ، ثُمَّ اختلطتْ مَعَ بعضِها مِثْلَ شرابِ الحليبِ المخفوقِ عَلى نحوٍ جَعلَها تشعرُ بِدُوار وخفَّةٍ في رأسِها.
لقدْ أخطأَ تور، فكَّرتْ وهِيَ تبتسمُ، ولِبُرْهَةٍ تمنَّتْ لوْ أنَّهُ كانَ هُنا معها، لِيرى الدُّبَّ بِأُمِّ عَينيهِ.
قالتْ بعدَ أنِ استعادَتْ قدرَتَها على الكلامِ: «كنتُ أعرفُ أنَّني لَمْ أكنْ أتخيَّلُ، لقدْ رأيتُكَ في تلكَ اللّيلةِ. *أنتَ* حقيقيٌّ.»

حتّى مِنْ هذِهِ المسافةِ البعيدةِ، رفعَ الدُّبُّ أذنَيْهِ كَما لَوْ أنَّ بإمكانِهِ أنْ يسمَعَها. افترضتْ إبريل أنَّ حاسَّةَ السّمعِ لديهِ أقْوى مِنْ حاسَّتِها؛ لأنَّ أذنيهِ كانتا أكبرَ بِكثيرٍ. استنشقَ الدُّبُّ الهواءَ. أنفُهُ الأسودُ يرتعشُ أمامَ البردِ والضّبابِ الرَّطبِ. ثُمَّ، ببُطْءٍ شديدٍ، استدارَ إلى الوراءِ، ومِنْ على الشّاطئِ، الْتقتْ عيناهُما.

تذكَّرتْ إبريل أنَّ مِنظارَها كانَ يتدلّى على كَتِفِها، وهكَذا، بِعَجَلٍ، وبأصابعَ باردةٍ ودَبِقَةٍ، أخرجَتْهُ مِنْ غطائِهِ، وثبَّتَتْهُ أمامَ وجهِها. في البدايةِ، لَمْ تتمكَّنْ مِنْ رؤيةِ شيءٍ سِوى بُقعةٍ مُغَبَّشَةٍ.



أدارتِ الحلقةَ الصّغيرةَ حتّى ظهرَ تدريجيًّا في تركيزٍ حادٍّ واضحٍ.

«يا إلهي، كَمْ أنتَ جميلٌ،» تنفَّسَتْ. «أنتَ أجملُ شيءٍ رأيتُهُ في حَياتي. انظرْ لِنفسِكَ! أنتَ مِثْلُ . . .»

فتَّشَتْ عنْ كلمةٍ تُساعدُها عَلى وَصْفِهِ، لكنَّها لَمْ تعثُرْ سِوى على مقطوعةٍ موسيقيَّةٍ خاصَّةٍ كانَ والدُها يحِبُّ الاستماعَ إليها، بينما كانتْ تجعلُ إبريل تفكِّرُ في البراكينِ الثّائرةِ والعواصفِ الهائجةِ وأمواجِ المدِّ العظيمةِ. «أنتَ هكذا،» قرَّرتْ أخيرًا.

عندَ هذِهِ النّقطةِ، فتحَ الدُّبُّ فَمَهُ صادِحًا بأكبرِ وأعظمِ زئير كأنه قادم من داخل كهف، حتّى مِنْ على بُعْدِ تلكَ المسافةِ الكبيرةِ كانَ بإمكانِ إبريل أنْ تشعرَ بِقوَّة زئيره، بِالطّريقةِ الّتي يرتحلُ بِها الصّوتُ عَبْرَ الهواءِ دونَ أنْ نراهُ، فيُحرِّكُ بِطريقةٍ ما غلافَ الكَونِ. كان زئيرًا هادِرًا يَصُمُّ الآذانَ جعلَ أسنانَها تَصْطَكُّ، وأسقطَتِ المنظارَ على قَدَمَيْها.

ربَّما كانَ الدُّبُّ جميلًا، لكنَّهُ كانَ مُرْعِبًا أيضًا. قوَّتُهُ الخالصَةُ جعلَتْ أنفاسَها تنقبِضُ بينَ ضُلوعِها.

مالَ الدُّبُّ إلى الأمامِ مُقترِبًا خُطوةً في اتِّجاهِها، أطلقتْ إبريل أنينًا لا إرادِيًّا. اجْتاحَها شُعورٌ حارِقٌ أشعلَ نِهاياتِها العصبِيَّةَ، وصارتْ أنفاسُها قصيرةً وضئيلةً وعالِقةً في مكانٍ ما داخلَ حَلْقِها. ماذا لوِ اقتربَ أكثرَ؟ ماذا لَوْ هاجمَها؟ لكنَّ الدُّبَّ، وبذاتِ السّرعةِ الّتي تحرَّكَ بِها، توقَّفَ فجأةً.

كانَ هناكَ شيءٌ مِنَ الاحتراسِ في الطّريقةِ الّتي الْتَزمَ بِها البقاءَ عَلى الجانبِ الآخَرِ مِنَ الشّاطئِ. بالطَّبعِ، لا بُدَّ أنَّهُ كانَ حَذِرًا منْها تَمامًا كما كانتْ هِيَ حَذِرَةً مِنْهُ. أطلقَتْ زَفْرَةَ ارتياحٍ عميقةً ومرتجِفَةً.

الْتَقطَتِ المِنظارَ مَرَّةً أُخْرى، عضَّتْ عَلى شَفَتِها بِقلقٍ؛ لأنَّهُ كانَ بِحَقٍّ نَحيلًا لِلغايَةِ. حتَّى إنَّهُ كانَ بِمقدورِها أنْ تَرى ضُلوعَهُ بارزَةً مِنْ تحتَ فِرائهِ. وَبِالتَّأكيدِ لابُدَّ لِفرائهِ أنْ يَبْدُوَ أكثرَ لَمَعانًا، وأقلَّ تَلَبُّدًا مِمّا هوَ عليهِ الآنَ؟

كانَ هنالَكَ حِدَّةٌ في وجهِهِ. لَيستْ حِدَّةً سَيِّئَةً كَتِلْكَ الّتي نَراها لدى بَعضِ النّاسِ الّذين تكونُ وَجوهُهُمْ حادَّةً بِشَكْلٍ دائمٍ، وإنَّما حِدَّةٌ وَلَّدَها الجوعُ وَاليَأْسُ.

«أوه، أيُّها المسكينُ» تَمْتَمَتْ إبريل. «أنتَ تَتَضَوَّرُ جوعًا.»

أخفضَ رأسَهُ، بِخِفَّةٍ شديدةٍ كادتْ إبريل أنْ تُفَوِّتَ رؤيَتَها.

«هلْ أنتَ جائعٌ؟» سألتْ إبريل. «لنْ تأكُلَني، أليسَ كَذلكَ؟»

تفحَّصتْ باقي أجزاءِ وجهِهِ بِسرعةٍ مِنْ خِلالِ المِنظارِ. كانَ حَيوانًا مُفترِسًا، لكنَّهُ بَدا وَدودًا - بِقَدْرٍ يَتناسَبُ مَعَ دُبٍّ قُطْبِيٍّ على كُلِّ حالٍ.

رأتْ شَوارِبَهُ الحَسّاسَةَ، وسوادَ أنْفِهِ الرَّطْبِ النّاعمِ، أمّا عَيناهُ فَكانَتا داكِنَتَيْنِ بِلونِ الشّوكولاتَةِ، وَبَدَتا لَطيفَتينِ حتّى مِنْ هذِهِ المَسافةِ البَعيدةِ.

صَفَّتْ حُنجرَتَها، وتَساءلَتْ ما عَلَيْها أنْ تقولَ بَعْدُ.

«اسمي إبريل،» قالتْ أخيرًا. «إبريل وود. عمري أحد عشر عامًا، أحبُّ الشّوكولاتَةَ السّاخنةَ، خاصَّةً معَ حَلوى الخُطمى فوقَها، وأنا هُنا معَ والِدي الّذي يقيسُ درجاتِ الحرارةِ لِمُدَّةِ ستَّةِ أشهرٍ. قالَ إنَّهُ لَمْ يبقَ أيُّ دِببَةٍ عَلى الجزيرةِ، لكنَّني كنتُ مُتَيَقِّنَةً مِنْ أنَّني رأيتُكَ في تلكَ اللَّيلةِ الأولى. لِماذا تخاطِرُ بالاقترابِ مِنَ الكوخِ؟ رُبَّما . . .»

توقَّفَتْ عِنْدما جاءتْها الفِكرةُ. «رُبَّما أردْتَ أنْ يراكَ أَحَدٌ؟ لكنْ لِماذا؟»

حَدَّقتْ فيهِ بِحَيْرَةٍ. مَرَّتْ بِمِنظارِها عَلى كامِلِ جَسدِهِ، حتّى رأتْهُ أخيرًا.

«يا إلهي!» صاحَتْ بِرُعْبٍ. «ماذا فَعَلْتَ بِنَفْسِكَ؟»

كانَ عَلى كَفِّهِ اليُسرى الأمامِيَّة شيءٌ مَلفوفٌ حَولَهُا بإحكامٍ، شيءٌ بلاستيكيٌّ أزرقُ مِنْ نَوعٍ ما.

رَفَعَ كفَّهُ إلى فمِهِ، وصارَ يقْضِمُهُا بِأسنانِهِ الطّويلَةِ الحادَّةِ. زَمْجَرَ مِنْ خلْفِ أسنانِهِ وهوَ يُحاوِلُ تخليصَ نفسِهِ. لكنَّ ذلِكَ لَمْ يُجْدِ نَفْعًا.

كانَت كفُّهُ قدْ تورَّمَت حتّى صارَت ضِعْفَ حجمِهِا الطَّبيعيِّ، وكانَ الشَّيءُ البلاستيكيُّ الملفوفُ حولَ كفِّهِ بقوَّةٍ قدِ اخْترقَها، وأحْدَثَ فيهِا جُرْحًا عَميقًا، لَمْ تكُنْ هناكَ طريقةٌ للتَّخَلُّصِ منهُ. ظلَّ رأسُهُ مُطَأْطِئًا، وبَدا ضَعيفًا وهَشًّا للغايَةِ، حتّى مُثيرًا للشَّفَقَةِ، لِدرجةِ أنَّ غريزةَ إبريل كادتْ أنْ تدفعَها لِلجَرْيِ نحوَهُ ومعانقَتَهُ عِناقًا كبيرًا وقوِيًّا عَلى الرّغمِ مِنْ أنَّها كانتْ تعرفُ مَدى خطورةِ ذلكَ.

«يبدو هذا مُؤلِمًا جِدًّا،» تَمْتَمَتْ إبريل. أرادتْ مُساعدتَهُ، لكنْ كانَ هُناكَ فَرْقٌ كبيرٌ بينَ أنْ تتركَ طائرَ النّورسِ يجلِسُ عَلى يدِكَ، وأنْ تقترِبَ مِنْ دُبٍّ قُطْبيٍّ مُتوَحِّشٍ.

ابتلَعَتْ ريقَها بِشِدَّةٍ. «ماذا لوْ بحثْتُ عَنْ شَيءٍ حادٍّ حتّى تتمكَّنَ مِنْ تحريرِ نفسِكَ؟»

لَمْ تكُنْ مُتأكِّدَةً مِنْ مدى حِكمَةِ خطَّتِها، لكنْ طالَما أنَّها أفضلُ مِنْ عَدَمِ فِعْلِ أيِّ شيءٍ، فقدْ راحَتْ تبحثُ عَلى الشّاطئِ في مُحاولَةٍ لِلعثورِ عَلى شيءٍ ما، *أيِّ* شيءٍ، يمكِنُ أنْ يُساعدَهُ.

وجدَتْ قطعةً مِنَ الزُّجاجِ، خضراءَ مِثْلَ ذَيلِ حوريَّةِ بَحْرٍ، لكنَّ البحرَ عَمِلَ عَلى صَقْلِها مُنذُ فَترَةٍ طَويلةٍ. كانتْ هُناكَ أجزاءٌ أخْرى مِنَ الحُطامِ الّتي لَفَظَها البحرُ إلى الشّاطئِ مِنْ أراضٍ وبِحارٍ بعيدةٍ. بعضُ شِباكِ الصَّيْدِ المُتشابكَةِ، قِطَعُ خَشَبٍ جَرَفَها الموجُ، وحتّى زجاجاتُ مِياهٍ بلاستيكيَّةٌ، جَعَلَ ذلكَ إبريل تُزمْجِرُ أيضًا.

كانتْ هُنالِكَ أشياءُ أُخرى لَمْ تَستطِعْ حتّى تَعَرُّفَها. لكنْ ما لَمْ تَجِدْهُ كانَ الشَّيءَ الحادَّ. عَلى أيِّ حالٍ، لا يبدو أنَّهُ قادرٌ عَلى أنْ يُحرِّرَ نفسَهُ، وإلّا لَفَعَلَ ذلِكَ مُنذُ وقتٍ طَويلٍ.

«لا فائدةَ مِنْ هذا،» قالَتْ في النّهايةِ، وتَرَدَّدَ صَدى الإحباطِ في صوتْها بائِسًا عَبْرَ الخليجِ الّذي كَنَسَتْهُ الرِّياحُ.

أحسَّتْ إبريل بنظرَةِ الدُّبِّ تُحدِّقُ بِها، وفكَّرَتْ بأنَّها لَمْ تشعرْ بِضآلَتِها وقِلَّةِ حيلَتِها كَما شعرتْ في تلكَ اللَّحظةِ. لكنْ ما الّذي يُمكِنُها أنْ تفعلَهُ؟

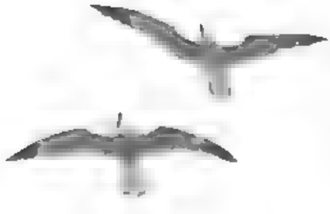
انخفضَتِ الشَّمسُ في السّماءِ. صارَ الوقتُ مُتأخِّرًا جِدًّا. مُتأخِّرًا جِدًّا حتّى تكونَ خارجَ المنزلِ بِمفرَدِها.

«أنا آسفةٌ جِدًّا، لكنْ عَلَيَّ أنْ أذهبَ الآنَ».

نظرتْ إلى الشَّمسِ الغاربةِ مَرَّةً أُخرى، وقدِ انخفضتْ جِدًّا الآنَ حتّى كادتْ تُلامِسُ سَطْحَ البحرِ، ثُمَّ حوَّلَتْ نَظَرَها صَوْبَ الدُّبِّ مَرَّةً أُخْرى. كانَ رأسُهُ قَدِ انْحنى بِأَسًى فوقَ كَفَّيْهِ، وَجَسدُهُ كُلُّهُ يقطرُ حُزْنًا. ترنَّحَ قلبُ إبريل.

«سأعودُ،» هَمَسَتْ. «أعدُكَ.»

ورفعَ الدُّبُّ رأسَهُ، وَزَأَرَ.



الفصلُ السّابعُ

قرارُ (إبريل)

كيفَ انْتهى الأمْرُ بِالدُّبِّ هُنا في الجزيرةِ؟ وكمْ مِنَ الوقتِ قَضاهُ هُنا بِالضَّبطِ؟ وكيفَ لَمْ يَرَهُ أيٌّ مِنْ خُبراءِ الأرصادِ الجوِّيّةِ السّابقينَ قَبْلَ الآنَ؟ بقيَتِ الإجاباتُ بعيدةً عَنْ مُتناوَلِ إبريل عَلى نحوٍ مُزعجٍ. خبطَتْ قِدْرَ الطَّهْيِ بإحباطٍ. كانَ قدْ حانَ وقتُ العَشاءِ، ولمْ يكنْ بِمقدورِها أنْ تَكُفَّ عَنِ التّفكيرِ بِالدُّبِّ المسكينِ، وكَمْ بَدا جائعًا. لا بُدَّ أنَّ كفَّهُ المُصابَةَ مَنَعَتْهُ مِنْ أنْ

يَصطادَ كَما يَنبغي. ماذا سيأكلُ اللَّيلةَ؟ وماذا *يُمكِنُها* أنْ تفعلَ للمُساعدةِ؟

وبينَما كانتْ تُجهِدُ ذِهنَها في التَّفكيرِ، جالَ والدُها في غرفةِ المعيشَةِ. تثاءبَ بِصوتٍ عالٍ، ثُمَّ أفرغَ ما في جيوبِهِ عَلى الطّاولَةِ، ووسطَ بعضِ حَلوى اليانسونِ، وقلمٍ مَمضوغٍ ومنديلٍ، طَقْطَقَتْ سِكّينُ الجيشِ السّويسريِّ عَلى السّطحِ الصّلْبِ. لَمْ تكنْ تعرفُ سَبَبَ حَمْلِهِ لَها؛ لأنَّهُ لَمْ يستخدِمْها إلّا لِقَصِّ أظافِرِ قدمَيْهِ.

كانتْ عَلى وشكِ تَفريغِ علبَةِ الفاصوليا في القِدْرِ عندَما تجمَّدَتْ يَدُها.

السّكينُ.

ماذا لَوْ حاولَتْ قَطْعَ البِلاستيكِ بِنفسِها؟

انتظرَتْ حتّى اخْتَفى والدُها لِتسجيلِ قِراءاتِهِ الأخيرةِ لِطقْسِ هذا اليومِ قَبْلَ أنْ تلتقِطَ السِّكّينَ، وتحمِلَها لِبُرهَةٍ في يدَيْها. لَمْ يسبِقْ أنِ استخدَمَتِ السّكّينَ سِوى لِتقطيعِ التُّفّاحِ وَالجَزَرِ وَأشياءَ مِنْ هذا القَبيلِ، لكنْ . . .

ذهبَتْ أفكارُها أدراجَ الرِّياحِ. فَفي الحقيقةِ، حتّى وإنْ كانَتْ قدِ استخدَمَتِ السِّكّينَ مِنْ قَبْلُ، فإنَّها لَمْ تَستخدِمْها قَطُّ عَلى دُبٍّ قُطْبيٍّ. لَمْ تَستخدِمْها قَطُّ عَلى حَيوانٍ يُمكِنُهُ فِعْلِيًّا أنْ *يقتُلَها*.

بالكادِ نامَتْ في تِلكَ اللّيلةِ، فقدْ ظَلَّ ذِهْنُها يعودُ إلى تَحذيرِ تور عَلى السّفينةِ. كانَ عَلى حَقٍّ. الحَيواناتُ هُنا لا تُشبِهُ في شَيءٍ الحيواناتِ في مَوطِنِها. لقدْ وُلِدَتْ ونشأتْ في البَرِّيَّةِ تَمامًا مِنْ دونِ أيِّ اتِّصالٍ مَعَ البَشَرِ، حتّى الثَّعلَبُ القُطبيُّ الشّماليُّ كانَ مُختلِفًا تَمامًا عَنِ الثّعالِبِ الموجودَةِ في حديقةِ منزِلِها الخلفيَّةِ. كانَ هذا الجزءُ مِنَ العالَمِ أكثرَ خُطورَةً بِكثيرٍ.

تقلَّبَتْ يَمينًا وشمالًا في فِراشِها، تَتَقاذَفُها تَيّاراتُ قَلْبِها في هذا الاتِّجاهِ وذاكَ الاتِّجاهِ. لكنْ، عِندَما استيقظتْ في الصَّباحِ، نهضَتْ مِنْ سريرِها، وأخذَتْ نَفَسًا عميقًا وشَدَّتْ كَتِفَيْها إلى الوَراءِ.

في أعماقِ أعماقِها، عندَما فكَّرَتْ في الأمْرِ، كانَ لَدَيْها خيارٌ واحِدٌ. وهوَ أنْ تأخُذَ سِكّينَ والدِها، وتُخلِّصَ الدُّبَّ.

لأنَّها إنْ لَمْ تَفعلْ ذلِكَ، فَمَنْ سيفعلُ؟

عندَما جاءَ وقتُ الغَداءِ، سخَّنَتْ عُلبةً مِنْ حَساءِ الخضارِ والطَماطِمِ بِسرعةٍ، وحمَلَتْها لِأبيها إلى كَبينَةِ الطّقسِ.

نظرَ والِدُها نَحوَها بارتِباكٍ، وقالَ: «أوه . . . شكرًا إبريل. هلْ حانَ وقتُ الغداءِ بِالفِعْلِ؟»

أَوْمَأَتْ بِرأسِها: «أحضرْتُ لَكَ هذِهِ أيضًا.» وألقَتْ بِحفْنَةٍ مِنْ

حَلوى اليانسونِ عَلى سطحِ المكتبِ. كانَ والدُها قدْ جَلَبَ معهُ كَمِّيَّةً مِنْ حَلوى اليانسونِ تَكفيهِمْ لِمُدَّةِ ستَّةِ أشهُرٍ بِالضَّبطِ، وخصَّصَ لِنفسِهِ ثلاثَ حَبّاتٍ في اليومِ الواحدِ.

بينَما كانَ والدُها مَشغولًا بفَكِّ غُلافِ واحدةٍ لِيستَهِلَّ بِها الطّعامَ، انتشَلَتْ إبريل سِكّينَ الجيشِ السّويسريِّ مِنْ جيبِ سُتْرَتِهِ، وخرجتْ مِنَ البابِ مُسرعَةً. ارتدَتْ معطَفَها، وانتعَلَتْ حِذاءَ المطرِ، أخذتْ مِنْ غرفَةِ المُؤَنِ بعضَ بَسكويتِ الشّوفانِ، وبرطمانًا واحِدًا مِنْ زُبدةِ الفولِ السّودانيِّ، وانطلقَتْ إلى الخارِجِ.

لَمْ تَبْدُ لَها الطّريقُ إلى خليجِ (والْروس) طويلةً اليومَ، يَرجعُ ذلِكَ جُزئيًّا إلى أنَّها كانتْ هذِهِ المَرَّةَ تعرفُ وجهَتَها تَمامًا، وما تنوي فِعلَهُ هُناكَ، حتّى وإنْ سَبَّبَ لَها تصوُّرُ ما سَتؤولُ إليهِ الأمورُ لاحِقًا جَفافًا في حَلْقِها. أخذتْ نَفَسًا عميقًا لِمَزيدٍ مِنَ الشّجاعةِ. شعرَتْ بِالهواءِ مِنْ حولِها حادًّا ونظيفًا، كَما لَوْ أنَّ الأرضَ مصنوعةٌ مِنْ بِلّوراتٍ مَقرمَشَةٍ قابلةٍ لِلأكْلِ. في الواقعِ، شعرَتْ كَما لَوْ أنَّ الجزيرةَ كانتْ عَلى عِلْمٍ بِمهمَّتِها، وكانتْ تقِفُ في صَفِّها.

«أوشكْتُ أنْ أصِلَ» تمتَمَتْ إبريل، وبعدَ ذلكَ بِدقائقَ وَصَلَتْ، وبِوَعْيٍ تامٍّ ضحكَتْ ضحكَةَ خلاصٍ، فخليجُ (والْروس) تحتَ ضَوءِ النّهارِ النّاصِعِ النّقِيِّ، لَمْ يَبْدُ مُخيفًا، ولا حتّى نِصفَ ما بَدا عليهِ

البارِحَةَ، حينَ شَعرَتْ في باديءِ الأمرِ بِأنَّ كُلَّ شيءٍ، بِما في ذلكَ الدُّبُّ، كانَ كبيرًا جِدًّا، وينذِرُ بِالخَطَرِ.

كانتِ المشكلةُ الوحيدةُ لحظَتَها هِيَ في عَدَمِ وجودِ أيِّ أَثَرٍ لَهُ، حتّى عندَما حَدَّقَتْ مِنْ خِلالِ مِنظارِها في كُلِّ نقطةٍ مُمكنَةٍ في الأفُقِ، الجبالُ الثّلاثةُ المُغطّاةُ بِالثّلوجِ، الأرضُ المُنبسِطَةُ الفارغَةُ الّتي كانتْ قدْ عَبَرَتْها للتَّوِّ، وحطامُ الكوخِ الخَشبيِّ المُتناثِرِ عَلى الشّاطئِ. ثُمَّ جالَتْ بِعينَيْها مِنْ خِلالِ المِنظارِ في الأمواجِ الرّمادِيَّةِ المُتلاطِمَةِ. بِمقدورِ الدِّببَةِ أنْ تسبحَ جَيِّدًا. أفضلَ مِنْها عَلى كُلِّ حالٍ، كانتْ تُفضِّلُ تَسلُّقَ الأشجارِ أكثَرَ. لكنَّهُ لَمْ يظهرْ في البحرِ، ولأنَّها بدأتْ ترتجِفُ، ولأنَّ الانتظارَ لَمْ يكنْ مُسلِّيًا، قرَّرتْ إبريل أنْ تفعلَ شيئًا مُفيدًا.

اعتادتْ إبريل الْتقاطَ القُمامةِ مِنَ الشّواطئِ القريبةِ مِنْ منزلِ جدَّتِها (أبلز)، وهكَذا بِدافعِ العادَةِ، شرعَتْ تُنظِّفُ الشّاطئَ مِنْ أيِّ شيءٍ لا ينتَمي إليهِ. وعندَما انتهتْ مِنَ العَمليَّةِ، كانتْ قدْ جمعَتْ سِتًّا وعشرينَ زجاجةً بلاستيكيَّةً لِمَشروباتٍ غازيَّةٍ مُتنوِّعةٍ، سبعَ عُلَبٍ معدنيَّةٍ صَدئةٍ، مِشْطًا أسودَ، فُرشاةَ أسنانٍ ورديَّةَ اللّونِ عَلى شكلِ حيوان (يونيكورن)، كومَةً كبيرةً مِنَ الشِّباكِ الزَّرقاءِ الَّتي بَدا أنَّها تُستخدَمُ في الصَّيدِ، سيّارةَ لُعَبٍ

صَغيرةً، وزجاجَةَ مَشروبٍ نِصفَ مُمتلئَةٍ. كُلُّ هذِهِ الأشياءِ أحضَرَتْها إلى الجزيرةِ تَيّاراتُ البحرِ المُتقَلِّبَةُ مِنْ أناسٍ يَعيشونَ في أماكِنَ بعيدةٍ جِدًّا جِدًّا.

«هذا كُلُّ شيءٍ.» وضعَتْ آخِرَ زجاجةٍ فوقَ الكَومةِ المُرتَّبةِ الَّتي صَنعَتْها بِالقُرْبِ مِنَ القارِبِ المقلوبِ. في يومٍ آخَرَ سَتعودُ بِحقيبةٍ، وتجمعُ فيها كُلَّ شيءٍ.

لكنْ، بِمعزِلٍ عَنْ عَمَلِ الخيرِ هذا، كانتْ تَتَضَوَّرُ جوعًا، ولَمْ يكُنْ هنالِكَ أيُّ أثَرٍ للدُّبِّ القُطبيِّ بَعْدُ. ومَعَ أنَّها أحضرَتْ بَسكويتَ الشّوفانِ هديَّةً لَهُ، إلّا أنَّها شعرَتْ فَجأةً بِجوعٍ شَديدٍ، ولا عَجَبَ في ذلِكَ؛ فَقدْ نَسيَتْ أنْ تعِدَّ حَساءً لِنَفْسِها؛ لِذا جلسَتْ وقَدْ أسندَتْ ظَهرَها عَلى هَيكَلِ القارِبِ المَقلوبِ، وغمَرَتْ بَسكويتَ الشّوفانِ بِزبدةِ الفولِ السّودانيِّ، وقَضَمَتْ مِنْها قَضْمَةً بِحَجْمِ جوعِها. وعندَما رفعَتْ بَصرَها، ونظرَتْ إلى الأَعْلى، وفتاتُ البَسكويتِ عَلى ذَقْنِها، وَفَمُها ممتلئٌ بِالزّبدةِ اللَّزِجَةِ، أدركتْ إبريل أنَّها لَمْ تكُنْ وحدَها.

على بُعْدِ مَسافةِ ثلاثةِ أمتارٍ مِنْها، وقفَ الدُّبُّ القُطبيُّ.

«أوه!» قالتْ إبريل مَصعوقةً. أسقطتِ البرطمانَ مِنْ يدِها؛ فتلطَّخَتْ فَردَةُ حِذائها اليُمنى بِزبدَةِ الفولِ السّودانيِّ. «مِنْ أينَ

أتيتَ؟»

كانَ نحيفًا على نحوٍ يفطرُ القلبَ، لكنَّهُ كانَ لا يزالُ أضخمَ بكثيرٍ مِنْ أيِّ حَيوانٍ رأتْهُ مِنْ قَبْلُ. رُبّما كانتْ إبريل ثلثَ حَجمِهِ تَقريبًا، أو رُبَّما أقلَّ، حتّى إنَّ عُنُقَها تقوّسَ حينَ رفعَتْ بَصرَها إليهِ.

تحدَّثتْ بِسرعةٍ حتَى لا تفقِدَ شَجاعَتَها. «لقدْ جِئتُ لِمُساعدتِكَ. انظُرْ، أحضَرْتُ سِكّينَ أبي. في الحقيقةِ لَمْ أستخدِمْها أبَدًا مِنْ قَبْلُ، لكنَّني واثقةٌ مِنْ أنَّ الأمورَ سَتسيرُ عَلى نحوٍ جَيِّدٍ. عليَّ فَقَطْ أنْ أختارَ الشَّفْرَةَ المُناسِبَةَ لاستخدامِها، هُناكَ كثيرٌ مِنْها! حتى إنّ هناك مثقابًا لِنَزْعِ السَّدّاداتِ الفلّينيَّةِ، هذا لا يَعني أنَّ أبي يشربُ؛ لأنَّهُ لا يفعلُ ذلِكَ. توقَّفَ منذُ حادثَةِ السّيَارةِ. هوَ الّذي كانَ يشربُ. أعْني الصَّبيَّ، وليسَ أبي. لِهذا السَّببِ لَمْ يرَ أمّي. لَمْ يَرَها سوى بعدَ فَواتِ الأوانِ. أبي يكرَهُ الشُّرْبَ.»

كانتْ تُثرثِرُ لكنَّها، لِسببٍ ما، لَمْ تستطِعْ أنْ تتوقَّفَ. «عَلى أيِّ حالٍ، أنتَ لا تريدُ أنْ تَسمعَ عنْ ذلِكَ. لقدْ نظَّفتُ الشّاطئَ لِلتَّوِّ. هلْ تستطيعُ أنْ تَرى؟ تلكَ القُمامةُ لا تَنْتَمي إلى هُنا. ليسَ عَلى جزيرةِ الدُّبِّ. لكنَّني أحسَبُ أنَّ النّاسَ لا يعرفونَ حتّى بِوجودِ

أماكِنَ مِثْلِ هذِهِ. أنا لَمْ أكُنْ أعرِفُ. لَيسَ في الواقِعِ عَلى أيِّ حالٍ. أعْني، كنتُ أعلَمُ أنَّها موجودةٌ في القِصَصِ، لكنَّ الأمرَ مُختلفٌ في الواقعِ، أليسَ كَذلِكَ؟ لَمْ أكُنْ أعرِفُ أنَّ كَوْكبَ الأرض يُمكِنُ أنْ يبدوَ هكَذا.»

ثُمَّ لَوَّحَتْ بِيَديها في إشارَةٍ مِنْها إلى: ماذا؟ الحياةِ البَرِّيَّةِ؟ الفَراغِ؟ الشّعورِ بِأنَّها لَمْ تكُنْ حتّى عَلى كَوْكبِ الأرض على الإطلاقِ، وإنَّما على كوكبٍ شَبيهٍ بِهِ، لكنَّهُ أكثرُ خُشونةً، وأكثرُ عُزلةً. ألقَتْ بِيَديها على جانِبَيْها، وابتلعَتْ ريقَها بِصعوبَةٍ.

الجَسارَةُ، ختمَتْ أخيرًا. ولَمْ يكُنْ هذا مُفاجِئًا بالنَّظرِ إلى أنَّ دُبًّا قُطبيًّا آكِلًا لِلبَشَرِ كانَ واقِفًا أمامَها. لَمْ تَجرُؤْ عَلى النَّظَرِ إلى الأعْلى. حتّى عَلى بُعْدِ ثلاثةِ أمتارٍ كانَ باستطاعتِها أنْ تشعرَ بِأنفاسِهِ عَلى وجهِها، ولمْ يكنْ هذا، بحَدِّ ذاتِهِ، أمرًا لَطيفًا. شعرَتْ بِبطْنِها تَعتصِرُ وتتقَلَّبُ، ولِلحْظَةٍ مُروِّعَةٍ، اعتقدَتْ بأنَّها سَتَتَقَيَّأُ.

«هيّا يا إبريل،» هَمسَتْ لِنفسِها. «استجمِعي شجاعتَكِ.» نصبَتْ ظَهرَها، أخذَتْ نَفَسًا عَميقًا، ونظرتْ إلى الأعلى، مُباشرَةً إليهِ.



الفصلُ الثّامنُ

دُبّ

«مَرحبًا،» قالتْ إبريل، كانتْ حريصةً عَلى أنْ تبقى ثابتَةً قَدْرَ الإمكانِ. عرفَتْ مِنْ خِلالِ تجربَتِها مَعَ ثعالبِ الحديقةِ أنَّ أسوأَ ما يمكِنُ فِعْلُهُ هوَ محاولَةُ الاقترابِ مِنْها. يجبُ أنْ تَدَعَ الحيواناتِ تَأتي إليكَ، وليسَ العكْسَ. وإنْ حَدَثَ واسْتَعْجَلْتَها، فإنَّها إمّا أنْ تهرُبَ بعيدًا، وإمّا أنْ تعضَّكَ أوْ - كَما في هذِهِ الحالَةِ - تأكُلَكَ حَيًّا.

افترضَتْ أنَّ الوَضْعَ مُماثِلٌ مَعَ الدِّبَبَةِ القُطبِيَّةِ. الأمرُ كلُّهُ مَرهونٌ بِالثِّقَةِ، مَهْما يكُنْ حَجْمُ الحَيوانِ.

وبناءً عَلى هذا، شبكَتْ إبريل أصابِعَها، واستعَدَّتْ للانتظارِ طَوالَ اليومِ إذا لَزَمَ الأمرُ. لكنَّها أمِلَتْ ألّا يمتَدَّ هذا إلى اللَّيلِ أيضًا؛ لأنَّ والِدَها سَيقلقُ حينَها.

«أنتَ تعرِفُ اسمي؛ لِذا أشعُرُ أنَّني بحاجةٍ إلى معرفَةِ اسمِكَ الآنَ،» قالتْ بِصوتٍ ناعِمٍ. كانَ صوتُها رقيقًا - معظمَ الوقتِ - تعلَّمَتْ منذُ وقتٍ طويلٍ أنَّ الحيواناتِ لا تُحِبُّ البَشَرَ يصرُخونَ ويُزمجِرونَ. وهُنا في البَرِّيَّةِ، حاولَتْ أنْ تجعَلَ صوتَها أرقَّ مِنْ أيِّ وقتٍ مَضى، مِثْلَ نُدَفِ الثَّلجِ. تابعَتْ قائلَةً: «لكنّي في الوقتِ نفسِهِ، أشعُرُ بأنَّهُ لَيسَ مِنَ الصَّوابِ أنْ أمنَحَكَ اسْمًا، كَما قَدْ أفعَلُ مَعَ قِطَّةٍ أوْ كلبٍ. أنتَ لسْتَ حتّى مِثْلَ (قلب شُجاع) فقدْ عاشَ في حديقةِ منزِلنا الخلفِيَّةِ وسطَ المدينةِ. أمّا أنتَ فَبرِّيٌّ *تَمامًا*. والحيواناتُ البَرِّيَّةُ لا تَحتاجُ إلى أسماءٍ بشريَّةٍ. لكنْ يجبُ أنْ أناديَكَ بِشيءٍ ما؛ لِذا فَسأكتفي بِمُناداتِكَ (دُبّ).»

لمْ يُظهِرْ (دُبّ) أيَّ رَدِّ فِعْلٍ، لكنَّها أحبَّتْ أنْ تعتقِدَ أنَّهُ وافَقَ.

«يعجِبُكَ الاسمُ إذنْ، (دُبّ)؟ هلْ يعجبُكَ اسمُكَ الجديدُ؟»

كانَ يمكِنُ لإبريل أنْ تُقْسِمَ عَلى أنَّها رأتْ عينيهِ البُنِّيَّتينِ

بِلونِ الشّوكولاتَةِ تَتَغَضَّنانِ حَوْلَ حوافِّهِما. ابتسمَتْ. «سَأَعْتَبِرُ ذلِكَ بِمثابَةِ: نَعَمْ.»

ثُمَّ تابعَتْ: «بالطَّبْعِ، أعرِفُ أنَّكَ في الواقِعِ لا تستطيعُ التَّحدُّثَ مَعي، لكنْ مِنَ الضَّروريِّ أنْ تكونَ هُناكَ تَرجمَةٌ مِنْ نَوْعٍ ما بَيْنَنا. شيءٌ يُشبِهُ فَكَّ الشَّفْرَةِ، أحتاجُ فَقَطْ أنْ أُفَكِّكَ وَأُحَلِّلَ الإشاراتِ.» انتظرَتْ بِتَرَقُّبٍ تَأييدًا مِنْهُ بِطريقَةٍ ما. أيَّ شيءٍ سَيُؤدّي الغَرَضَ، هزَّةَ أنفٍ أو رَعشَةَ أُذُنٍ. لكنْ بَعْدَ ثَوانٍ طَويلةٍ مِنَ التّحديقِ بِإمْعانٍ في وجهِهِ، تَأَكَّدَتْ أنَّهُ لَنْ يحرِّكَ ساكِنًا.

«لا يهُمُّ، عَلى أيِّ حالٍ أعْلَمُ أنَّكَ تَستمِعُ إلَيَّ. ما زالَ بِإمكانِنا التَّواصُلُ. يقولُ النّاسُ إنَّ الحَيواناتِ لا تستطيعُ الكلامَ، لكنَّني أعلمُ أنَّ هذا ليسَ صحيحًا. ماذا كان ذلك الشيء الّذي قالَتْهُ أمّي؟ عَلينا فَقَطْ أنْ نَجِدَ طَريقةً مُختلفَةً للتَّحدُّثِ، هذا كلُّ شيءٍ.» لا إرادِيًّا، نظرَتْ إبريل إلى ساعَتِها، كَما لَوْ أنَّها كانتْ تتوقَّعُ أنْ تخرُجَ مِنْها والدَتُها مِثْلَ جِنِّيَةٍ.

ارتَعَشَتْ أُذُنا (دُبّ)، لكنَّهُ لَمْ يقتربْ مِنْها.

قالتْ وهيَ تبتلِعُ خوفَها: «لا داعيَ للخَوفِ مِنّي. لَسْتُ مِثْلَ الكِبارَ. لَنْ أؤذِيَكَ. أريدُ فقطْ المُساعدةَ.»

لكنْ، رغمَ كُلِّ مُحاولاتِها لِطَمْأَنَتِهِ بِأَلْطَفِ صَوتٍ لَدَيها، لَمْ يجرُؤْ (دُبّ) عَلى الاقترابِ مِنْها، وبِما أنَّ إبريل كانتْ لا تزالُ حَذِرَةً مِنَ الاقترابِ مِنْهُ، فَقَدْ بَقِيا في هذا المأزَقِ العَقيمِ مُدَّةَ ساعَتينِ تَقريبًا.

إلى أنْ خَطَرَتْ لَها فِكرَةٌ فَجْأَةً.

«حَسَنٌ إذنْ (دُبّ) لقدْ أحضرْتُ لكَ بعضَ بَسكويتِ الشّوفانِ. أنا في الحقيقةِ لسْتُ جائعةً. لِذا، سأضَعُ بعضَ زُبدةِ الفولِ السّودانيِّ عَلى واحدةٍ مِنْها - هكَذا - وسأتْرُكُها أمامي. هُنا. على هذِهِ الصّخرةِ الصّغيرةِ. هلْ تستطيعُ أنْ تَرى؟ وإذا رَغِبْتَ بِها، فعلى الرَّحْبِ والسَّعَةِ.»

في البدايةِ، لَمْ يتجاوَبْ (دُبّ). رُبَّما لَمْ يكنْ يُحِبُّ زبدةَ الفولِ السّودانيِّ بقدْرِ ما تحبُّها هيَ؟ ثُمَّ رفَعَ أنفَهُ في الهواءِ، ثُمَّ صارَ أنفُهُ يهتزُّ ويرتعِشُ. استنشَقَ الهواءَ بِصوتٍ مُرتفعٍ بِضْعَ مَرّاتٍ. كانَ بإمكانِ إبريل أنْ تُقْسِمَ عَلى أنَّ عينَيهِ أضاءَتا لِبُرْهَةٍ قَصيرةٍ.

«إنَّها زبدةُ الفولِ السّودانيِّ.» قالتْ. «مُقرمَشَةٌ، لأنَّهُ النّوعُ الأفضلُ. ستُعجبُكَ. إنّها ليستْ فُقْمَةً أوْ أيَّ شيءٍ مِنْ هذا القَبيلِ، لكنَّها طيِّبَةُ المَذاقِ جِدًّا، خاصَّةً إذا كنتَ جائعًا.»

استنشَقَ (دُبّ) الهواءَ مَرَّةً أُخرى فامْتلأَ وجهُهُ بِشيءٍ مِنَ الشّوقِ الغامِرِ جعَلَ جسدَهُ كُلَّهُ يرتجِفُ هذه المَرَّةِ. ببطْءٍ شديدٍ، اقترَبَ خُطوةً مُتردِّدَةً إلى الأمامِ، ثُمَّ خُطوةً أخْرى، حتّى خَطا الخُطوةَ الثَالثَةَ والأخيرَةَ في النّهايةِ، ومِنْ دونِ أنْ يرفَعَ عينيهِ البُنِّيَّتينِ وَلا لِمَرَّةٍ واحدَةٍ عَنْ إبريل، الْتَهَمَ بَسكوتَةَ الشّوفانِ كُلَّها.



«كنتُ متأكِّدَةً مِنْ أنَّكَ ستحِبُّها!»

كانتْ ما زالتْ تبتسِمُ لِنفسِها حينَ اندفَعَ (دُبّ) نَحوَها فجأةً، كانَ فَكّاهُ مُفتوحينَ عَلى آخِرِهِما وأسنانُهُ الحادَّةُ بارزَةً وطويلَةً. أحسَّتْ أنَّ الموتَ حَدَّقَ في وجهِها، وتمنَّتْ لَوْ أنَّها ودَّعَتْ والِدَها قَبْلَ مُغادرَتِها اليومَ. أطبقَتْ عَينَيْها بإحكامٍ، وشبكَتْ أصابِعَها، وتضرَّعَتْ أنْ يَبقى شيءٌ مِنْ بَدَنِها حتّى يُدفَنَ.

لكنْ بَدلًا مِنْ أنْ يَقْضِمَ رأسَها وينتزِعَهُ، شعرَتْ إبريل فجأةً بِقدَمِها اليُمْنى تهتزُّ بشدَّةٍ - كَما لوْ أنَّ شيئًا ما أوْ أحدًا ما كانَ يَفرُكُها بقوَّةٍ، مثْلَ حَركاتِ تدليكٍ عميقَةٍ للجِلْدِ. فتحتْ إحدى عَينَيْها ببطْءٍ، ونظرتْ إلى الأسفَلِ، وهناكَ، حيثُ كانتْ لَطْخَةُ زبدةِ الفولِ السّودانيِّ، كانَ (دُبّ) يلعَقُ بَقايا الزُّبْدَةِ عَنْ حذائِها بلسانِهِ الورديِّ الضَّخمِ. كانَ الأمرُ شَبيهًا بلَعَقاتِ القِطَّةِ - لكنَّها أقوى بِمليونِ مَرَّةٍ.

صاحتْ: «(دُبّ)! لَمْ يتبقَ شيءٌ!»

لعقَ مرَّةً أخيرةً بِتلذُّذٍ وَرِضا، ثُمَّ جلسَ على عُجزِهِ، وحدَّقَ مُباشرةً فيها. كانَ ما زالَ مُكشِّرًا عنْ أسنانِهِ، لكنْ، وبينَما كانَ يلعَقُ شَفتيهِ، ويمسَحُ بِلسانِهِ فكَّهُ بأكمَلِهِ، لمْ يَبْدُ لَها مَهيبًا كَما

رأتْهُ أوّلَ مَرَّةٍ.

«هلْ تريدُ المزيدَ؟»

وضعتْ بِحَذَرٍ شديدٍ آخِرَ ما تبقّى مِنْ بَسكويتِ الشّوفانِ عَلى الصّخرَةِ، وشاهدتْهُ وهُوَ يَلْتهمُها في أقلَّ مِنْ ثانِيَةٍ. عندَما انْتهى، أمالَ رأسَهُ إلى اليَسارِ، ونظرَ إليها متوَسِّلًا.

«لمْ يبقَ شيءٌ! أنا آسفةٌ.» قالتْ إبريل.

انخفضَتْ أذُناهُ، وتمنَّتْ إبريل لَوْ أنَّها أحضرتْ علبةً أخْرى، خاصَّةً الآنَ وقدْ تراجَعَ إلى الخَلْفِ مِنْ جديدٍ، ووقفَ يُراقبُها مِنْ مسافَةٍ حَذِرَةٍ. وعَلى الرّغمِ مِنْ وُجودِ السّكّينِ في جيبِها، وكَفِّهِ المتورِّمَةِ الّتي بِدا واضِحًا أنَّها كانتْ تؤلِمُهُ بِشدَّةٍ، أدركَتْ إبريل أنَّها لَنْ تكونَ قادرَةً عَلى الاقترابِ منْهُ مَرَّةً أخْرى. إلّا إذا كانَ مَعها مَزيدٌ مِنَ الطّعامِ عَلى أيِّ حالٍ.

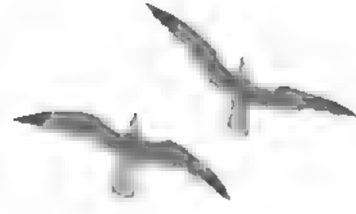
«سأعودُ غدًا،» قالتْ لَهُ، ولَمْ تكنْ مُتأكِّدَةً تَمامًا إذا كانتْ تشعُرُ بِالارتياحِ أو بِخيبَةِ الأمَلِ.

في اليومِ التّالي، أحضرَتْ عَشْرَ علَبٍ مِنْ بَسكويتِ الشّوفانِ وبرطمانَينِ مِنْ زُبدةِ الفولِ السّودانيِّ، وفي هذهِ المَرَّةِ، لَمْ يَستغرقِ الأمْرُ سِوى ساعةٍ واحدةٍ قَبْلَ أنْ يقترِبَ (دُبّ) بِتردُّدٍ، ويأكُلَ الطّعامَ الّذي وضعَتْهُ لَهُ عَلى مسافَةٍ آمِنَةٍ مِنْهُ. في اليومِ

الّذي تَلا ذلِكَ، انخفَضَ الزَّمنُ إلى نِصفِ ساعةٍ. وفي اليومِ الّذي بعدَهُ، استغرَقَ عَشْرَ دَقائقَ فقطْ قَبْلَ أنْ يشعُرَ (دُبّ) بِثِقَةٍ كافِيَةٍ. في غضونِ هذا الوقتِ، كانتْ إبريل تشعُرُ هيَ أيضًا بأنَّها صارتْ أكثرَ هُدوءًا في وجودِهِ. لَمْ يُظهرْ أيَّ عَلامةٍ تَدُلُّ عَلى رغبتِهِ في أنْ يأكُلَها - فقطْ الطّعامَ الّذي أحضرَتْهُ، وهكَذا، عندَما وصلتْ في اليومِ الرّابعِ مِنْ لقائِها الأوَّلِ بِهِ، بَدا لها (دُبّ) كَما لَوْ أنَّهُ كانَ يَنتظِرُها، ومشى وهوَ يعرُجُ نَحوَها مُباشَرَةً.

وضعَتِ الطَّعامَ أمامَهُ عَلى بُعْدِ نَحْوِ عَشْرِ خُطُواتٍ مِنْهُ. أخذَتْ نَفَسًا عَميقًا، ووقفَتْ ثابِتَةً في مكانِها. ثُمَّ مِنْ دونِ تَرَدُّدٍ، خشيَةَ أنْ يَعتَرِضَ الخوفُ عَزيمَتَها، لفَّتْ أصابِعَها حَوْلَ السِّكّينِ الموجودَةِ في جيبِها.

«والآنَ، هَلْ سَتَدَعُني أفْحَصُ كفَّكَ؟»



الفصلُ التّاسعُ

صَداقةٌ

كانتْ كَفًّا ضَخمةً - كُفوفُ الدِّببَةِ القُطبيّةِ كَبيرةٌ لِتساعِدَها عَلى توزيعِ وزنِها عَلى سطحِ الجليدِ - لكنَّ كَفَّهُ كانتْ أضخَمَ بِسببِ التَّوَرُّمِ. كانتْ قطعَةُ البلاستيكِ الّتي الْتَفَّتْ حَولَ كَفِّهِ وجرحَتْها شَبيهَةً بذلِكَ النّوعِ مِنَ البلاستيكِ الّذي يُغَلِّفُ عُلبَ المُشروباتِ الغازِيَّةِ، لكِنْ بِقياسٍ أكبَرَ مُناسبٍ للاستخداماتِ الصِّناعيَّةِ. بعضُ شِباكِ الصّيدِ الزّرقاءِ كانتْ عالقةً بالقطعةِ البلاستيكيّةِ أيضًا،

ومتشابكَةً مَعها بحيثُ استحالَ عَليهِ التَّخلُّص مِنْها بنفْسِهِ.

ابتلعَتْ إبريل آخِرَ ما تبَقّى مِنَ الخوفِ، ووقفَتْ ثابِتَةً بِسكونٍ تامٍّ. ليسَ مِثْلَ سكونِ تِمثالٍ بَلْ نَوعٍ ناعِمٍ مِنَ السّكونِ، مِثْلَ الماءِ، تَمامًا كَما علَّمَتْ تور أنْ يفعَلَ. تنفَّسَتْ بعمقٍ وبُطءٍ حتّى أسفَلِ مَعِدَتِها، كانتْ أنفاسُها صامِتَةً تَقريبًا، وما مِنْ شيءٍ يدُلُّ عَلى أنَّها تتنفَّسُ سِوى الرّذاذِ الضَّبابيِّ في الهواءِ البارِدِ. تخيَّلتْ أنَّ جُذورًا تمتدُّ مِنْ كَعْبِ حِذائها، وتصِلُها بِالجزيرةِ، مِثْلَ الطّريقَةِ الّتي تريدُ الجزيرةُ أحيانًا أنْ تَصِلَ بِها إليها، وتتواصلُ مَعَها. بهذِهِ الطّريقَةِ، صارَتْ، أقلَّ شَبَهًا بِالبَشَرِ، وأكثرَ شَبَهًا بالدُّبِّ.

سألتْ بِلُطْفٍ «هلْ يُمكنُني أنْ ألمسَهُ؟» فَلا يمكِنُ أنْ تبلغَ بِها الحماقَةُ إلى أنْ تلمَسَ حَيوانًا بَرِّيًّا مِنْ دونِ استئذانٍ.

كانَ (دُبّ) قَدْ أكلَ كُلَّ الطّعامِ، لكنَّهُ لَمْ يبتعدْ مِنْ مكانِهِ. هلْ كانَ يعلَمُ بأنَّها تريدُ مساعدتَهُ؟ أمْ أنَّها وصلتْ معَهُ إلى درجةٍ مِنَ الثِّقَةِ بحيثُ صارَ يشعُرُ بأمانٍ أكبَرَ حولَها؟ في كِلْتا الحالتينِ، أبقَتْ عينَيْها بِثَباتٍ عَلى وجهِهِ. حدَّقَ بِها لِفترةٍ طويلةٍ دونَ أنْ تطرِفَ لهُ عينٌ حتّى إنَّها لَمْ تَعُدْ متأكِّدَةً كَمْ مَرَّ مِنَ الوقتِ.

تقلَّصَ العالَمُ الخارجيُّ إلى الفراغِ الفاصِلِ بينَهُما وبينَ أنفاسِهِما البطيئةِ المُتداخِلَةِ المنتظمَةِ.

لَمْ تكنْ مَعرفةُ اللّحظةِ المُناسبةِ للتَّحرُّكِ قائمةً عَلى المنطقِ. فهذِهِ ليسَتْ لعبةَ شَطَرَنْج. كانَ الأمرُ قائمًا عَلى الحَدْسِ. شيءٌ لا تحتاجُ أنْ تشكَّ بِهِ أو أنْ ترتابَ حِيالَهُ. ووفْقًا لذلِكَ، سمحَتْ لِنفْسِها أخيرًا بأنْ تخطُوَ خُطوةً صغيرةً نَحْوَ (دُبّ).

قالتْ: «انظرْ، أنا لَنْ أؤذيَكَ.»

ثُمَّ توقَّفَتْ، قَبْلَ أنْ تخطوَ الخطوةَ التّاليةَ بِحَذَرٍ، وقبلَ أنْ تتوقَّفَ مَرَّةً أخْرى، ثُمَّ تأخُذَ الخُطوةَ الّتي تَليها. قَرَّبتْها كُلُّ خُطوةٍ أكثرَ فَأكثرَ إلى أنْ صارتْ عَلى بُعْدِ مُجرَّدِ خطوةٍ صغيرةٍ مِنْهُ.

صارت قريبةً جِدًّا لِدرجةِ أنَّها تمكَّنَتْ مِنْ أنْ تَعُدَّ كُلَّ شَعْرَةٍ في شارِبَيْهِ الأسودَيْنِ الطّويلينِ، وأنْ تشعُرَ بِرطوبَةِ أنفِهِ.

ضاقَتْ قبضَةُ أصابِعِها حَوْلِ السّكّينِ، ثُمَّ، وهِيَ تتنفَّسُ بِهدوءٍ، أخرَجَتْها بِبطءٍ مِنْ جيبِها، ووضعَتْها أمامَ وجهِها.

رَمَشَتْ عَينا (دُبّ)، لكِنَّهُ لَمْ يتراجَعْ.

قالتْ: «سَأستخدِمُ هذه لِأقطَعَ البلاستيكَ، لكنْ عَليكَ أنْ تَعدَني بأنَّكَ لَنْ تؤذِيَني.»

عندَ هذِهِ النّقطَةِ، كانَتْ قريبةً جِدًّا مِنْهُ لدرجَةٍ استَطاعَتْ مَعها أنْ تُحَدِّقَ مُباشرَةً في عَينيهِ. كانَتا بِلونِ الشّوكولاتَةِ الغنيَّةِ، لَوْنٌ بُنّيٌّ داكِنٌ جَعلَهُما تَبدوانِ سَوداوَيْنِ تَقريبًا. كانتْ في عَينَيْهِ قِصَّةٌ، كَما في عَينَي كُلِّ إنسانٍ وَحيوانٍ. وَعينا (دُبّ) تَحَدَّثَتا عَنِ الجوعِ واليأسِ. ورُبّما الوَحدةِ أيضًا، مَعَ أنَّ إبريل لَمْ تكُنْ مُتأكِّدَةً إنْ كانَ ذلِكَ انعِكاسًا لِمَشاعِرِها هيَ أمْ لا. لكنَّ الأهَمَّ مِنْ كُلِّ ذلِكَ، أنَّ عَينيْهِ لَمْ تكونا قاسِيَتينِ أوْ مُتحجِّرتينِ مِثْلَ بعضِ العُيونِ، وحينَ بحثَتْ في أعماقِهِما، حَصَلَتْ أخيرًا على الإذْنِ الّذي كانتْ بِحاجَةٍ إليهِ.

بنَفَسٍ هادئٍ وثابتٍ، جَثَتْ إبريل عَلى الأرضِ، خلعَتْ قُفّازَها، ثُمَّ مَدَّتْ يَدَها. ومَعَ مُرورِ الثّواني، صارَ بإمكانِها أنْ تشعُرَ بِأنفاسِهِ عَلى مؤخَّرةِ رَقبَتِها، وبأسنانِهِ مُتعامِدَةً عَليها كَمقْصَلَةٍ. ثُمَّ بِتردُّدٍ، لَمَسَتْ أصابِعَها فِراءَهُ.

«أوه! أنتَ ناعِمٌ جِدًّا!»

كانَ فَروُهُ مِثْلَ بَطانِيَّةٍ دافئةٍ مُريحةٍ، وتَفوحُ مِنْها رائحةُ مِياهِ البحرِ والبَرِّيَّةِ. حَفَرَ البلاستيكُ عَميقًا جِدًّا في كَفِّهِ، حتّى إنَّها لَمْ تَستطِعْ وَضْعَ أصابِعَها تحتَهُ. وعندَما لَمَسَتْ منطقَةَ الجُرْحِ، ارتَجَفَ (دُبّ).



«أوه، أيُّها المسكينُ،» قالت. «دَعْني أحاوِلُ قَطْعَها.»

حتّى بِاستخدامِ السّكّينِ، استغرَقَ الأَمْرُ عَشْرَ دَقائقَ كامِلَةً قَبْلَ أنْ تتمكَّنَ مِنْ قَصِّ كُلِّ خُيوطِ شبكَةِ الصَّيدِ، ثُمَّ أنْ تقُصَّ خِلالَ البلاستيكِ. طَوالَ الوقتِ كانَ عَلَيْها أنْ تظلَّ حَذِرَةً جِدًّا حتّى لا تقُصَّ جلدَهُ - شعرتْ أنَّ عينَيْها لَمْ تَطْرِفا طَوالَ تلكَ العمليَّةِ - لكنْ أخيرًا، تحرَّرَتْ كَفُّهُ.

عندما سقطَتْ آخِرُ قطعةٍ مِنَ البلاستيكِ عَلى الأرضِ، رَفَعَ (دُبّ) رأسَهُ عاليًا وَزَأَرَ.

كانَ زئيرُهُ مُدَوِّيًا وصامًّا للآذانِ، حتّى إنَّ إبريل سقطَتْ عَلى وجهِها فوقَ رَمْلِ الشّاطئِ. لكنَّهُ رغمَ ذلكَ واصَلَ الزّئيرَ، جاعِلًا الأرضَ تَرتَجُّ والسّماواتِ تَدورُ وتَنْشَقُّ.

«لا بأسَ،» قالتْ إبريل وهيَ تَرفعُ نفسَها عَنِ الأرضِ بمجرَّدِ أنْ توقَّفَ عَنِ الزَّئيرِ. «أعلَمُ أنَّكَ تريدُ فقطْ أنْ تقولَ: شكرًا لَكِ.»

نظرَ إليْها (دُبّ) بِعينَيْهِ البُنِّيَّتينِ الدّاكِنَتَيْنِ، كانَتا تَتَلألآنِ لَيْسَ فقطْ بِانعِكاسِ صورَةِ البحرِ عَلَيْها، بَلْ بِشيءٍ أعمَقَ بِكثيرٍ. كانتْ نظرَةً احْتَوَتِ الزَّمانَ والمكانَ، وكُلَّ ما بينَهُما. وكانَ بِمَقدورِها أنْ تدومَ إلى الأبَدِ، أوْ لِثوانٍ مَعدودةٍ. وحتّى عِنْدما عادَتْ إبريل بِذاكِرَتِها إلى ما حَدَثَ، لَمْ تكُنْ مُتأكِّدَةً تَمامًا.

لكنَّها كانتْ تعرِفُ شَيئًا واحِدًا: أنَّها كانتْ مِنْ ذلِكَ النَّوعِ مِنَ النَّظراتِ الَّتي يمكِنُ لِلصّداقاتِ أنْ تُبْنى عَلَيْها.

«سَأعودُ غَدًا،» قالتْ بِصوتٍ مُرتَبِكٍ. وقفَتْ عَلى قدمَيْها وهِيَ تُحاوِلُ أنْ تفهَمَ هذِهِ النُّسْخَةَ الجديدةَ مِنَ الحَياةِ، حيثُ يَكونُ بِمقدورِ فَتاةٍ مِثْلِها أَنْ تُصادِقَ دُبًّا قُطْبيًّا. «سأحضِرُ مَرْهَمًا مُطَهِّرًا لِوَضْعِهِ عَلى كَفِّكَ لِمَنْعِ حُدوثِ أيِّ الْتِهابٍ.»

فتحَ (دُبّ) فَمَهُ لِيَزْأَرَ، لكِنَّها رفعَتْ يدَها لِمَنْعِهِ مِنْ أنْ يفعَلَ.

ضحكَتْ «نَعَمْ، وبعضَ زُبْدَةِ الفولِ السّودانيِّ أيضًا.»



الفصلُ العاشرُ

شمسُ مُنتصفِ اللَّيلِ

وثبَتْ إبريل وقفزَتْ ورقصَتْ طَوالَ الطّريقِ إلى المَنزِلِ. شعرَتْ بِرفرفَةٍ ناعِمَةٍ في أحْشائِها، وأشرقَ قلبُها. ستعودُ غَدًا وستجلِبُ مَعها مَزيدًا مِنْ زُبدةِ الفولِ السّودانيِّ. رُبَّما بَرطمانًا كامِلًا هذهِ المَرَّةَ وبعضَ بَسكويتِ الشّوفانِ. رُبَّما عُلبتَينِ مِنْها. ماذا تأكُلُ الدِّبَبَةُ القُطبيَّةُ غيرَ الفُقْمَةِ؟ سوفَ تكتشفُ ذلِكَ!

وعَلى هذِهِ الحالِ قفزَتْ عَبْرَ بابِ المَقصورةِ في مِشْكالٍ مِنَ

الأفْكارِ والحَماسِ والأنفاسِ المتقَطِّعَةِ، مِثْلَ مدينةِ مَلاهٍ تشتعِلُ بِالألْوانِ والضَّوضاءِ وحَلوى غَزْلِ البَناتِ. وتوهَّجَ خَدّاها ليسَ فقطْ بِسببِ البَرْدِ، لكنْ بِسببِ نَوعٍ مِنْ سعادَةٍ لَمْ تشعُرْ بِمِثْلِها منذُ فترةٍ طويلةٍ.

ثُمَّ توقَّفَتْ فجأةً.

كانَ والدُها جالِسًا أمامَ النّارِ وقدْ وَضَعَ ساقًا عَلى ساقٍ ويبتسِمُ لَها. في الحقيقةِ كانَ يبتسِمُ *حَقًّا*، لكنْ ليستْ ابتسامةَ الفَمِ فقطْ الّتي كانَ يرسُمُها عَلى وجهِهِ منذُ وصولِهما إلى الجزيرةِ.

سألتْ بتردُّدٍ: «بابا، هلْ كُلُّ شيءٍ عَلى ما يُرامُ؟»

لَمْ يُجِبْها عَلى الفورِ. بَدلاً مِنْ ذلِكَ، استقامَ بِسرعَةٍ عَلى قدمَيْهِ، وشَغَّلَ مَقطوعةَ (موتزارت) الموسيقيَّةَ المُفضَّلَةَ لَديهِ. كانتْ مَقطوعةً مَرِحَةً - (سوناتا) رقم 17 - تلكَ الّتي تَجعَلُها ترغَبُ في الدَّورانِ حَوْلَ الغُرفَةِ في رَقصَةِ (فالس) مُضحِكَةٍ.

«إنَّها اللَّيلةُ!» قالَ والدُها بينما تقافَزَتِ الألحانُ وتدفَّقَتْ مِنْ حولِهما.

«ماذا هُناكَ اللَّيلةَ؟»

«شمسُ مُنتصفِ اللَّيلِ، يا إبريل. شمسُ مُنتصفِ اللَّيلِ!»

كانَ والدُها قدْ حَدَّثَها عنْ شمسِ مُنتصفِ اللَّيلِ قَبْلَ مَجيئهِما. كانتْ في الواقعِ إحْدى الحجَجِ الّتي استخدَمَها لإقناعِ الجَدَّةِ (أبلز) بأنَّ عَلى كُلِّ شَخصٍ أنْ يُشاهِدَ شمسَ مُنتصفِ اللَّيلِ عَلى الأقَلِّ مَرَّةً واحدَةً في حياتِهِ. وإبريل، إبريل المحظوظةُ، سَتفوزُ بِقضاءِ فَصْلِ صَيفٍ كامِلٍ تَقريبًا مَعَها. لكنَّ حُجَّتَهُ لَمْ تُجْدِ نَفْعًا؛ لأنَّ الجَدَّةَ (أبلز) تَأَفَّفَتْ، وقالتْ إنَّهُ عَلى الرَّغمِ مِنْ أنَّ الشَّمسَ في بريطانيا ضَعيفةٌ، ولا يُمكِنُ الاعتمادُ عَلَيْها، فإنَّها مُبهِجَةٌ بِما يكفي بِالنِّسبَةِ لَها.

لكنَّ الحقيقةَ هِيَ أنَّنا مِنَ الصَّعْبِ أنْ نَتخَيَّلَ أشْياءَ لَمْ نَرَها مِنْ قَبْلُ. الآنَ، والموسيقى ترقُصُ في أرْجاءِ الغُرفَةِ، وحركاتُ (الفالس) تقفزُ في خُطواتِها، وابتسامةُ والدِها المتحَمِّسَةُ، شعرتْ إبريل بالحَماسَةِ تَسري في جَسدِها كُلِّهِ.

هي، إبريل وود، لَمْ تُساعِدْ دُبًّا قُطبيًّا اليومَ فَحَسْبُ، لكنَّها عَلى وشكِ رُؤيَةِ شَمْسِ مُنتصفِ اللَّيلِ أيضًا!

بالطَّبْعِ، كانَ عَليهِما الانتظارُ حتّى مُنتصَفِ اللَّيلِ، وكانَ ما زالَ أمامَهُما أربعُ ساعاتٍ، لكنَّها في هذِهِ الأثناءِ، سخَّنَتْ عُلبتَينِ مِنْ حَساءِ الخضارِ، وجَلسا يتناولانِها عَلى الأريكةِ جَنْبًا إلى جَنْبٍ، وقدْ وَضَعا العلبتينِ فوقَ اثْنتينِ مِنَ الموسوعاتِ القَديمةِ

المُغَطّاةِ بِالغُبارِ.

استجمَعَتْ شَجاعَتَها، وقالتْ مُستشعْرَةً بِأَنَّ مِزاجَ والدِها كانَ مُهَيَّئًا للحديثِ: «أخبرْني عَنْ شَمسِ مُنتصفِ اللَّيلِ.»

كانتْ مُحِقَّةً؛ فقدْ تَناولَ العُلبتينِ الفارِغتينِ، ووضَعهُما عَلى الأرضِ، ثُمَّ غاصَ بينَ طَيّاتِ الأريكَةِ، ونَدَتْ عَنْهُ هَمْهَمَةُ ارْتياحٍ راضيةٌ، وقالَ: «هلْ تتذكَّرينَ الكُرةَ الأرضيَّةَ الَّتي اشتريتُها لَكِ في عيدِ ميلادِكِ قَبْلَ بِضْعِ سنواتٍ؟»

أَوْمَأتْ إبريل بِرأسِها إيجابًا. في الواقعِ حَدَثَ ذلِكَ بَعْدَ يَومينِ مِنْ عيدِ ميلادِها، وكانَتْ تَرغَبُ حَقًّا بِقِطَّةٍ صَغيرةٍ، لكنَّ الكرةَ الأرضيَّةَ كانتْ هديَّةً لَطيفةً.

تابعَ والدُها: «إذنْ فأنتِ تَعرفينَ أنَّنا بِالقربِ مِنَ القُطبِ الشَّمالِيِّ. ليسَ في القُطبِ الشّماليِّ لكنْ في مكانٍ ما قريبٍ مِنْهُ. وأيضًا تعرفينَ أنَّ الأرضَ تقعُ عَلى مِحْوَرٍ.» أَوْضَحَ لَها ذلِكَ مُستخدِمًا فنجانَ قَهوتِهِ عَبْرَ إمالَتِهِ بِضْعَ درجاتٍ إلى اليمينِ. «ولأنَّ هذا المَيَلانَ المِحورِيَّ لِلأرضِ كبيرٌ جِدًّا، فَهذا يَعني أنَّ الشَّمسَ لا تَغرُبُ في أجزاءِ العالَمِ الأقرَبِ إلى القُطبينِ، مِثْلَ هُنا.» أشارَ إلى أعْلى وأسْفَلِ الكوبِ. «وبناءً عَلى مَدى قربِكِ مِنَ القُطبِ، بإمكانِ الشَّمسِ أنْ تَبْقى ساطعَةً لِأشْهُرٍ دونَ أنْ تغرُبَ

مَرَّةً واحدَةً. هناكَ مَنْ يُسمّيهِ: «اليومَ القُطبيَّ». لكنَّهُ مَعروفٌ أكثرَ باسْمِ: «شمسِ مُنتصفِ اللَّيلِ».

«هلْ تقصِدُ أنَّ اللَّيلَ لا يحلُّ *عَلى الإطلاقِ*؟»

«هذا صحيحٌ، لا يوجَدُ لَيلٌ.»

حاولَتْ إبريل أنْ تتخيَّلَ يَوْمًا بِلا ليلٍ. لقدْ لاحظَتْ كيفَ صارَتِ اللّيالي أكثرَ إشْراقًا يومًا بَعْدَ يومٍ، لكنَّ الشَّمسَ ظلَّتْ تنخفِضُ وتغيبُ وراءَ الأفُقِ. الآنَ، سَتبقى الشَّمسُ في السَّماءِ طَوالَ الوقتِ. شيءٌ واحدٌ حَيَّرَها. «لكنْ كيفَ ينامُ النّاسُ؟»

الْتفتَ إلَيها أبوها وابتسَمَ. «بإغماضِ أعيُنِهم بِالطَّبْعِ.»

لَمْ تكُنْ إجابَةً مُضحكَةً - نِكاتُ والدِها لَيستْ مُضحكَةً في العادَةِ - لكنْ لأنَّها لَمْ تَستطِعْ حتّى أنْ تتذكَّرَ آخِرَ مَرَّةٍ قالَ فيها نُكتَةً، وجدَتْ إبريل نفسَها تُقَهْقِهُ مِنْ شِدَّةِ الضَّحِكِ، ثُمَّ انْضَمَّ والدُها إلَيها، وضحِكَ كِلاهُما حتّى آلمَتْهُما خَواصِرُهُما.

عِنْدما تَوقَّفَ الضَّحكُ، فتَّشَتْ إبريل في ذِهْنِها عنْ سُؤالٍ آخَرَ. فهيَ لا تحصُلُ عَلى هذا النَّوعِ مِنَ اللَّحظاتِ مَعَ أبيها في أكثرِ الأحيانِ؛ لذلِكَ أرادتْ أنْ تُطيلَها، وتجعَلَها تَدومُ لِأطولِ فترةٍ مُمكِنَةٍ.

«ويحصلُ العكسُ أيضًا، أليسَ كَذلِكَ؟»

«نعمْ،» أجابَ والِدُها، وقدْ بَدا سعيدًا لأنَّها سألَتْهُ. «عندَما يحلُّ عيدُ الميلادِ، لا تشرِقُ الشَّمسُ عَلى الإطلاقِ في هذا الجزءِ مِنَ العالَمِ. لَكِ أنْ تتخيَّلي ذلِكَ. شِتاءٌ مِنَ الظّلامِ الدّامِسِ. لكنْ لا داعيَ للقَلَقِ؛ لأنَّنا سنُغادِرُ قَبْلَ حُدوثِهِ بوقْتٍ طويلٍ.»

مَضى عَلى وجودِهِما هُنا ما يزيدُ قَليلًا عَلى شهرٍ واحدٍ، ممّا يَعْني أنَّهُ بَقِيَ لَهُما خمسةُ أشهرٍ. خمسةُ أشهُرٍ كامِلةٌ مِنَ الصَّيفِ.

لَمْ يَعُدْ يهمُّ كَثيرًا بعدَ الآنَ إنْ كانَ عَلى والدِها أنْ يعملَ كثيرًا، فهيَ متحمِّسَةٌ جِدًّا لتَعْرِفَ (دُبّ) بِشكلٍ أفضَلَ. في غيابِ اللَّيلِ، شعرَتْ كَما لَوْ أنَّها وُهِبَتْ ضِعفَ عددِ الأيّامِ الّتي ستقضيها معَهُ.

قبلَ مُنتصفِ اللَّيلِ بِقليلٍ، وبعدَ أنْ تسربَلَ كُلٌّ مِنهُما مِنْ قِمَّةِ رأسِهِ إلى أخْمَصِ قدميهِ بالسُّتْراتِ والأحذيَةِ والقُبَّعاتِ والأوشِحَةِ والقُفّازاتِ، خَرَجا إلى البَرْدِ. كانَ أوَّلُ شيءٍ فَعَلَتْهُ إبريل النَّظرَ إلى الأعْلى.

كانَ الأمرُ صَحيحًا. لَمْ تكُنِ السَّماءُ سَوداءَ مُخمليَّةً ناعمَةً. لَمْ تكُنْ هُناكَ نُجومٌ مُتلألِئَةٌ. لَمْ تَسْتَطِعْ حتّى أنْ تَرى قَمرًا. لكنْ بَدَلًا مِنْ ذلِكَ، تعلَّقَتِ الشَّمسُ مُنخفِضَةً في الأفُقِ وتلوَّنتِ

السَّماءُ مِنْ حولِها بِخطوطٍ بُرتقاليَّةِ اللَّونِ.

حدَّقتْ إبريل في السَّماءِ بِدهشةٍ، وانتشرَتْ أنفاسُها أمامَها مِثْلَ أنفاسِ تِنّينٍ.

«قرأتُ شيئًا في الموسوعَةِ،» قالتْ بِخجَلٍ، وهما يشاهدانِ السَّماءَ يتحوَّلُ لونُها مِنَ البرتقاليِّ إلى العَنْبريِّ فَالذَّهَبيِّ. «كُتِبَ فيها أنَّهُ في اليومِ الأوَّلِ مِنْ شمسِ مُنتصفِ اللَّيلِ، يُحْيي السُّكّانُ المَحَلّيّونَ حَفْلًا خاصًّا. فكَّرْتُ . . . فكَّرْتُ أنَّهُ يمكِنُنا أنْ نفعلَ ذلِكَ أيضًا؟»

لَمْ يُجِبْ والدُها.

تابعَتْ بِعَجَلٍ: «يَحتَسونَ فيهِ شَرابًا خاصًّا - واضِحٌ أنَّنا لَنْ نفعَلَ ذلِكَ،» شعرَتْ بِهِ مُتوتِّرًا بِجانِبِها. «لكنَّني فكَّرْتُ أنَّهُ يُمكِنُنا إعدادُ بعضِ الشّوكولاتَةِ السّاخِنَةِ بَدَلًا مِنْ ذلِكَ؟ يَرسُمونَ دائرَةً كَبيرةً عَلى الأرضِ، يُسَمّونها دائرَةً مُقدَّسَةً - يُقصَدُ بِها أنْ تُمَثِّلَ الشَّمس - وَيقِفونَ جَميعًا في داخِلِها، ثُمَّ يَتَمَنَّوْنَ ثلاثَ أُمْنياتٍ للصَّيفِ. يُقالُ إنَّ ذلِكَ يجلِبُ الحظَّ السّعيدَ.»

بقيَ صامِتًا لِوقْتٍ تخيَّلَتْ أنَّهُ الأطولُ، لكنْ ما إنْ همَّتْ بِالعودَةِ إلى الدّاخِلِ حتّى صَفَّقَ بيديهِ وقالَ: «إبريل هذا اقتراحٌ رائعٌ، يُستحسَنُ أنْ أحضِرَ إبريقَ الشّايِ.»

ضحكتْ إبريل حينَ اندفَعَ والدُها إلى الدَاخِلِ، وراحَ يسحَبُ بذراعيهِ وساقيهِ النّحيفتينِ كُلَّ شيءٍ في المطبخِ في وقتٍ واحِدٍ؛ إبريقَ الشّايِ، وحَلوى الخُطمى، وحتّى بعضَ البَسكويتِ بالشّوكولاتَةِ.

لَمْ يكُنْ مُهِمًّا أنَّ طَبَقًا انْكَسَرَ، أوْ أنَّ بابَ الخَزانَةِ كادَ ينخَلِعُ عَنْ مُفَصَّلاتِهِ، أوْ أنَّ نِصفَ الشّوكولاتَةِ السَاخنةِ انتهى بِها الأمرُ مُنسكبَةً عَلى الأرضِ.

كانتْ قدْ تبقَّتْ دَقائقُ معدودةٌ عَلى حلولِ مُنتصَفِ اللَّيلِ حينَ عاوَدَ والِدُها الظّهورَ في الخارجِ، ورسمَ دائرةً كبيرةً عَلى الأرضِ بِعَصًا خشبيَّةٍ.

في هذِهِ الأثناءِ، أكمَلَتْ إبريل رَسْمَ الدّائرةِ بِإضافَةِ بِضْعَةِ خُطوطٍ تَنطلِقُ لِلخارِجِ مِثْلَ أشعَّةِ الشَّمسِ، ثُمَّ وَضَعا إبريقَ الشّايِ داخِلَ الدّائرةِ، وَجَلَسا عَلى بعضِ الوَسائدِ الّتي أحْضَراها مِنْ عَلى الأريكةِ.

حامَتِ الشَّمسُ الآنَ عندَ حافَّةِ الأفُقِ، في النّقطةِ الّتي تغرقُ فيها عادَةً، وتختفي عَنِ الأنظارِ قَبْلَ العودةِ في الصّباحِ. لكِنْ بَدَلاً مِنْ أنْ تَتوارى، بقيَتْ عالِقَةً فوقَ الأفقِ مِثْلَ طَوقِ كُرةِ السَّلَّةِ وحولَها.



تبدَّلَتْ ألوانُ السَّماءِ مِنَ الذَّهَبِيِّ إلى البرونزِيِّ فَالمِشْمِشيِّ.

أخذتْ إبريل رَشْفَةً كبيرةً مِنَ الشّوكولاتَةِ السّاخنَةِ مُباشرَةً مِنْ فُوَّهَةِ الإبريقِ، وهيَ غيرُ قادرَةٍ عَلى أنْ تتذكَّرَ أنَّ مِثْلَ هذهِ السّعادَةِ غَمَرَتْها مُنْذُ سَنواتٍ عَديدةٍ.

«ثلاثُ أمْنياتٍ، لا تَنْسَ أنْ تتَمَنّاها.» قالتْ إبريل وأطلقَتْ تنهيدَةً مُعطَّرَةً برائحةِ الشّوكولاتَةِ.

قالَ والدُها: «حَسَنًا، لَطالَما رغبْتُ بِرؤيَةِ شَمسِ مُنتصفِ

اللَّيلِ منذُ أنْ قرأْتُ عَنْها لِأوَّلِ مَرَّةٍ عندَما كنتُ في مِثْلِ عمرِكِ؛ لِذلكَ، يبدو أنَّ إحْدى أُمنياتي قدْ تحقَّقَتْ بِالفِعْلِ.»

«لكنْ يُمكِنُكَ الحُصولُ عَلى أُمنيَتَيْنِ أُخريينِ!» قالتْ إبريل بعدَ أنْ أنفقَتْ كُلَّ أمنياتِها الثَّلاثِ بِالفِعْلِ، واحدَةٌ للدُّبّ، وواحِدَةٌ لِأبيها، والأخيرةُ لِهذا الكوكبِ.

كادتْ تُخبرُ أباها حينَها عَنْ (دُبّ). كانَ عَلى طَرَفِ لِسانها أنْ تخبرَهُ بِكُلِّ شيءٍ. حتّى إنّها فتحتْ فَمَها، لكنْ بِطريقَةٍ ما لَمْ تَتَشكَّلِ الكَلماتُ بِشكلٍ صَحيحٍ، وبعدَ أنْ تمكَّنَتْ مِنْ تَركيبِ جُمْلَتِها الأولى، كانَ قَدْ فاتَ الأوانُ. فقدْ بَدَأَ هوَ بِالكلامِ.

«غَدًا عيدُ مِيلادِ أمِّكِ،» قالَ بِصوتٍ هادِئٍ لِلغايَةِ لَمْ تَكَدْ تَسمعُهُ. «وكنتُ أتَمَنّى دائمًا أنْ تكونَ مَعي لِنرى الشَّمسَ مَعًا.»

كيفَ أمكَنَ لَها أنْ تَنْسى؟ شعرَتْ بدفْعَةٍ نارِيَّةٍ ساخنَةٍ مِنَ الخَجَلِ تَسْري في عُروقِها.

مَدَّتْ يَدَها بِتردُّدٍ لِتَلْمَسَ ذِراعَهُ، لكنَّهُ، وبِهزَّةِ اعْتِذارٍ مِنْ رأسِهِ، نهضَ مِنْ عَلى الأرضِ، نَفَضَ الأوساخَ عَنْ ساقَيْهِ، وأعلَنَ بِصوتٍ هادِئٍ أنَّهُ وَعَلى الرّغمِ مِنْ أنَّ الشَّمسَ ما زالَتْ في السَّماءِ، فإنَّ وقتَ النَّومِ قدْ حانَ.

لَمْلَمَتْ إبريل إبريقَ الشّايِ والوسائدَ، ودخلتِ المَقصورَةَ

خلفَهُ. ومِنْ خِلالِ شَقٍّ في بابِ غرفةِ نومِهِ، تمكَّنَتْ مِنْ رُؤيتِهِ واقِفًا إلى جانِبِ مُشَغِّلِ الأسطواناتِ، يبحَثُ بِشكْلٍ مَحمومٍ في تَسجيلاتِهِ، هازًّا رأسَهُ أوْ ناقِرًا إيّاهُ بِأصابِعِهِ. وعندَما وجدَ ما يُريدُهُ، غاصَ جالِسًا عَلى سريرِهِ.

«تُصبحُ عَلى خيرٍ يا أبي» قالتْ إبريل.

لكنَّ الموسيقا كانت قد بدأت تعزِفُ، ولَمْ يَعُدْ مُنْتَبِهًا لِوُجودِها. كانت تعزف تلك الأغنيةَ الحزينةَ، الأغنيةَ الّتي يُشغِّلُها كُلَّ عامٍ في هذا الوَقتِ.

في وقتٍ لاحِقٍ عَلى سريرِها، وبعدَ أنْ عُزِفَتِ الموسيقا نَحْوَ مئةِ مَرَّةٍ، وضعَتْ وسادَتَها فوقَ رأسِها حتّى لا تسمَعَها.

واستمرَّتِ الشَّمسُ تشرِقُ.



الفصلُ الحادي عشرَ

مَقْصورَةُ الطّقسِ

لَمْ يكُنْ صَحيحًا أنَّها لا تفتقِدُ والدَتَها، تأمَّلَتْ إبريل هذه الفكرة بينَما كانتْ تتناولُ الإفطارَ في صباحِ اليومِ التّالي. إنْ أرادتْ أنْ تكونَ صادِقَةً فكُلُّ ما في الأمرِ هُوَ أنَّها لَمْ تَعُدْ تتذَكَّرُ والدَتَها إلّا في لَمَحاتٍ فقطْ.

كانتْ هناكَ القصصُ الّتي حَكَتْها لَها قَبْلَ النّومِ. لكنْ أيضًا الرَّقصُ في حديقةِ المنزلِ الخلفيّةِ مَعَ إشراقَةِ شمسٍ بِلونِ شَرابِ

العسلِ الذَّهبيِّ، كعكُ الشّوكولاتَةِ مِنْ أجلِ وجبةِ الإفطارِ، وضحكاتٌ مِثْلُ الحلوى المُفرقِعَةِ. كانَ هناكَ كثيرٌ مِنَ العناقِ؛ لأنَّها كانتْ ذلكَ النّوعَ مِنَ الأمَّهاتِ المُحِبّاتِ لِلعناقِ.

بالطّبعِ، كانتْ هناكَ ذِكرياتٌ عَنِ الحيواناتِ أيضًا. حينَ ينثُرُ ثُلاثتُهمْ طعامًا للقَنافِذِ على العُشْبِ عندَ الغَسَقِ، ثُمَّ يجلسونَ القُرفصاءَ داخلَ المنزلِ، والأنوارُ مُطفأةٌ لِيَرَوا مَنْ منهُم سيلْمَحُ القنفذَ الأوَّلَ. مشاهدةُ والدتِها وهيَ تطعِمُ طيورَ الحنّاءِ مِنْ يدِها بينَما يراقِبُ والدُها بمحبَّةٍ، وتلكَ المرَّةُ الّتي أنقذَتْ فيها سُلَحْفاةً ضلَّتْ طَريقَها إلى بيتِها، وكيفَ مازَحَها والدُها بِرغبَتِهِ في الاحتفاظِ بِها.

كانتْ إبريل تتساءلُ في بعضِ الأحيانِ كيفَ ستكونُ حياتُها لَوْ أنَّ والدتَها لَمْ تتعرَّضْ لِحادثِ السَّيْرِ ذلكَ اليومِ بِالخَطأِ. هلْ كانَ مِنَ الممكِنِ أنْ تكونَ إبريل فتاةً عاديَّةً ولو قليلًا؟ أشبَهَ بِالفتياتِ الأُخرياتِ في المدرسةِ؟ فَهُنَّ لَمْ يلعَبْنَ في الحدائقِ الخلفيَّةِ مَعَ الثّعالبِ، ولَمْ يتسلَّقْنَ الأشجارَ أو يتحَدَّثْنَ مَعَ الحيواناتِ. لَمْ تكنْ متأكِّدَةً إنْ كانَ سببُ اختلافِها هو جيناتُها أو ما حَصَلَ في حياتِها.

اشتبهَتْ بِأنَّ لِكلا الأمرَيْنِ دورًا في ذلِكَ.

لَمْ يكنْ لوالِدِها ذَنْبٌ في حالَتِهِ تلْكَ. ولَمْ يكُنْ صحيحًا أنَّهُ لا يحِبُّها. ما حَدَثَ هوَ أنَّ والدَتَها، عندَما ماتتْ بعدَ يومينِ طَويلينِ ومؤلمَيْنِ مِنَ الحادِثِ، أخذَتْ نِصْفَ والدِها مَعها، للأَسَفِ، كانَ ذلِكَ النِّصفُ هوَ نصفَهُ الأكثرَ مَرَحًا. النِّصفَ الّذي اعتادَ أنْ يُغنّيَ كُلّما رأى قوسَ قُزَحَ، الّذي روى نِكاتًا سَخيفةً جعلت أمَّها تنخِرُ مِنْ شِدَّةِ الضَّحِكِ، وبالتَّأكيدِ هو النِّصفُ الّذي لَمْ يعملْ كَثيرًا أو ينفجرْ غَضَبًا بسببِ التَّوَتُّرِ.

أرسلتْ إبريل نظرَها نَحوَهُ حيثُ جلسَ مُنهَكًا على طاولةِ المطبخِ، جِفناهُ السّفليّان كأكياس مُنْتَفِخَةٍ تكادُ تسقطُ في كوبِ الشّايِ الّذي يشربُ منهُ. كانَ شعرُهُ الأشعَثُ الهائجُ ناتِئًا مِنْ رأسِهِ نحوَ الأعلى بِزوايا قائمةٍ، وكانَ قميصُهُ مُزَرَّرًا بِشَكْلٍ غيرِ صحيحٍ.

لوْ كانَ يعتقدُ، بِطريقةٍ ما، أنَّهُ يستطيعُ الهروبَ مِنْ حُزنِهِ بِالمجيءِ إلى هنا فهوَ مخطِئٌ؛ لأنَّهُ أينما يذهبْ يتبعْهُ الحُزنُ مثلَما يتبعُ الذَّيلُ المذنّبَ.

تنهَّدَتْ إبريل.

نظرَ والدُها إلى ساعتِهِ بِنفادِ صَبْرٍ، وقالَ: «هلْ أنتِ مُستعدَّةٌ إذنْ؟»

«مُستعدَّةٌ؟»

«لِتُساعديني. لقدْ سَألتِني ذلكَ اليومَ، ألا تَتذكَّرينَ؟»

«نعمْ. لا.»

أوه! يا لَسوءِ الحظِّ! لِماذا يطلبُ إليها فجأةً أنْ تساعِدَهُ في هذا *اليومِ* مِنْ بينِ كلِّ الأيّامِ؟ ماذا لَوْ كانَ (دُبُّ) ينتظرُها في خليجِ (والْروس)؟ شعرَتْ وكأنَّها ممزَقَةٌ إلى نِصفينِ.

بالطَّبْعِ، هيَ ترغبُ في قضاءِ بعضِ الوقتِ مَعَ والدِها. ألَمْ تكنْ في انتظارِ شيءٍ كَهذا منذُ أنْ وَصلا إلى هُنا؟ لكنَّها اقترحَتْ مُساعدتَهُ فقطْ؛ لأنَّها شعرتْ بالإحباطِ. كَما أنَّها تفضِّلُ أنْ يفعلا شيئًا مُسَلِّيًا مَعًا، كأنْ يلعبا كرةَ القَدَمِ، أو يتزحلَقا على سَفْحِ الجبلِ، أو يصطادا في إحدى البُحيراتِ.

قالَ بِلُطْفٍ: «إبريل؟ كانَ خطأً منّي أنْ أقولَ إنَّكِ صغيرةٌ جِدًّا عَلى مُساعدتي. بعدَ تفكيرٍ، لستِ مُطلقًا صغيرةً لِتقومي بعملٍ مُهمٍّ. بلْ وقدْ يعطيكِ ذلك فكرةً عَمّا تريدينَ فعلَهُ عندَما تكبَرينَ.»

أومأتْ إبريل موافِقَةً.

كانَ طَرْحًا سَخيفًا بالطَّبعِ؛ لأنَّها لنْ تُصبحَ كبيرةً إلّا بعدَ زَمَنٍ طَويلٍ، وقدْ تفكِّرُ حينَها في الصّعودِ إلى مركَبةٍ فضائيَّةٍ،

والذَّهابِ إلى القمرِ.

ومعَ ذلكَ، علَيها ألّا تَنْسى أنَّ والدَها يقومُ بعملٍ مُهمٍّ *جِدًّا*. كلُّ تلكَ الرُّزَمِ والرُّزَمِ مِنَ السِّجلّاتِ المغبَّرَةِ المليئةِ بِالحقائقِ وَالأرقامِ المسجَّلَةِ منذُ افتتاحِ محطَّةِ الأرصادِ الجوِّيّةِ قبلَ نحوِ قرنٍ مِنَ الزَّمانِ. درجاتُ حرارةِ البحرِ، درجاتُ حرارةِ الهواءِ، الرُّطوبةُ، سُرعةُ الرِّياحِ واتِّجاهُها، تَمَّ قياسُها كلُّها منذُ ذلكَ الحينِ، والآنَ يستمرُّ والدُها بِقياسِها. لقدْ قامَ الجميعُ بعملٍ قَيِّمٍ عَلى مدى مئةِ العامِ الماضيةِ، لكنَّهُ رُبَّما لَمْ يكنْ ضروريًّا بِالدَّرجةِ الّتي هوَ عليها اليومَ.

كثيرًا ما تساءلتْ إبريل عمّا يمكِنُ أنْ تفعلَهُ للمساعَدَةِ في إنقاذِ كوكبِ الأرض، وهذِهِ هيَ فرصتُها الآنَ؛ لِذا، رفعَتْ نفسَها واستقامَتْ، ثُمَّ تَبِعَتْهُ.

كلَّما دخلَتْ كبينةَ الطّقسِ بَدا لها الأمرُ مِثْلَ وَلوجِ عالَمٍ مختلِفٍ، مكانٍ مليءٍ بِآلاتٍ ميكانيكيّةٍ غريبةٍ، تَدُقُّ وتَطِنُّ بطريقةٍ صلبةٍ منتظِمَةٍ.

كانَ لديها شعورٌ مضطرِبٌ بأنَّهُما داخلَ فراغٍ - عِنْدما يُغلَقُ البابُ يصيرانِ معزولَيْنِ عَنْ بقيَّةِ العالَمِ، ولا شيءَ آخَرَ، ولا حتّى جزيرةَ الدُّبِّ، يمكنُ أنْ تتسرَّبَ مِنْ خِلالِهِ.

في الدّاخِلِ، كانتْ رائحةُ الهواءِ جافَّةً مَعَ قليلٍ مِنَ اليانسونِ.

«لماذا لا نقيسُ درجةَ حرارةِ الهواءِ أوَّلًا؟»

وضَّح لَها والدُها أهمّيّةَ درجةِ حرارةِ الهواءِ في حِسابِ الطَّريقةِ الّتي تتبدَّلُ بِها درجاتُ الحرارةِ عَلى نطاقِ الكرةِ الأرضيَّةِ، وكيفَ تتمُّ مراقبَتُها. ولأجْلِ ذلِكَ، كانَ عليهِما أنْ يُغامرا بِالخروجِ إلى جهازِ قياسِ الحرارةِ الّذي وُضِعَ في الظِّلِّ.

لَمْ يكنْ مِنَ النَّوعِ المُعتادِ مِنْ أجهزةِ قِياسِ الحرارةِ الّتي قَدْ تجِدُها في المنزلِ. كانَ هذا الجهازُ ذا لونٍ أحمرَ فاقِعًا، يزيدُ ارتفاعُهُ عَلى المترِ. كانتْ هُناكَ سِلسلةٌ مُعقَّدَةٌ مِنَ القِراءاتِ الّتي يتعَيَّنُ تَسجيلُها.

شَرَحَ لها والدُها كيفَ تَفعلُ ذلِكَ، وقامتْ بِتدوينِها في السِّجِلِّ.

«كَمْ عددُ الأشخاصِ الّذينَ يَعملونَ هُنا عادَةً في أيِّ وقتٍ؟» سألتْ إبريل بعدَ الانتهاءِ مِنْ أخذِ القراءاتِ وتوثيقِها في دفترِ القِياساتِ.

«حَسنًا،» قالَ مُقطِّبًا حاجِبَيْهِ وهوَ يُطالعُ القراءاتِ. «يجبُ أنْ يكونَ هُناكَ دائمًا شَخصانِ في الوَرْدِيَّةِ تَحسُّبًا في حالِ حَدَثَ شيءٌ ما لِأحدِهِما. لكنْ كانَ هناكَ نقصٌ في عددِ الموظَّفينَ؛ لِذا سَمحوا لي أنْ آتي بِصحبَتِكِ فقطْ.»

«هلْ تعتقدُ أنَّهُم كانوا يحصلونَ على وقتٍ للرّاحَةِ؟»

«وقتٌ لِلراحَةِ؟» حَدَّقَ والِدُها فيها كأنَّها تحدَّثَتْ للتَّوِّ بِلغَةٍ أجنبيَّةٍ. «لا يوجدُ وقتٌ للرّاحةِ هنا. قِياسُ دَرجاتِ الحرارةِ هوَ عَمَلٌ بِدوامٍ كامِلٍ.»

مَضغتْ إبريل شَفَتَها مُستغرقةً في التّفكيرِ. «إذنْ، لَمْ يكنْ لَدى أيِّ أحَدٍ فرصةٌ لِاسْتكشافِ الجزيرةِ؟»

«ابْنتي العزيزةَ. هلْ هذا ما تُريدينَهُ؟ تُريدينَ مِنّي قَضاءَ مَزيدٍ مِنَ الوقتِ مَعَكِ؟» خَلَعَ نَظّارَتَهُ وَفَرَكَ عَينَيْهِ بِتَعَبٍ.

فوجِئَتْ إبريل عِندما أدركتْ أنَّهُ رُبَّما يشعرُ بِما تشعرُ بِهِ.

«إنَّهُ أمْرٌ صَعْبٌ لِلغايَةِ في وجودِ كُلِّ دَرجاتِ الحرارةِ الّتي يجبُ عَلينا قياسُها. سأكونُ صادِقًا . . . في الواقِعِ يستغرقُ الأمرُ وقتًا أطْوَلَ بِكثيرٍ ممّا تَخيَّلْتُ، خاصَّةً وأنا بِمفردي.»

فتحتْ إبريل فمَها لِتقولَ شَيئًا ما، لكنَّها انتبهَتْ لَحظتَها للتَّشنُّجِ الظّاهِرِ في كَتِفَيْهِ، ولأنَّها لَمْ ترغَبْ في أنْ تزيدَ مِنْ قلقِهِ، قرَّرَتْ أنْ تُخْفِيَ الحقيقةَ قليلًا.

«لا بأْسَ،» قالتْ. «لَمْ أكنْ أقصِدُ ما قلْتُهُ بِهذا الشَّكلِ. أحبُّ استكشافَ الجزيرةِ بِنَفْسي. في الواقعِ، اليومَ . . .»

لوْ كانتْ هُنالِكَ لَحظةٌ مِثاليَّةٌ لِتخبرَهُ عَنْ (دُبّ)، فَستكونُ هذِهِ. لكنِ الآنَ وقدِ استدارَ، وعادَ إلى أجهزَتِهِ، وصارَ يُحَدِّقُ بِها بعُبوسٍ مِنْ جديدٍ، فَماذا عَساها تَقولُ؟ حتّى إنْ *أخبرَتْهُ*، فكيفَ سيكونُ رَدُّ فِعْلِهِ؟ هلْ يستحقُّ الأمرُ المخاطرَةَ؟ لأنَّهُ لَوْ عَلِمَ أنَّ عَلى الجزيرةِ دُبًّا قُطبِيًّا، فَلَنْ يسمحَ لَها بتاتًا بِتكوينِ صَداقَةٍ مَعَهُ.

«أنا سعيدةٌ هُنا.» قالتْ إبريل وقدْ جعلَتْ صوتَها يَبْدو أكثرَ ثِقَةً مِمّا كانتْ تشعُرُ بِها. «سَعيدةٌ *حَقًّا*.»

عادا إلى داخِلَ مَقصورةِ الطّقسِ لِأَخْذِ المجموعةِ التّاليةِ مِنْ دَرجاتِ الحَرارةِ.

احتاجَ هذا الجزءُ مِنَ العملِ إلى مَزيدٍ مِنَ التَّركيزِ، وكانَ عَلى والِدِها أنْ يشرحَ لَها ذلكَ ثلاثَ مَرّاتٍ.

لِلأسِفِ، لَمْ يكُنْ معلِّمًا صَبورًا بِقَدْرٍ كافٍ، ولأنَّ إحْدى الآلاتِ كانتْ بِحاجةٍ إلى انْتِباهِهِ التّامِّ، ولأنَّهُ كانَ مُتوتِّرًا، فقدْ كانَ أقلَّ صَبرًا اليومَ. ومَعَ كُلِّ شَرْحٍ، كانَتْ تجاعيدُ عَينيهِ تَغوصُ عَميقًا وعَميقًا في الإحباطِ، وصارَ واضِحًا لَها أنَّهُ يزدادُ حِدَّةً. لا عَجَبَ. فَقَدْ كانَ عَمَلًا شاقًّا ومتكَرِّرًا.

كُلُّ هذا الجهدِ جَعَلَ عَينَيْها تَدْمَعانِ، وشعرَتْ بِأَنَّ دِماغَها

يكادُ يَنفَجِرُ. كانَ عَلَيها أنْ تَستمِرَّ في تَذكيرِ نَفْسِها بأنَّها تقومُ بِعملٍ مُهِمٍّ جِدًّا.

كانَ والدُها هنا كُلَّ يَومٍ، حَرْفِيًّا لِيَعْصُرَ عَينيهِ؛ لِأنَّ قِياسَ دَرجاتِ الحرارةِ وتَسجيلَها بِدِقَّةٍ كانتْ عمليَّةً مُهِمَّةً لِلغايَةِ، بهذِهِ الطَّريقَةِ يَستطيعُ النّاسُ الحُصولَ على دَليلٍ حَوْلَ الكَيفيَّةِ الّتي تتغيَّرُ بِها دَرجاتُ الحرارةِ في القُطْبِ الشَّماليِّ. في النِّهايةِ، سَتُؤَثِّرُ كُلُّ هذِهِ التَّغييراتِ قَريبًا عَلى كَوكَبِ الأرض بِأسْرِهِ، ومَنْ يَدْري ماذا سيحدُثُ عِندها.

هذا الأمرُ جَعلَها قلِقَةً بِشِدَّةٍ، لكنْ، بينَ حينٍ وآخَرَ، كانتْ لمحَةٌ مِنْ وَجْهِ (دُبّ) تَتَسَلَّلُ إلى ذِهْنِها فجأةً، وتُشَتِّتُ انْتباهَها.

كانتْ قَدْ أخبَرَتْهُ بِأنَّها ستعودُ إليهِ بِالطَّعامِ وبعضِ الكريمِ المُطهِّرِ مِنْ أجلِ كَفِّهِ، ولَمْ ترغَبْ في أنْ تفكِّرَ بِأَنَّها ستَخْذُلُهُ.

ماذا لَوْ كانَ يتألَّمُ؟ ماذا لَوْ شَعَرَ أنَّها كَذَبَتْ عليهِ؟ ماذا لَوْ لَمْ تَرَهُ مَرَّةً أخْرى؟ لَمْ تَقترِبْ حتّى مِنْ مَعرِفَةِ كيفَ انْتَهى بِهِ الأمرُ عالِقًا عَلى الجزيرةِ، وبَرَقَتْ في ذِهْنِها صورَتُهُ لِلَحظاتٍ، بِعينيْهِ الوَحيدَتَينِ الحَزينتَينِ، ورأسِهِ المُطَأْطَئِ بِيَأْسٍ.

كانتْ مُجَرَّدَ فِكرةٍ، لكنَّها كانتْ قَوِيَّةً بِما يَكفي لِتَجْعَلَ أصابِعَها تَرتجِفُ، وانْتَهى الأمْرُ بِدَفتَرِ التَّسجيلِ الأحمَرِ الّذي

كانتْ تَحملُهُ بِالسّقوطِ مِنْ يَدَيها عَلى الأرضِ مَقلوبًا. ولِلأَسَفِ، سَقطَ مَقلوبًا عَلى بُقْعَةٍ مِنَ الشّايِ سَكَبَها أبوها مِنْ قَبْلُ.

«أوه. لا!» تَمْتَمَتْ، وحاوَلَتْ مَسْحَ الشّايِ مِنْ عَلى صَفحاتِ الكِتابِ، لكنَّ البقعَةَ انتشَرَتْ عَلى كُلِّ الصَّفحةِ، وجعلَ ذلكَ الأمرَ أسْوَأَ.

اندفَعَ أبوها نَحوَها، وحدَّقَ فيها بِرُعْبٍ.

كانتْ هُناكَ حِدَّةٌ في نَظرتِهِ جَعَلَتْها ترغَبُ في أنْ تنكَمِشَ داخِلَ نفسِها، وتختبِئَ. أخَذَ منْها السِّجِلَ، وبِفَزَعٍ حَدَّقَ كِلاهما في الصَّفْحَةِ التّالِفَةِ.

كانتْ تلكَ هِيَ اللَّحظَةَ الّتي فَقَدَ فيها أعصابَهُ، أخيرًا.

«ماذا فعَلْتِ؟» صَرَخَ. «كنتُ أعرِفُ أنَّهُ لا يَنْبَغي لي أنْ أثِقَ بِكِ. أنتِ صغيرةٌ جِدًّا لِهذا النّوعِ مِنَ العَمَلِ. أيَّتُها الفتاةُ الخَرقاءُ البَلهاءُ!»

بمجرَّدِ أنِ انْفَجَرَ غضَبُهُ، خَيَّمَ صَمْتٌ رهيبٌ عَلى المقصورةِ، وانتابَ إبريل إحساسٌ غَريبٌ بِأنَّها تَتَهاوى.

لَمْ يكُنْ هُناكَ شيءٌ سِوى طَقطقةِ الآلاتِ وطَنْطَنَتِها، وهواءٍ مُشَبَّعٍ بِرائحةٍ نَتِنَةٍ لِنَدَمٍ قديمٍ يجثِمُ ثَقيلًا في الغرفةِ.

«إبريل!» خَطا والدُها خُطوةً نَحْوَها، وشعورٌ بِالذَّنبِ يمتَدُّ في كُلِّ خَطٍّ مِنْ خُطوطِ وجهِهِ.

لكنَّ أوانَ ذلِكَ كانَ قَدْ فاتَ.

دونَ أنْ تنظُرَ إلى الوراءِ، ركَضَتْ إبريل وخرجَتْ مِنَ البابِ، التقطَتْ حقيبةَ ظَهرِها، ثُمَّ انطلقتْ مُسرعةً إلى خليجِ (والْروس).

الفصلُ الثّاني عشرَ

مشاركةُ سرّ

عندَما وصلَتْ إبريل إلى خليجِ (والْروس)، كانَ أَلَمُها قدْ زالَ تقريبًا. بعضُهُ تَبَخَّرَ في ضَبابِ البحرِ بَينَما تَلاشى الباقي منه تحت وطء حذائها المطاطي.

كانَ للجزيرةِ طريقةٌ في جَعْلِ الأمورِ تَبدو أقَلَّ أهمِّيَّةً، وَخِلالَ الأسبوعِ الماضي، كشفَتِ الشّمسُ بِلُطفٍ عَنْ نَباتاتِ الجَوْلَقِ مُختبِئَةً تحتَ الثَّلجِ الذّائبِ.

حَلَّقَ سِرْبٌ مِنْ طُيورِ النَّوْرَسِ فوقَ إبريل عابِرًا السَّماءَ عَلى شكلِ قوسٍ كبيرٍ.

شيءٌ ما في الطّريقةِ الّتي تجمَّعَتْ بِها النّوارسُ جعلَ إبريل تَتوقُ فجأةً وبِشِدَّةٍ لِلحديثِ مَعَ شَخْصٍ ما. شَخْصٍ يفهمُ حقًّا عُزلَةَ الجزيرةِ، وهذا الجزءَ الغامِضَ مِنَ العالَمِ.

كانَ تور هوَ الشَّخْصُ الوحيدُ الّذي خطرَ بِبالِها. لكنَّ فِكرةَ العودةِ إلى المَقصورةِ، واستخدامِ هاتفِ الأقمارِ الاصطناعِيَّةِ ومواجهةِ والدِها كانتْ فوقَ طاقَتِها.

قالتْ لِنفسِها إنَّهُ لَمْ يكنْ يقصِدُ ذلِكَ.

كانتْ تعرِفُ أنَّ معظمَ النّاسِ لا يقصِدونَ الأشياءَ الّتي يقولونَها عندَما يصرخونَ، إلى جانبِ ذلكَ، فإنَّهُ لابُدَّ مِنْ وَقوعِ شِجارٍ عندَما يُحبَسُ الأشخاصُ في مكانٍ صَغيرٍ كَهذا.

رُبَّما تبلغُ مساحةُ جزيرةِ الدُبِّ تِسعةً وستّينَ ميلًا مُربَّعًا، لكنَّها في الوقتِ نفسِهِ، قدْ تكونُ بِمساحَةِ المُقصورتينِ فقطْ إذا ما أخَذْنا بِعينِ الاعتبارِ المساحةَ الّتي اسْتكشَفَها والدُها خارِجَهُما.

ستسامِحُهُ؛ لأنَّ هذا ما تفعلُهُ دائمًا. وما البديلُ؟ فهيَ لا تملِكُ خَيارَ مُغادرةِ الجزيرةِ.

وهكَذا وصلَتْ إلى خليجِ (والْروس)، لكنَّها لَمْ تكنْ بِطبيعَتِها المشرقةِ تَمامًا. وبينَما كانتْ تَتساءلُ حَوْلَ كَمْ مِنَ الوقتِ ستنتظرُ اليومَ، وكيفَ هيَ حالَةُ كفِّ (دُبّ)، سمعتْ صوتَ طرطَشَةٍ عاليةٍ.

استدارتْ، وهناكَ، قافِزًا مِنْ قلبِ البحرِ، نافِضًا قطراتِ الماءِ في كُلِّ مكانٍ وهوَ يركُضُ عَبْرَ الشّاطئِ مباشرةً في اتِّجاهِها. كانَ (دُبّ). دفعَتْها حَيويَّتُهُ والطَّريقةُ الّتي وَثَبَ بِها فوقَ الرِّمالِ بِفَرَحٍ خالِصٍ وجامِحٍ لِلرَّكْضِ هيَ أيضًا، وهكذا انطلَقَ الاثْنانِ بِسرعةٍ عَبْرَ الشّاطئِ نحوَ بعضِهِما بعضًا.

«(دُبّ)!»

لَمْ يتوقَّفا حتّى صارا عَلى بُعْدِ نَحْوِ مِتْرٍ ونصفِ المترِ مِنْ بعضِهِما بعضًا. شعرَتْ إبريل بِالتَّوجُّسِ، فهُنا يقِفُ أمامَها دُبٌّ



قُطبِيٌّ كامِلُ النُّمُوِّ، ورُبَّما خطيرٌ جِدًّا، وفي الوقتِ نفسِهِ كانتْ مُحتارَةً قَليلًا حِيالَ ما ينبَغي أنْ يحدُثَ بعدَ ذلكَ. ما آدابُ السّلوكِ هُنا؟ ليسَ بِمقدورِهِما أنْ يتَصافَحا أو يتَعانَقا، أو أنْ يُقَبِّلَ كُلٌّ مِنْهما خَدَّ الآخَرِ عَلى الطَّريقةِ الفرنسِيَّةِ. وفيما هيَ ما زالَتْ تُقَلِّبُ الأمر في رأسِها، انتصَبَ (دُبّ) عالِيًا نحوَ السَّماءِ، ووقَفَ عَلى قدمَيْهِ الخلفِيَّتينِ، وأطلَقَ زئيرًا قوِيًّا يُمزِّقُ الآذانَ وَيَصُمُّها.

ومِنْ دونِ أنْ تتوقَّفَ حتّى للتَّفكيرِ في الأمرِ، فتحتْ إبريل فَمَها أيضًا، وزَأَرَتْ بِأعلى صوتٍ استطاعَتْهُ. صحيحٌ أنَّهُ لَمْ يكنْ زئيرًا راعِدًا كَزئيرِ (دُبّ)، لكنَّ هذا لَمْ يكنْ مهِمًّا. ولا بِمقدارِ ذَرَّةٍ. ففي تلكَ اللَّحظةِ كانَ بِمقدورِها أنْ تَنْسى بسهولَةٍ كُلَّ شيءٍ آخَرَ في العالَمِ بِأسْرِهِ.

ومعَ الزَّئيرِ، اخْتَفى آخِرُ جُزءٍ مُتبَقٍ مِنَ الألمِ في نَفْخَةٍ مِنَ السِّحْرِ.

إذًا، *فَتِلْكَ* كانتِ الطَّريقَةُ الّتي تُحَيّي بِها دُبًّا قُطْبِيًّا.



عادَ للوقوفِ عَلى قوائمِهِ الأربعِ، ونَفَضَ كُلَّ قَطراتِ الماءِ الأخيرةِ المُتبقِّيَةِ عنْ معطفِهِ الأبيضِ، فَتناثرَتْ عَلى مياهِ البحرِ والرَّملِ والحصى في كُلِّ مكانٍ، لكنْ في الغالبِ عَلى إبريل.

مَسَحتْ إبريل وجهَها بِقُفّازِها، وعندَما تمكَّنَتْ أخيرًا مِنَ الرُّؤيةِ مَرَّةً أخْرى كادتْ تُقْسِمُ بأنَّ (دُبّ) كانَ يبتسمُ.

«مَرحبًا يا صَديقي.»

واقِفةً عَلى مَسافةٍ قريبةٍ جِدًّا مِنْهُ رأتْ إبريل مِنْ جديدٍ نُحولَ جَسَدِهِ البائِسِ، وفروَهُ الباهِتَ المُتَلَبِّدَ الّذي لَمْ يعُدْ ناصِعَ البياضِ. وكفوفَهُ الّتي استحالَ لونُها إلى صُفْرَةٍ خفيفةٍ كَلَوْنِ أسنانِهِ. وعينَيْهِ اللّتينِ كانَتا بِلَوْنِ الشّوكولاتَةِ الدّاكِنةِ المُطابِقِ لِلَوْنِ شَعْرِها. وأذنَيْهِ المُستديرَتَينِ المَكْسُوَّتينِ بِالزَّغَبِ، واللّتينِ رُبَّما كانَتا أكثرَ أجزاءِ جِسمِهِ جاذِبِيَّةً، وهُما تَرقُصانِ شَقاوةً وحياةً. وشارِبَيْهِ الأسوَدَيْنِ اللّذينِ دَغْدَغا وَجْهَها عندَما انْحَنى إلى الأمامِ، وجَعَلاها تُكَرْكِرُ. ثُمَّ أخيرًا رأتْ أنفَهُ، الأسودَ الفاحِمَ، الّذي عندَما لامَسَ وجهَها، وشَمَّها كَما تفعلُ الحَيواناتُ، كانَ بارِدًا ورَطْبًا، وجعَلَها تضحَكُ بِصوتٍ عالٍ.

«ياه، أنتَ لَسْتَ مُخيفًا عَلى الإطلاقِ!» قالتْ مُتعجِّبَةً. «ونعمْ، *أعرِفُ* ما تريدُ. لقدْ أحضَرْتُ بعضَ زُبدةِ الفولِ السّودانيِّ.

لكنْ أوَّلًا، أوَدُّ أنْ ألقِيَ نظرةً عَلى كفِّكَ، أرجوكَ؟»

على الرَّغمِ مِنْ أنَّها كانتْ قدْ عاينَتْهُ بِالأمسِ، فإنَّ إبريل لَمْ تكُنْ لِتفترضَ بِأنَّهُ سَيَدَعُها تُعايِنُهُ اليومَ. يجبُ مُعاملَةُ حَيوانٍ مِثْلِ (دُبّ) بِاحترامٍ في كُلِّ الأوقاتِ. فقطْ عندَما تأكَّدَتْ مِنْ تَقَبُّلِهِ لِلمعايَنَةِ، انحنَتْ بِلُطْفٍ عندَ أقدامِهِ.

«والآنَ، اجلِسْ بهدوءٍ مِنْ أجلي. لنْ يستغرِقَ الأمرُ وقتًا طويلًا.»

بَدتْ كَفُّهُ أقلَّ تورُّمًا اليومَ، لكنَّها كانَت ما تزالُ مُغَطّاةً بِخدوشٍ حَمراءَ مُلتهِبَةٍ حيثُ انغَرَزَ البلاستيكُ في الجِلْدِ. ولأنَّها كانَتْ ضَخمةً لِلغايَةِ؛ فقدْ تعيَّنَ عَليها استخدامُ أنبوبِ الكريمِ المُطهِّرِ بِالكامِلِ؛ لِتتأكَّدَ مِنْ أنَّها غَطَّتْ كُلَّ المنطقةِ المُتَضرِّرَةِ.

«هذا كُلُّ شيءٍ. سأضَعُ المَزيدَ عليها في الغَدِ، لكنَّني أعتقِدُ أنَّكَ ستكونُ بِخيرٍ الآنَ.»

تنفَّسَتِ الصُّعَداءَ، وجلسَتْ عَلى رِدْفَيْها. عندَما كانَ والِدُها يتحدَّثُ عنِ الوظائفِ الّتي بإمكانِها القِيامُ بِها عندَما تكبرُ، كانَ عادةً ما يقترحُ عليها أنْ تصبحَ طبيبةً بيطرِيَّةً. لكنَّها في حقيقةِ الأمرِ، لَمْ تكنْ لتتصَوَّرُ نفسَها شَخْصًا قادرًا على قَتْلِ الحيواناتِ المريضةِ الميؤوسِ مِنْ تَعافيها.

«لِذا، فإنَّ إنقاذَكَ سَيَفي بِالغَرَضِ،» قالتْ إبريل. «والآنَ، مَنْ يرغَبُ بِقليلٍ مِنْ زبدةِ الفولِ السّودانيِّ؟!»

شَخَرَ (دُبّ) وَنَخَرَ، ودفعَ كَتِفَها برفْقٍ بِنفادِ صَبْرٍ.

«انتظرْ! أحتاجُ أنْ أعِدَّ المائدةَ أوَّلًا.»

أخرجتْ إبريل بطانيَّةً مِنْ حقيبةِ ظهرِها وفردَتْها على الأرضِ بجانبِ القاربِ المقلوبِ، حيثُ كانتِ الرّياحُ أقلَّ شِدَّةٍ، ثُمَّ وضعتْ علَيها برطمانَ زبدةِ الفولِ السّودانيِّ، وبسكويتَ الشّوفانِ وبعضَ الزَّبيبِ المجَفَّفِ في الوسطِ. لَمْ تَبْدُ السُّفرَةُ وكأنَّهُما في نزهةٍ، خاصَّةً بِالنِّسبةِ لدُبٍّ قُطبِيٍّ جائعٍ، لكنَّها بدتْ جميلةً، وتَفي بِالغرضِ.

حينَ أدركَ أنَّ الطَّعامَ صارَ جاهِزًا، جلسَ (دُبّ) عَلى حَصى الشّاطئِ البارِدِ في حينِ جلستْ إبريل على البَطّانيَّةِ، واستدارتْ لِتكونَ أمامَهُ وجهًا لِوجْهٍ.

هلْ كانتْ كبيرةً على النُّزهاتِ؟ هُراءٌ. لَمْ تذهبْ مِنْ قَبْلُ حتّى للنَّومِ عندَ صديقةٍ لها خارجَ المنزلِ، ناهيكَ عنِ الانتماءِ إلى شِلَّةٍ مِنَ الأصدقاءِ المقرَّبينَ. وهكذا قرَّرتْ وهيَ تُقَرْمِشُ بَسكوتةَ الشّوفانِ بِصوتٍ عالٍ ومُرْضٍ، أنْ تعوِّضَ ما فاتها.

«أعلَمُ أنَّكَ تنتظرُ!» قالتْ. «اصبِرْ قليلًا.»

ونظرًا لأنَّ (دُبّ) لا يَستطيعُ استخدامَ السِّكّينِ، دهنتْ إبريل بسكوتةَ شوفانٍ بطبقةٍ سميكةٍ مِنْ زبدةِ الفولِ السّودانيِّ، ووضعَتْها بجانبِ كفِّهِ. وقبلَ حتّى أنْ يَتَسَنّى لها أنْ تسحبَ يدَها، كانَ قدِ ابتلعَ البسكوتةَ. الْتَهَمَ بسكوتَ الشّوفانِ بسرعةٍ، بسرعةٍ بالغَةٍ، لدرجةِ أنّها لَمْ تعتقِدْ أنَّهُ مَضَغَها - اختفَتْ داخِلَ حلقِهِ فقطْ. في النِّهايةِ، أعطَتْهُ علبةً كاملةً، وأكَلَها أيضًا، بِما في ذلكَ ورقُ الصّندوقِ المُقَوّى.

«ما زلتَ جائعًا؟»

دفعتْ نحوَهُ بَرطمانَ زبدةِ الفولِ السّودانيِّ نصفَ الممتلئِ على البَطّانيَّةِ، ولثانيةٍ ظنَّتْ أنَّهُ سيبتلعُ كلَّ شيءٍ، البرطمانَ الزّجاجيَّ بِما فيهِ. لكنَّهُ توقَّفَ في اللَّحظةِ الأخيرةِ، وعِوَضًا عنْ ذلِكَ استخدمَ لِسانَهُ الورديَّ الطَّويلَ لِيَلْعَقَ كلَّ ما تبقّى مِنْ زبدةِ الفولِ السّودانيِّ.

«عَلَيَّ أنْ أحضِرَ مَزيدًا مِنَ الطَّعامِ في المرَّةِ المقبلةِ.» علَّقتْ قائلةً، وهيَ تسترجعُ في ذِهنِها صورةَ غرفةِ المُؤَنِ وَمقدارَ الطَّعامِ المُخَزَّنِ فيها بِالفِعْلِ. «أنا متأكِّدَةٌ مِنْ أنَّ أبي لنْ يُلاحِظَ. هوَ حتّى لا يحِبُّ زبدةَ الفولِ السّودانيِّ عَلى أيَّةِ حالٍ. أعرِفُ! إنَّهُ مختلفٌ عَنّي وعَنْكَ. إنَّهُ في الحقيقةِ مَختلفٌ قَليلًا عنِ

الجميعِ، لكنَّ الأمرَ ليسَ بيدِهِ.»

أمسكَ (دُبّ) بالجَرَّةِ الفارغَةِ بِكَفَّيْهِ، كانَ مشغولًا بالعثورِ على المزيدِ مِنَ الطَّعامِ، وعندَما لَمْ يجدْ شيئًا، رفَعَ عينَيْهِ، وتفَحَّصَ إبريل بِحَيْرَةٍ.

حديثُها عنْ والدِها جعلَها تتذَكَّرُ كيفَ صرخَ فيها. لمْ تتذكَّرْ هذا بِأَلَمٍ، فقدْ ذهبَ كُلُّ ذلكِ، لكنَّها تذكَّرَتْهُ بشيءٍ مِنَ الحزنِ.

«كلُّ ما في الأمرِ هوَ أنَّني أعلمُ أنَّهُ لمْ يكنْ غاضِبًا منّي. ليسَ في أعماقِ نفسِهِ على أيِّ حالٍ. إنَّهُ تحتَ ضغطٍ بِسببِ هذهِ الوظيفةِ، لكنَّ الأمرَ ليسَ هذا أيضًا.»

نظرتْ إلى الأعلى. تعلَّقَ انْتباهُ (دُبّ) عَلى شيءٍ ما في البحرِ، لكنَّ معرفَتَها بأنَّهُ لا ينظرُ إلَيها سَهَّلَ عَليها التَّحدُّثَ بِطريقةٍ ما.

«هلْ تعرفُ السَّببَ الحقيقيَّ الّذي جعلَهُ يغضبُ؟ السَّببُ هُوَ مرورُ سبعةِ أعوامٍ منذُ أنْ ماتَتْ أمّي، لكنَّ الأمرَ كَما لَوْ أنَّهُ حَدَثَ بالأمسِ.»

تتبَّعَتْ إبريل نظراتِ (دُبّ) إلى حيثُ كانتِ الأمواجُ ترتَطِمُ بِالشّاطئِ، وتتكسَّرُ فوقَهُ في هديرٍ عنيفٍ غاضِبٍ.

سبعُ سنواتٍ وما زالَ والدُها غاضِبًا؛ لأنَّ عاطفةً كانتْ لا تزالُ

كامِنَةً فيهِ، عاطفةً كبيرةً شاسِعَةً، وبِلا قرارٍ، كانَ لابُدَّ لَها أنْ تخرُجَ عَلى صورٍ مختلفَةٍ.

كانَ والدها غاضِبًا لأنَّهُ افتقَدَ زَوجتَهُ، ومَعَ أنَّ الجدَّةَ (أبلز) اعتقَدَتْ أنَّهُ يفعلُ ذلِكَ بِمَحْضِ إرادَتِهِ، وأنّه لا بُدَّ قدْ تَجاوزَ هذِهِ المرحلَةَ بَعدَ كُلِّ هذا الوقتِ، لكنَّهُ لَمْ يفعلْ.

استدارتْ إبريل إلى (دُبّ) لِتَجدَهُ يُحدِّقُ فيها. «وأحيانًا . . .» قالتْ هامِسَةً: «أحيانًا لا أعتقدُ أنَّهُ سيتجاوزُ ذلِكَ أبدًا»

أطرَقَ (دُبّ) رأسَهُ، بِتناغُمٍ مَعَ التَّغيُّراتِ في نبرَةِ صوتِها كَما لَوْ أنَّهُ شَعَرَ أنَّ لَديْها شيئًا مُهِمًّا لِتقولَهُ.

«أتمّنى . . .» بدأتِ الكلامَ، لكنَّها بعدَ ذلِكَ توقَّفَتْ، وسحبَتْ خيطًا مَفكوكًا في قُفّازِها. «أتمَنّى . . . أتمَنّى أنْ يلتَقِيَ بزوجَةٍ جديدةٍ،» قالتْ أخيرًا. «أعلَمُ أنَّهُ مِنَ السَّيِّءِ أنْ أقولَ ذلِكَ؛ لأنّي كانَ لَدَيَّ أُمّي. بِصراحَةٍ، لا أستطيعُ أنْ أتذكَّرَ كَثيرًا عنْها سِوى أنَّها كانتْ مصنوعَةً مِنْ أقواسِ قُزَحَ. لكنَّ الحقيقةَ هيَ أنَّها لَمْ تَعُدْ هُنا، وأظنُّ أنَّ أبي وَحيدٌ، وسَيُساعِدُهُ أنْ يُقابِلَ شَخْصًا جديدًا. شَخْصًا لطيفًا بالطَّبعِ. ليسَ أقواسَ قُزَحَ - ليسَ مِنَ المُمكِنِ أنْ يُصنَعَ الجميعُ مِنْ أقواسِ القُزَحِ - لكنْ، شَخْصًا لطيفًا مثلَها.»

زعَقَ طيرُ نورَسٍ بِصوتٍ عالٍ فوقَ رأسِها، وتجَرَّأَتْ أخيرًا على النَّظَرِ إلى الأعلى. لَمْ يسبِقْ أنْ قالتْ أيًّا مِنْ هذا الكلامِ بِصوتٍ عالٍ مِنْ قَبْلُ. هلْ سيخيبُ ظَنُّ (دُبّ) فيها؟ لَمْ يَستطِعْ فَهْمَ ما قالتْهُ بِالضَّبطِ، لكنْ بَدا لإبريل أنَّهُ لَمْ يكُنْ غاضِبًا. حتّى إنَّ عينَيْهِ كانَتا أَلْيَنَ، مِثْلَ الشّوكولاتَةِ اللَّزِجَةِ الّتي نَجِدُها في وسطِ كعكةِ البِراوني السّاخنةِ، وعلى وجهِهِ ذلِكَ النّوعُ مِنَ التّعبيرِ الّذي يُشجِّعُها عَلى الكلامِ، عَلى أنْ تُشاركَهُ أسرارَها، وتحرِّرَ نَفْسَها مِنَ العِبْءِ.

أخذَتْ نَفَسًا عميقًا.

«نعمْ . . . هُناكَ شيءٌ لا أقولُهُ،» سحبَتِ الخيطَ فَخرجَ في يدِها قَبلَ أنْ يدورَ مُبتعِدًا في الرّيحِ. «أنتَ تَرى أشياءَ، أَلَيْسَ كذلكَ يا (دُبّ)؟ تَرى أشياءَ لا تُقالُ بِالكلماتِ. أنا كذلِكَ قليلًا. أعتقِدُ أنَّ هذا يأتي مِنْ قضاءِ كثيرٍ مِنَ الوقتِ بِمفرَدِكَ؛ لِذا، نعمْ، الأمْرُ لا يَخُصُّ والِدي فقطْ.» ابْتلعَتْ ريقَها. «الأمرُ يَعنيني أنا أيضًا. أنا . . . *أنا* لَنْ أُمانِعَ بِوجودِ أُمٍّ جديدةٍ. شَخْصٌ يَجعلُ المنزلَ دافِئًا عندَما أعودُ مِنَ المدرسةِ، شَخْصٌ يَسألُني جميعَ أنواعِ الأسئلةِ حَوْلَ يومي، ورُبَّما يأخذُني إلى مُصفِّفَةِ شَعْرٍ جيِّدةٍ مِنْ حينٍ لِآخرَ.»

في أثناءِ الصَّمتِ الّذي تَلا، تَحَطَّمَ البحرُ عَلى الشّاطئِ، وهَمْهَمَتِ الجزيرةُ عَلى وَقْعِ تيّارِها واختفَتِ الشّمسُ، ثُمَّ عادَتْ لِلظّهورِ مِنْ خلفِ سَحابةٍ.

سحبَتْ إبريل رُكْبَتَيْها إلى صدرِها؛ لِتُخَبِّئَ قَلبَها الطَّرِيَّ النَابضَ، ثُمَّ ضَغطَتْ وجهَها عَلى رُكْبتَيْها.

لقدْ قالَتْ أكثرَ مِمّا يَجِبُ.

لَمْ تقصِدْ ذلِكَ. تصاعَدَتِ الكَلماتُ خارِجَةً مِنْها. والآنَ لَمْ تَعُدْ قادرَةً عَلى استعادَتِها. كانَتْ قَدْ طَوَّحَتْها الرّياحُ بَعيدًا، وصارَتْ في مكانٍ ما هُناكَ. وستكونُ هُناكَ إلى الأبَدِ الآنَ. ماذا لَوْ وَصلَتْ إلى المقصورَةِ؟ ماذا لَوْ حَدَثَ *ذلِكَ*؟ ماذا لَوْ - زَحَفَتْ أنفاسُها مَحمومَةً عَلى قَفَصِها الصَّدريِّ - ماذا لَو كانَ والدُها قَدْ سمعَها؟ لنْ تكونَ قادرَةً عَلى مسامحَةِ نفسِها أبَدًا لَوْ أنَّها جَرَحَتْهُ بِكلماتِها.

جلْجَلَتْ مِثْلُ هذِهِ الأفكارِ المُرَوِّعَةِ في ذِهنِها، فشعرَتْ بِالدَّورانِ الشَّنيعِ في بَطنِها أسوَأَ مِنْ أيِّ مَرَّةٍ شعرَتْ بِهِ خِلالَ امْتحاناتِها، أسوَأَ مِنَ المَرَّةِ الّتي ضَحكَتِ الفُتياتُ عَليها في المدرسةِ، وَأَسوأَ حتّى مِنَ المَرَّةِ الّتي رأتْ فيها قطَّةً ميِّتَةً عَلى الطّريقِ.

فَرَكَتْ إبريل عينَيْها، ومِنْ دونِ أنْ تُدرِكَ أنَّها تفعلُ ذلِكَ، وجدَتْ نفسَها تَتَّكِئُ على فِراءِ (دُبّ) النّاعِمِ.

تَحَرَّكَ (دُبّ) قَليلًا عندَ حَرَكَتِها تِلكَ، لكنَّهُ لَمْ يبتعِدْ، وهكَذا أسندَتْ خَدَّها إلى كَتِفِهِ وتَرَكَتْهُ يَرتاحُ بِلطْفٍ عليهِ.



الفصلُ الثّالثَ عشرَ

لا مَدرسةَ بعدَ اليومِ

عندَما أُتيحَتْ لِإبريل فُرصةٌ لِتفكِّرَ في الأمرِ، أدركَتْ أنَّ (دُبّ) رُبَّما لَمْ يفهمْ ما قالَتْهُ. ليسَ *التَّفاصيلُ* على أيِّ حالٍ. لكنْ في بعضِ الأحيانِ - ورُبَّما في أغلبِ الأحيانِ - التّفاصيلُ غيرُ مهمَّةٍ. الشُّعورُ الكامِنُ وراءَها هوَ المُهِمُّ.

في تلكَ اللَّحظةِ بَدا أنَّ (دُبّ) كانَ قَدْ شَعَرَ بِشيءٍ ما حِيالَها، بِالطَّريقةِ الّتي تكونُ بِها الحيواناتُ خارِقَةً في اسْتِشعارِ الأشياءِ

الّتي يعجَزُ البشرُ عَنْ رؤيَتِها. أَلَمْ تقرأْ عنْ معرفَةِ القِططِ بِموعِدِ قُدومِ عاصفةٍ؟ أوْ كيفَ تشعُرُ الخَيلُ بِخوفِكَ؟ أوِ الكلابُ الّتي تستطيعُ قراءةَ عواطفِكَ مِنْ تعبيرٍ واحدٍ على وجهِكَ فقطْ؟ الحيواناتُ ذكِيَّةٌ هكذا. ليسَ ذكاءً أكاديميًّا - فهيَ لَمْ تجتَزْ أيَّ امتحانٍ. لكنَّها تقرأُ العالَمَ - والنَاسَ الّذينَ يعيشونَ فيهِ - بِطريقةٍ مختلفةٍ.

إنَّها تقرأُ العالَمَ بِمشاعرِها.

وإبريل عرفَتْ لِلتَّوِّ أنَّ (دُبّ) كانَ قَدْ قرأَ مشاعِرَها بِشكلٍ مِثاليٍّ. بِطريقةٍ لَمْ يكنْ بِمقدورِ والدِها أنْ يقرأَها منذُ سَنواتٍ. أفضلَ حتّى مِنَ الجَدَّةِ (أبلز) الّتي، رغمَ نِيَّتِها الطِّيّبةِ، وطريقَتِها الخَرقاءِ بعضَ الشَّيْءِ، كانتْ تُسيءُ الفَهمَ أحيانًا.

عندَما طوَّقَتِ الشَّمسُ الجزيرةَ بِطيفِ نورِها المِشْمِشيِّ الدّافئِ، أسرعَتْ إبريل عائدةً إلى البيتِ. لَمْ يكنْ هُناكَ أيُّ عَلامةٍ عَلى الحياةِ داخلَ المقصورةِ عَدا جذوةِ النّارِ المُتَوَهِّجَةِ والصَّمْتِ الّذي بَدا ثقيلًا وغليظًا.

هل كانَ والدُها نائمًا؟

توقَّفتْ عندَ بابِ غرفةِ نومِهِ، يَدُها تتحرَّكُ بِعصبِيَّةٍ فوقَ المَقْبضِ، لكنَّها لَمْ تكنْ شُجاعَةً بِما يَكْفي للدُّخولِ. بَدلًا مِنْ

ذلِكَ، مَشَتْ عَلى رؤوسِ أصابعِ قَدَميها إلى داخلِ غُرفتِها بِهدوءٍ، وأغلَقَتِ البابَ خلفَها. وما إنْ وَصلَتْ إلى السَّريرِ حتّى انتبهَتْ لإبريقِ الشّاي عَلى الأرضِ.

«أوه.»

التقطَتْهُ مِنْ عَلى الأرضِ، وكشفتِ الغطاءَ. صعدتْ رائحةُ الشّوكولاتَةِ السّاخنةِ مِنْ داخلِهِ مثلَ حَيوان (يونيكورن) يَرْكُضُ. ورغمَ أنَّها كانتْ باردةً، فإنَّ إبريل شربَتْها مباشرةً مِنْ فُوَّهةِ الإبريقِ حتّى آخرَ قطرةٍ مِنْها.

في تلكَ اللَّيلةِ نَعِمَتْ إبريل بأفضلِ وأعمقِ وألطفِ نَوْمَةٍ مُنذُ وصولِها.

في الصَّباحِ - أو أنَّها اعتقدتْ أنَّ الوقتَ كانَ صَباحًا؛ لأنَّهُ كانَ مِنَ الصّعبِ عَليها مَعرفةُ ذلكَ في غِيابِ لَيلٍ يَكسِرُ ضَوءَ النَّهارِ - تَمدَّدتْ إبريل عَلى السَّريرِ، وشدَّتِ الغطاءَ فوقَها حتّى أنفِها. وعَلى الرّغمِ مِنْ أنَّها اعتادَتْ عَلى البَرْدِ، فإنَّ الصَّباحَ كانَ ما يزالُ الأسوَأَ، وبدلًا مِنْ أنْ تنهضَ، ارتجفَتْ تحتَ الأغطيَةِ، ورسمَتْ نِقاطًا متَّصلَةً في الهواءِ؛ لِتفهَمَ كيفَ انْتهى الأمْرُ بِدُبٍّ قُطبيٍّ عَلى جزيرةِ الدُّبّ، لكنْ مِنْ دونِ أنْ يلاحظَهُ أحَدٌ عَلى الإطلاقِ.

حتّى الآنّ خلَصَتْ إلى التّالي:

- مِنْ حديثِها مَعَ والدِها، كانَ مِنَ الواضِحِ أنَّ خُبراءَ الأرصادِ الجَوّيّةِ السّابقينَ لَمْ يكنْ لَديهِم الوقتُ الكافي لاسْتكشافِ الجزيرةِ.
- وبهذِهِ الطّريقةِ، كانَ مِنَ السَّهْلِ نِسْبِيًّا عَلى (دُبّ) أنْ يَبْقى على الجانبِ البعيدِ مِنَ الجزيرةِ مِنْ دونِ أنْ يراهُ أحَدٌ.
- لا بُدَّ أنَّهُ رأى بَشَرًا مِنْ قَبْلُ لكنْ مِنْ مَسافةٍ بعيدةٍ فَقطْ.
- على الرَّغمِ مِنْ أنَّهُ بَدا مكتَمِلَ النُّمُوِّ، فإنَّهُ ما زالَ هُناكَ شيءٌ غَضٌّ حِيالَهُ. تَعيشُ الدِّببَةُ القُطْبيَّةُ قُرابَةَ العِشرينَ عامًا. إذنْ، رُبَّما كانَ في مِثْلِ سِنِّها تَقريبًا، أو أصغرَ مِنْها؟
- لكنَّها ما زالتْ لا تعرفُ كَمْ مِنَ الوقتِ قَضاهُ هُنا.
- وإذا كانَتِ الأغْطِيَةُ الجَليديَّةُ حَولَ جزيرةِ الدُّبِّ قَدْ ذابَتْ، فكيفَ وَصلَ إلى هُنا إذنْ؟

كانَ هُناكَ شيءٌ واحدٌ فقطْ لِتفعَلَهُ، وهوَ أنْ تعثُرَ عَلى الإجابةِ. لَمْ تكنْ تعرِفُ كيفَ، ولَمْ تكنْ تعرِفُ مَتى، لكنَّها ستصِلُ إلى حقيقةِ الأمْرِ.

لكنَّها أوَّلًا - أَرْخَتْ أُذنَيها لِتسمَعَ إنْ كانَ هُناكَ أيُّ صوتٍ لِنغمةٍ موسيقيَّةٍ - لقدْ حانَ الوقتُ للنّهوضِ مِنَ السَّريرِ.

قفزَتْ مِنَ السَّريرِ بِابتسامةٍ مُشرقةٍ، وارتَدَتْ مَلابسَها على عَجَلٍ.

تغيَّرَ الطَّقسُ بسرعةٍ هُنا، وكانَ لِهذا عَلاقَةٌ بِتعرُّضِ الجزيرةِ لِثلاثِ جَبَهاتٍ جَوّيّةٍ مُختلفةٍ، لكنَّ شيئًا واحدًا كانَ مؤكَّدًا: كانَ الجَوُّ باردًا عَلى الدَّوامِ. وبمجرَّدِ أنِ ارتدَتْ كُلَّ طَبقاتِ مَلابِسِها، وصارَتْ بِحجمِها مَرَّتينِ تَقريبًا، خرجَتْ مُتهادِيَةً نحوَ غرفةِ المعيشةِ.

جيِّدٌ. لَمْ يكنْ والدُها قدِ استيقَظَ بَعْدُ. كانتِ الحرارةُ داخِلَ المقصورةِ عُرضَةً لِأنْ تُصبحَ قارسَةَ البُرودةِ مِثْلَ الخارجِ؛ لِذا كانا بِحاجَةٍ إلى النّارِ دائمًا.

كانتْ تِلكَ مهمَّةُ والدِها عادَةً، لكنْ نَظرًا لِكونِها ذاتَ طَبيعةٍ عمليَّةٍ، فَكثيرًا ما أشعَلَتِ النّارَ في منزلِهما، وهكذا، جعلَتِ اللَّهَبَ يَتراقصُ في المِدفأةِ هذا الصَّباحِ. ثُمَّ ضغطتْ عَلى غلّايةِ الماءِ الكَهربائيَّةِ، وغسلَتْ كوبَ والدِها، وأحضرَتْ بَرطمانَ مُربّى البرتقالِ المُفضَّلِ لَديهِ. حتّى إنَّها نفضَتِ الغُبارَ عَنْ طاولةِ المطبخِ، ومسحَتِ الأرضَ.

عندَما خرجَ والدُها مِنْ غرفَةِ نومِهِ مرتَدِيًا أفضلَ بَدلَةٍ لَديهِ، سأَلَها عَنْ أيِّ مَعزوفةٍ مِنْ معزوفاتِ (موتزارت) تودُّ أنْ تُرافِقَ وجبَةَ الإفطارِ. ثُمَّ عَرَضَ عَليها أنْ يغسلَ كُلَّ شيءٍ - كانَ هُناكَ عددٌ مِنْ علَبِ الحِساءِ الفارغَةِ والقُدورِ والملاعِقِ مُتجمِّعَةً في الحَوضِ. والمُعجزةُ الأكبرُ عَلى الإطلاقِ هيَ أنَّهُ عَرَضَ أنْ يضعَ كَمِّيَّةً مِنَ الملابِسِ في الغَسّالةِ.

«إبريل . . .» قالَ بعدَ أنِ انتهى مِنْ شُرْبِ كوبِ قهوتِهِ الأوَّلِ بِعنايةٍ.

نظرتْ إلى الأعلى، فاحمَرَّ وجْهُ والدِها.

هَمْهَمَ وَتنَهَّدَ، ثُمَّ صَفّى حُنجرَتَهُ عِدَّةَ مَرّاتٍ، ومِنْ ثَمَّ، بَعْدَ تَصفِيَةٍ أُخْرى لِحُنجرَتِهِ، سارَ نَحْوَ قِطعِ حَلْوى اليانسونِ الثَّلاثِ المُخصَّصةِ لَهُ هذا اليومِ، وقالَ: «هاكِ، هذهِ لَكِ.»

أخذَتِ الحَلْوى في يَدِها. لَمْ تكنِ الحَلْوى المفضَّلةَ لَديْها، لكنَّها مَعَ ذلِكَ قدَّرَتْ مبادَرَتَهُ.

أحيانًا كانتْ إبريل تتساءَلُ عَنِ العائلاتِ الأخْرى الّتي كانَتْ تكتفي بِقولِ: «آسِف» وإنْ كانَ قولُ هذا أسهلَ أمْ أصعبَ. لكنْ، بِما أنَّها لا تملِكُ تَصوُّرًا لِهذا المفهومِ، فلَمْ تفكِّرْ كثيرًا في الأمرِ. هكذا جَرَتِ الأمورُ بِبساطَةٍ.

ومعَ ذلكَ، كانَ لَديها سؤالٌ واحدٌ. والآنَ هوَ الوقتُ المِثالِيُّ لِطرحِهِ.

«بابا؟»

«نَعم، إبريل؟»

«بِما أنَّنا عملِيًّا في بِدايةِ فصلِ الصَّيفِ الآنَ، فهلْ يَعني هذا أنَّهُ ما زالَ يتعيَّنُ عَلَيَّ الذَّهابُ إلى المدرسةِ؟»

«حسنًا. . . ممم . . . لستُ مُتأكِّدًا،» قالَ مُتشاغِلًا بِكوبِ قهوتِهِ الثّاني الّذي كانَ لا يزالُ ساخِنًا جِدًّا لِيشرَبَه. «يبدو أنَّ الوقتَ ما زالَ مُبَكِّرا قليلًا، أليسَ كذلكَ؟ أنْ تتوقَّفي عنِ المدرسةِ؟»

«مُبَكِّرٌ بِالنِّسبةِ لِمَدرستي في بلدِنا، نَعم،» أجابتْ، «لكنْ ليسَ مُبَكِّرًا جِدًّا بِالنِّسبةِ للنّرويجِ. انظُرْ هُنا.» كانتْ تطرقُ بِإصبعِها عَلى الصَّفحةِ المفتوحةِ في الموسوعةِ الّتي جهَّزتْها مُسبَقًا. «المدارسُ في النّرويجِ تنتهي قبلَ ذلكَ بِوقتٍ كبيرٍ. للأمرِ عَلاقةٌ بِالطَّقسِ.»

بَدا مُرْتَبِكًا بعضَ الشَّيْءِ وقدْ علقَ بعضُ مُرَبّى البرتقالِ عَلى ذقنِهِ، وقطَّبَ حاجِبيهِ بِحَيْرَةٍ. «أنا . . . حَسنًا، هذا يَعني . . .»

حبسَتْ إبريل أنفاسَها.

كانَ عَلى وشَكِ أنْ يقولَ لا – كانَتِ الكلمةُ قَدْ طَفَتْ في

أرجاءِ الغرفةِ مِثْلَ رائحةٍ كَريهةٍ – لكنْ في النِّهايةِ، وكَما كانتْ تأمَلُ أنْ يحدُثَ، انتصَرَ شُعورُهُ بِالذَّنبِ.

«نعم. لا أرى لِمَ لا.» وضعَ عَلى وجهِهِ ابتسامةً مُصطنعَةً «عندَما تكونُ في النّرويجِ . . . أو على الأقلِّ عَلى الأراضي النّرويجيَّةِ.»

لَمْ يكلِّفْ نفسَهُ عَناءَ النَّظرِ في الصَّفحةِ المفتوحَةِ – وهوَ ما أَبْهَجَ إبريل لأنَّها في الواقِعِ أخْفَتْ تَفصيلًا صَغيرًا. لَمْ تكذِبْ تَمامًا؛ لأنَّ المدارسَ في النّرويجِ تُغلَقُ في وقتٍ مُبَكِّرٍ.

لكنْ ليسَ *مُبَكِّرًا إلى هذا الحَدِّ*.

«حسنًا، هكذا إذنْ؟» سألتْ وهيَ تُغلقُ الموسوعةَ بِسرعةٍ. «لا مَدرسةَ بَعْدَ اليومِ.»

أمسكَ والدُها بِكوبِ قهوتِهِ الّتي كانتْ ما تزالُ ساخِنَةً جِدًّا، ورَشَفَ مِنها بصوتٍ عالٍ. وقَبلَ حتّى أنْ يضعَ كوبَهُ، كانتْ إبريل قدْ خرجَتْ مُسرعَةً مِنَ البابِ وهيَ تُدندنُ بِأغنِيَتِها السّعيدةِ.

الّتي كانتْ شيئًا مِنْ هذا القَبيلِ:

أنا سعيدةٌ، سعيدةٌ، ***سعيدةٌ.***

سعيدةٌ جِدًّا، جِدًّا، جِدًّا، ***جِدًّا.***

أنا ممتلئةٌ بِنورِ الشَّمسِ والابتساماتِ.

لا أخافُ حتّى مِنَ التَّماسيحِ!
أنا سعيدةٌ، سعيدةٌ، ***سعيدةٌ.***

ولتجعلْ خاتِمَتَها أجملَ، أنْهَتْها بزئيرِ دُبٍّ.



الفصلُ الرّابعَ عشرَ

الرُّكوبُ عَلى ظَهْرِ (دُبّ)

لا مَدرسَةَ بعدَ اليومِ.

لا مَدرسَةَ بعدَ اليومِ! فكَّرَتْ إبريل، وهيَ تَرقُصُ وَتدورُ وتقفِزُ عَبْرَ الجزيرةِ، إنَّ هذا قَدْ يَعني شيئًا واحِدًا فَقطْ، لَقَدْ بَدَأَ الصَّيفُ حَقًّا!

مِنَ الواضِحِ أنَّ (دُبّ) كانَتْ لَديهِ الفِكْرَةُ نفْسُها؛ لأنَّها عِندَما وصلَتْ إلى خليجِ (والْروس)، كانَ يتدَحْرَجُ عَلى الرِّمالِ لِيُدَلِّكَ

ظَهْرَهُ جَيِّدًا، وَقَدْ بَدا لَها في أسعَدِ حالَةٍ رَأَتْهُ عَلَيْها حتّى الآنَ. رَقَصَ قَلبُها مِنَ الحَماسِ وهِيَ تُراقِبُهُ؛ لأنَّها ستُشارِكُ الجَزيرَةَ مَعَ مَخلوقٍ مَهيبٍ مِثْلِه.

«أنا هُنا!» نادَتْ عالِيًا. قَفَزَ (دُبّ) واقِفًا عَلى قائمَتَيْه، نَفَضَ عَنْ نفسِهِ الرَّمْلَ، ثُمَّ جَرى نَحوَها بِقُوَّةٍ هائلَةٍ كادَتْ تَطرَحُها أرْضًا. «مَرحَبًا.»

بَعْدَ تَرَدُّدٍ قَصيرٍ، انْحَنى (دُبّ) إلى الأمامِ. ومَعَ لِمْحَةٍ ضَئيلَةٍ مِنَ التَّوَتُّرِ، سَمَحَتْ لَهُ بِأَنْ يَشُمَّ وجهَها. بَدَتْ لَها أنَّها - إضافَةً إلى زَئيرِ التَّرحيبِ - طريقَتُهُ في قَوْلِ «مَرْحبًا» لَها أيضًا. فَرَكَ أَنْفَهُ الرَّطبَ عَلى نَمَشاتِها السَّبعِ، ثُمَّ لَعَقَ أَنْفَها.

«ياااع، رائحةُ أنفاسِكَ!» شَهَقَتْ، وابتعَدَتْ عَنْهُ.

بعدَ مُعايَنَةٍ سَريعةٍ لِكَفِّهِ الّتي بَدَتْ أفْضَلَ بِكثيرٍ، وضعَتْ عَلى الأرضِ بِترتيبٍ أربَعَ عُلَبٍ مِنْ بَسكويتِ الشّوفانِ وبرطمانينِ مِنْ زُبْدَةِ الفولِ السّودانيِّ، وثلاثَ قِطَعٍ مِنْ حَلوى اليانسونِ المُفضَّلَةِ لدى والِدِها. الْتَهَمَها (دُبّ) كلَّها في ثَوانٍ.

«عَلى أيِّ طَعامٍ كُنْتَ تَعيشُ هُنا؟» سألَتْ بِصوتٍ رَقيقٍ. «لِمَ أنتَ هُنا وحْدَكَ؟»

انتظرتْ إبريل أنْ يُجيبَها، لكنَّهُ لَمْ يفعَلْ شيئًا سِوى الضَّغْطِ

بِأنْفِهِ عَلى يَدِها بَحْثًا عَنْ فُتاتِ البَسكويتِ.

«لا تقلَقْ. الآنَ وقَدْ شُفِيَتْ كَفُّكَ، يُمكِنُكَ أنْ تَصطادَ مِنْ جَديدٍ.» كانتْ إبريل قَدْ لَمَحَتْ عَدَدًا مِنَ الفُقْماتِ المُتَفَرِّقَةِ عَلى الصّخورِ حَوْلَ الجزيرةِ، لكنَّها كانَتْ تعرِفُ أيضًا أنَّ الدِّبَبَةَ القُطْبيَّةَ تَعتمِدُ عَلى أغطِيَةِ الجَليدِ كَمِنَصَّةٍ لِمُساعَدَتِها في الإمْساكِ بِها. لا بُدَّ أنَّ هُناكَ أشْياءَ أخْرى يُمكِنُ أنْ تَصْطادَها الدِّبَبَةُ القُطْبِيَّةُ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ إبريل لَمْ تَكُنْ واثِقَةً تَمامًا ما هذِهِ الأشْياءُ. «لا تقلَقْ، سَأحرِصُ عَلى أنْ تحصُلَ عَلى قَدْرٍ كافٍ مِنْ زُبْدَةِ الفولِ السّودانيِّ لِتأكُلَها أيضًا.»

لَعَقَ (دُبّ) آخِرَ ما تَبَقّى مِنَ الفُتاتِ، ثُمَّ جَلَسَ بِجانِبِها، لامَسَ جَسَدُهُ الدّافِئُ جَسَدَها بِشَكْلٍ طَفيفٍ. وَبَيْنَما أراحَ كُلٌّ مِنْهُما ظَهْرَهُ عَلى القارِبِ المَقلوبِ، فَكَّرَتْ إبريل مَلِيًّا في الطَّريقَةِ الّتي سَيقضِيانِ بِها وقْتَهُما.

«لَدَيْنا الصَّيفُ *كُلُّهُ*، يا (دُبّ). ما رأيُكَ في ذلِكَ؟! هذا يَعْني ما تَبَقّى مِنْ شَهْرِ مايو، ثُمَّ يونيو ويوليو وَأغسطُس وسبتَمْبِر بأكْمَلِها! هذا وقَتٌ طَويلٌ جِدًّا. بِهذا القَدْرِ.» وفتحَتْ ذِراعَيْها عَلى اتِّساعِهِما.

نَظَرَ إلَيْها (دُبّ) في حَيْرَةٍ. بِالطَّبْعِ لَمْ يَكُنِ اتِّساعُ ذِراعَيْها

باتِّساعِ ذِراعَيْهِ.

«عَلى الرَّغْمِ مِنْ ذلِكَ ما زالَ ذلِكَ يُعَدُّ وقتًا طَويلًا. لكنْ أوَّلًا، اليومَ. لَدَيْنا اليومُ بِأَكْمَلِهِ.»

بَدا أنَّ (دُبّ) قَدْ فَهِمَ هذِهِ الجُمْلَةَ، وكَشَّرَ عَنْ أسنانِهِ بِطريقَةٍ يُمكِنُ تَفسيرُها، عَلى أقَلِّ تَقديرٍ، أنَّها ابتسامةٌ. إمّا هذا، أوْ أنَّهُ كانَ يَتثاءَبُ فَقطْ.

«حَسَنًا، ماذا عَلينا أنْ نَفعلَ إذنْ؟» رَفرفَتْ ذِراعَيْها بِحَماسٍ. «أنا أعرِفُ! لِنَذْهَبْ وَنَسْتَكْشِفْ!»

قفزَتْ واقفَةً عَلى قدَمَيْها، تَبِعَها (دُبّ)، ووقَفَ بِبطْءٍ عَلى قوائمِهِ الأربَعِ. لَمْ تعرِفْ إلى أينَ يُمكِنُ أنْ يَذهَبا لِلاسْتِكشافِ بِالضَّبْطِ، لكِنَّها، على أي حال، انْطَلَقَتْ باتِّجاهِ الجِبالِ الثّلاثةِ بِخطواتٍ قَصيرةٍ واثِقَةٍ. لكنَّها عِنْدَما نظرَتْ إلى الوَراءِ، رأَتْ أنَّ (دُبّ) كانَ قَدْ اسْتَدارَ إلى الاتِّجاهِ الآخَرِ، وراحَ يَجري في الاتِّجاهِ المُعاكِسِ بِخُطواتٍ طَويلَةٍ خَرقاءَ. بَحلَقَتْ إبريل بِيَأْسٍ إلى رِجْلَيْهِ الخَلْفِيَّتينِ وهُما تَبْتَعدانِ عَنْها. «إلى أينَ أنْتَ ذاهِبٌ؟»

لَمْ يتوقَّفْ (دُبّ) عَنِ الجَرْيِ، وعِوَضًا عَنْ ذلِكَ نَظَرَ مِنْ فوقِ كَتِفَيْهِ إلى الوَراءِ. كانَ هذا كُلَّ ما احْتاجَتْ إلَيْهِ مِنَ التَّشجيعِ، وَجَرَتْ مُسرِعَةً خَلْفَهُ.

«انتَظِرْ!» صرخَتْ. «سَيكونُ عَليكَ أنْ تَمشيَ بِسرعَةٍ أبْطَأَ مِنْ ذلِكَ»

للأسَفِ، مهْما أبطَأَ (دُبّ) في مِشيَتِهِ، فقَدْ ظلَّتْ أسْرَعَ بِكثيرٍ مِنْ أسرَعِ مِشْيَةٍ لإبريل. كانَ الأمْرُ أسْوَأَ حتّى مِنَ السَّيْرِ مَعَ والِدِها الّذي كانَتْ خُطْوَةٌ واحِدَةٌ مِنْ خُطُواتِهِ تُعادِلُ دائمًا أرْبَعَ خُطُواتٍ مِنْ خُطُواتِها. استَمَرّا عَلى هذا النَّحْوِ مُدَّةَ عَشْرِ دَقائقَ. لكنْ بِلا جَدْوى. كانَ (دُبّ) يَسْبِقُها دائمًا: ينتظِرُ إبريل بِفارِغِ الصَّبْرِ حتّى تَلْحَقَ بِهِ، بَينَما ينقَطِعُ نَفَسُها هِيَ مِنَ الرَّكْضِ لِتُجاريهِ في سُرعَتِهِ.



بَعْدَ نَحْوِ عِشرينَ دَقيقةً، عِنْدَما تَمَزَّقَتْ رِئَتاها، وشعَرَتْ بِخاصِرتَيْها تَنْفَجِرانِ، تَوَقَّفَتْ فَجأةً، وجلَسَتْ عَلى الأرضِ، بَينَما قَفَزَ (دُبّ) بِسهولَةٍ فَوْقَ بِرْكَةِ ماءٍ داخِلِيَّةٍ أخْرى، كَما لَوْ أنَّهُ كانَ يَقفِزُ فَوْقَ بُقْعَةِ ماءٍ صَغيرَةٍ. تَمَكَّنَتْ مِنَ القَفْزِ فَوْقَ بَعْضِ البِرَكِ الأولى، لكنَّ هذِهِ كانَتْ أَعْرَضَ بِكثيرٍ.

«يا (دُبّ)!» صَرَخَتْ، لكنَّ صوتَها ارْتَدَّ عَلى وجهِها بِفِعْلِ الرّيحِ، واخْتَفى هُوَ بِسرعَةٍ.

كانَتِ البِرْكَةُ طَويلَةً جِدًّا لِتَتَمَكَّنَ مِنَ المَشْيِ حَوْلَها؛ لِذلِكَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْها أيُّ خَيارٍ آخَرَ - كانَ عَلَيْها أنْ تَقْفِزَ فَوْقَها فَحَسْبُ.



أخذَتْ نَفَسًا عَميقًا، وقَذَفَتْ بِنَفْسِها في الهواءِ، لكِنْ بِمُجَرَّدِ أنْ رفعَتْ قَدمَيْها عَنِ الأرضِ، أدرَكَتْ أنَّها ارتكَبَتْ خَطَأً. وَبارْتِطامٍ مُدَوٍّ، سَقَطَتْ! نِصْفُها في الماءِ وَنِصفُها الآخَرُ خارِجَهُ، وشَعَرَتْ بالْتِواءِ كاحِلِها.

شَهَقَتْ مِنَ الصَّدْمَةِ.

كانَ الماءُ بارِدًا حينَ صَفَعَ قَدَمَيْها. حَمْدًا للهِ عَلى سِرْوالِها المُضادِّ لِلماءِ. جَرَّتْ نَفْسَها بِصعوبَةٍ خارِجَ الماءِ، وتمَدَّدَتْ مُنْهارَةً ومُنقَطِعَةَ الأنْفاسِ عَلى جَنْبِها مِثْلَ كَوْمَةٍ مُبَلَّلَةٍ. لَمْ تَتَمَكَّنْ مِنْ رُؤْيَةِ (دُبّ) في أيِّ مَكانٍ؛ فاجْتاحَتْها وَمْضَةٌ مِنْ عَدَمِ الارْتِياحِ. أينَ كانَتْ بِالضَّبْطِ؟ والأهَمُّ مِنْ ذلِكَ، كيفَ سَتعودُ إلى البيتِ؟ حاولَتْ أنْ تَختَبِرَ كاحِلَها؛ فَإذا بِأَلَمٍ حادٍّ يَنطَلِقُ كَالنّارِ في كُلِّ ساقِها.

كانَ هذا كَثيرًا جِدًّا بِالنِّسبَةِ لِأَوَّلِ يَومٍ مِنَ العُطلَةِ الصّيفيَّةِ، وكانَ مِنَ السُّخْفِ الاعْتِقادُ أنَّ بِمقدورِها مصادَقَةَ دُبٍّ قُطْبِيٍّ عَلى أيِّ حالٍ - ناهيكَ عَنْ مُحاوَلَةِ مُساعَدَتِهِ. ماذا كانَتْ تَتخَيَّلُ؟ كانَ هوَ حَيوانًا بَرِّيًّا، وكانَتْ هِيَ مُجَرَّدَ فَتاةٍ صَغيرةٍ. فَتاةٍ صَغيرةٍ لَمْ تَستطِعْ حتّى القَفْزَ فَوقَ بِركَةٍ. غاصَ وَجْهُ إبريل في يَدَيْها، وحاولَتْ ألّا تَشعُرَ بِأسَفٍ شَديدٍ عَلى حالِها.

عندَ تِلكَ اللَّحظَةِ ظَهَرَ (دُبّ) مَرَّةً أخْرى، بِهدوءٍ شَديدٍ لِدَرَجَةِ أنَّها لَمْ تَنْتَبِهْ حتّى وَقَفَ عَلى بُعْدِ ثلاثةِ أمْتارٍ، وَظَلُّ رأسِهِ الهائِلِ يَسْتَريحُ في حِجْرِها.

«(دُبّ)؟»

كُلُّ ما اسْتَطاعَتْ أنْ تَراهُ كانَ خَيالَهُ الأسودَ واقِفًا أمامَ الشَّمْسِ وحاجِبًا نورَها. «حاوَلْتُ جاهِدَةً أنْ أَلْحَقَ بِكَ وَوَقَعتُ،» شرحَتْ، وهِيَ تُشيرُ إلى كاحِلِها. «لا أظُنُّ أنَّهُ كَسْرٌ. مُجَرَّدُ الْتِواءٍ. لكنّي لا أستطيعُ أنْ أمْشِيَ بِشكْلٍ جَيِّدٍ.»

لَمْ يتحَرَّكْ (دُبّ). وبِطبيعَةِ الحالِ لَمْ يَفهَمْ ما قالَتْهُ، غيرَ أنَّ فُضولَهُ جَعلَهُ يقترِبُ مِنْها حتّى صار واقِفًا فَوْقَها مُباشَرَةً.

«لا أستطيعُ أنْ أَمْشِيَ أبْعَدَ مِنْ هذِهِ المَسافَةِ،» قالتْ: «أنا آسِفَةٌ جِدًّا.»

لَمْ تَعرِفْ حَقًّا لِمَ كانَتْ تَعْتَذِرُ - رُبَّما لأنَّها شَعَرَتْ بِالحُزنِ في داخِلِها فَحَسْبُ، كَأَنَّها أَفْسَدَتْ يومَهُما. قَرَّبَ (دُبّ) أنْفَهُ، ولَعَقَ بعضَ الماءِ عَنْ سِرْوالِها. ما كانَ لَيَعْرِفَ المَوضِعَ الّذي يُؤلِمُها، لكنْ بَدا أنَّهُ لَعَقَ كاحِلَها بِرِفْقٍ شَديدٍ، مِثْلَما اعْتادَ والِدُها تنظيفَ خُدوشِها في المَرّاتِ الّتي سَقَطَتْ فيها عَنْ دَرّاجَتِها.

«شُكْرًا لَكَ، (دُبّ).» شَعَرَتْ بِوَخْزٍ مُفاجِئٍ مِنَ العاطِفَةِ. «أشعُرُ بِتَحَسُّنٍ كَبيرٍ الآنَ.»

كانَتْ تُفَكِّرُ في الطَّريقَةِ الّتي سَتَعودُ بِها إلى المنزلِ، وتُحاوِلُ جاهِدَةً ألّا تَقلَقَ، حينَ لَكَزَ (دُبّ) كَتِفَها.

«ماذا؟»

لَكَزَ كَتِفَها مَرَّةً أُخْرى، في هذِهِ المَرَّةِ بِقُوَّةٍ أكْبَرَ.

«يُمكِنُني أنْ أحاوِلَ المَشْيَ، لكنْ انظُرْ.» وقَفَتْ عَلى قَدَمَيْها، لكنَّها جَفَلَتْ حينَ وَضعَتْ ثِقَلَها عَلى كاحِلِها. «سَأكونُ بَطيئَةً جِدًّا.»

جلسَتْ عَلى الأرضِ مِنْ جَديدٍ، وحاولَتِ اسْتِجماعَ شَجاعَتِها. هَبَطَ (دُبّ) عَلى بَطْنِهِ فَصارَ بِمِثْلِ طولِها، ونَظَرَ إلَيْها بِتَرَقُّبٍ.

«ماذا هُناكَ، يا (دُبّ)؟»

استَمَرَّ في التَّحديقِ بِها، وشعرَتْ بِرجْفَةٍ تَسري في عُروقِها. لا يُعْقَلُ أنَّهُ يَقصِدُ ما ظَنَّتْ أَنَّهُ كانَ يُقصِدُهُ.

«هَلْ تُريدُني أنْ أرْكَبَ عَلى ظهرِكَ؟» قالَتْ بِتَعَجُّبٍ. «لكنَّني لَمْ أركَبْ حتّى عَلى حِصانٍ مِنْ قَبلُ، فَكَيْفَ بِرُكوبِ دُبٍّ. يا إلهي!»

هَلْ يُمكِنُ لِهذا أنْ يَحدُثَ حقًّا؟ أغمَضَتْ عَيْنَيْها أمامَ وَهْجِ

الشَّمسِ، ثُمَّ فَتَحتْهُما مُجَدَّدًا. لكنَّ (دُبّ) كانَ ما يزالُ هُناكَ، جاثِمًا أمامَها، مُنْتَظِرًا.

لَمْ يكُنْ هُناكَ أيُّ شيءٍ آخَرَ يُمكِنُها عَمَلُهُ. إذا لَمْ تفعَلْ هذا، فَستَبْقى عالِقَةً هُنا.

كانَ عَلَيها أنْ تتَخَلّى عَنْ جُبْنِها. أخذَتْ إبريل نَفَسًا عَميقًا مِنْ أجْلِ الثَّباتِ، وأمسَكَتْ بِمِلْءِ قَبضَتِها فِراءَ رَقَبَتِهِ، ثُمَّ رفعَتْ ساقَها اليُسْرى فوقَ ظَهرِهِ. تحتْ مُؤخَّرَتِها كانَ بِمَقدورِها أنْ تَشعُرَ بِعظامِ قَفَصِهِ الصَّدْرِيِّ النّاتِئَةِ.

«أوه، يا (دُبّ)،» تَمْتَمَتْ. «هَلْ أنتَ مُتأَكِّدٌ مِنْ أنَّكَ تَستطيعُ أنْ تحمِلَني؟»

زأرَ (دُبّ) بِغَضَبٍ، ونهَضَ عَلى أقدامِهِ بِانقِضاضَةٍ واحِدَةٍ مَهيبةٍ. تَأَرْجَحَتْ مِنْ جانِبٍ إلى جانِبٍ، لكنَّها تَمكَّنَتْ تَقريبًا مِنَ الصُّمودِ حتّى صارَ أخيرًا واقِفًا بِاستِقامَةٍ. نظرَتْ إلى الجَزيرةِ مِنْ موقِعِ مُراقَبَتِها الجَديدِ، ولَمْ تُقاوِمْ فِكرَةَ أنَّ الأمْرَ كانَ شَبيهًا بَعْضَ الشَّيءِ بِالجُلوسِ عَلى عَرْشٍ.

«هذا مُمْتِعٌ!»

لكنْ بِمُجرَّدِ أنْ خَرَجَتِ الكَلِماتُ مِنْ فَمِها، انْطلقَ (دُبّ) إلى الأمامِ، ووجَدَتْ نفسَها وَقدْ قُذِفَتْ إلى اليَسارِ، ثُمَّ رُشِقَتْ إلى

اليَمينِ، ثُمَّ مِنْ جَديدٍ طُرِحَتْ إلى اليَسارِ، قَبْلَ أنْ تَندفِعَ بِقُوَّةٍ إلى اليَمينِ. عَصَفَتِ الرّيحُ هادِرَةً قُرْبَ أُذُنَيْها فيما ارْتفعَتِ الأرضُ وَدارَتْ، والأَسْوَأُ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ، لَمْ يكُنْ لَدَيْها عَلى الإطلاقِ ما تُمسِكُ بِهِ غيرُ خُصُلاتِ الفِراءِ حَولَ رَقَبَةِ (دُبّ)، وَالّتي ظَلَّتْ تَنزَلِقُ مِنْ بينِ يَدَيها.



في النِّهايَةِ، مَدَّتْ ذِراعَيها حَولَ رَقبَتِهِ، وضغَطَتْ بِخَدِّها عَلى فَروِهِ، وتَشَبَّثَتْ بِهِ. بِهذِهِ الطّريقَةِ، وإذا أبْقَتْ عَينَيها مُغْلَقَتَينِ تَمامًا، فَلَنْ تَقفِزَ مُؤَخَّرَتُها كَثيرًا، ولَنْ يُجَلْجِلَ قَفَصُها الصَّدْرِيُّ بِصَخَبٍ، ولَنْ تُهَدِّدَ مَعدَتُها بِتَفْريغِ مُحْتَوَياتِها.

بَعْدَ قَليلٍ، أَحَسَّتْ بِالدِّفْءِ أيْضًا.

كانَتْ نَبَضاتُ (دُبّ) الثّابِتَةُ تُرَبِّتُ عَلى جِلْدِها، وكانَ هُناكَ شَيْءٌ حِيالَ ذلِكَ يُشْعِرُها بِالرّاحَةِ وَالأمانِ مَعًا. مِثْلَ العَوْدَةِ بَعْدَ يَومٍ في المدرسَةِ إلى بيتٍ تَفوحُ مِنْهُ رائحَةُ كَعْكِ شوكولاتَةٍ ساخِنَةٍ مَخبوزَةٍ لِلتَّوّ.

لَوْ كانَ بإمكانِ الفَتياتِ في فَصْلِها أنْ يَرَيْنَها الآنَ . . . لَنْ يَسخرْنَ مِنها عندَها، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟ لا، فبينَما هُنَّ عالِقاتٌ في مدرسةٍ قديمةٍ مُمِلَّةٍ، كانتْ إبريل وود تَعدو فوقَ جزيرةٍ برِّيَّةٍ غيرِ مَأهولَةٍ عَلى ظَهْرِ دُبٍّ قُطبيٍّ.



الفصلُ الخامسَ عشرَ

الكَهْفُ

رُبَّما استمَرَّتِ الرِّحلَةُ خمسَ دَقائقَ أوْ خمسَ ساعاتٍ. مَهما استغرَقَ وقتُها - وهوَ ما لَمْ تَحسِبْهُ إبريل - فقَدْ كانتْ رِحلةً سَرمدِيَّةً. عَرفَتْ إبريل أنَّها لَنْ تَنسى أبدًا هذِهِ اللَّحظةَ ما حَيِيَتْ. وعندَما انتهَتِ الرِّحلَةُ أخيرًا، نزلَتْ مِنْ عَلى ظَهْرِ (دُبّ) مُنزلِقَةً، وشعَرَتْ في أعماقِ روحِها أنَّ الأشياءَ لا يمكِنُ أنْ تعودَ إلى ما كانَتْ عَليهِ مِنْ قَبلُ.

لَمْ تكُنْ هُناكَ كَلماتٌ كافِيَةٌ لِشُكْرِهِ؛ لِذا طَوَّقَتْ رَقبَتَهُ بِذراعَيْها، وَضَمَّتْهُ إلَيْها بِقوَّةٍ. لَيْسَ بِقوَّةٍ شديدَةٍ حتّى لا تُزْعِجَهُ، وإنَّما بِقوَّةٍ تَكفي لِيَشعُرَ بِضَرَباتِ قَلْبِها النّاعِمَةِ.

«أوه، يا (دُبّ)،» هَمسَتْ، وأراحَتْ وَجهَها عَلى فِرائهِ.

عندَما أفْلَتَتْهُ أخيرًا، استَدارَ مُبْتَعِدًا بِهدوءٍ، وَمَضى نحْوَ خَليجِ (والْروس).

راقَبَتْهُ إبريل حتّى صارَ أصْغَرَ وَأصْغَرَ، واختَفى في النِّهايةِ عَنِ الأنظارِ.

نَفَضَتْ مَلابِسَها، ونظَرَتْ حولَها، فَأدرَكَتْ أنَّها لَمْ تَكُنْ بَعيدَةً جِدًّا عَنِ المَقْصورَةِ، وتمكَّنَتْ مِنْ أنْ تَعرُجَ، وتقطَعَ ما تَبَقّى مِنَ الطَّريقِ إلى المنزِلِ بِنَفْسِها.

كانَ البَقاءُ عالِقَةً داخِلَ المَقْصورَةِ مُمِلًّا بِالنِّسبَةِ لإبريل، إلّا أنَّهُ مَكَّنَها مِنَ الاسْتِراحَةِ لِبضعَةِ أيّامٍ إلى أنْ تَعافى كاحِلُها تَمامًا. وما إنْ صارَ كاحِلُها أَفْضَلَ، حتّى عادَتْ مُسرِعَةً إلى خَليجِ (والْروس) مُحَمَّلَةً بِبَعْضِ الطَّعامِ.

تَنفَّسَتِ الصُّعَداءَ مَسرورَةً حينَ رَأَتْ (دُبّ) يَنتَظِرُها، وكافَأَتْهُ بِمَنْحِهِ بَرطَمانًا إضافِيًّا مِنْ زُبدَةِ الفولِ السّودانيِّ.

خِلالَ الأسابيعِ القليلةِ التّاليَةِ، ومَعَ انْقضاءِ شهرِ مايو وحُلولِ شهرِ يونيو، حاولَتْ أنْ تأخُذَ أكْبَرَ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ الطَّعامِ مِنْ غُرفَةِ المُؤَنِ مِنْ دونِ إثارةِ الشُّكوكِ. لَمْ يكُنْ هذا صَعْبًا جِدًّا؛ لأنَّ والدَها كانَ غارِقًا بِعُمقٍ في عَمَلِهِ، وفي هذِهِ الأيّامِ صارَ بِالكادِ يُلاحِظُ وُجودَ إبريل أو غيابَها.

كانَتْ المُشكلَةُ الوَحيدَةُ هيَ مِقدارُ ما أَكَلَهُ (دُبّ). كانَ أكثَرَ بِكثيرٍ مِمّا أكلَتْ أَوْ أكَلَ والِدُها أوْ أيُّ شَخْصٍ عَرَفتْهُ مِنْ قَبلُ. وفي حينِ احْتَوى المخزَنُ عَلى كَمِّيَّةٍ مَحدودَةٍ مِنَ الطَّعامِ كانَتْ مَعِدَةُ (دُبّ) بِلا قاعٍ، وَمَهما أطعمَتْهُ، لا يتوقَّفُ عَنِ التَّحديقِ فيها بِعينَيْهِ البُنِّيَّتينِ يَتوسَّلُ المَزيدَ.

وقفَتْ بِجانِبِ القارِبِ المقلوبِ في خَليجِ (والْروس) الَّذي صارَ نُقطَةَ لِقائِهِما اليَومِيَّةِ، وراقبَتْهُ وهوَ يَثِبُ نَحْوَها.

كانَ الخَبَرُ الجَيِّدُ هُوَ أنَّ كُلَّ هذا الطَّعامِ الإضافيِّ بَدَأَ يَظهرُ عَليْهِ. أصبحَ مِعطَفُهُ أقَلَّ تَلَبُّدًا بِشكلٍ مَلحوظٍ، ولَمْ تَعُدْ عَظْمَتا حَوْضِهِ ناتِئتانِ كَثيرًا للخارِجِ، وعندَما امتَطَتْهُ (الفِعْلُ الَّذي لَمْ يُخفِقْ مَرَّةً في مَلْئِها بِالرَّهْبَةِ) كانَ عَمودُهُ الفِقريُّ قدِ اخْتفى تَقريبًا تحتَ ظَهْرٍ سَميكٍ وَعريضٍ مِنَ الأوتارِ وَالعَضلاتِ. أمّا أجْمَلُ جُزءٍ فيهِ فَكانَ فِراؤهُ. فَمَعَ كَمِّيَّةِ الطَّعامِ الإضافِيَّةِ الَّتي

صارَ يَتَناوَلُها الآنَ، ازدادَتْ نُعومَتُهُ، وغَدا مِثْلَ بَطانِيَّةِ الصّوفِ الَّتي تَتَدَثَّرُ بِها عَلى الأريكَةِ. وفاحَتْ مِنْهُ رائحَةُ حَلْوى الخُطمى والكَستناءِ وخبزِ (الكَرَمْبيتْ) المدهونُ بِالزُّبْدَةِ. وإذا ما دَفَنَتْ أنْفَها فيهِ، تَخيَّلَتْ أنَّها تستَطيعُ تَذوَّقَ زُبدَةِ الفولِ السّودانيِّ على لِسانِها.

بعدَ أنْ أكلَ كُلَّ شَيءٍ أحضَرتْهُ لَهُ، أمْضى دقيقَةً أُخرى أوْ نَحْوَ ذلِكَ يَشُمُّ جُيوبَها تَحَسُّبًا في حالِ فاتَهُ شَيْءٌ.

«ليسَ مَعي المزيدُ» قالتْ. «عَلَينا تَقنينُ الطَّعامِ مِنَ الآنَ فَصاعدًا.»

نَظرَ إلَيها بِتَساؤلٍ، ودَفَعَ يدَها بِأنْفِهِ عَلى أمَلٍ.

«عَلى أيِّ حالٍ، لَمْ تُرِني بَعْدُ أينَ تَعيشُ. أنتَ تعرِفُ كَثيرًا عَنّي، لكنْ ما زالتْ هُناكَ أشياءُ كَثيرةٌ لا أعرِفُها عَنْكَ!»

بَدا (دُبّ) مُرتبِكًا. لَمْ تعرِفْ إنْ كانتْ تَعابيرُهُ تِلكَ تَعني أنَّهُ فَهِمَها، أمْ أنَّهُ ما زالَ جائعًا. في كِلْتا الحالَّتينِ، عندَما أدرَكَ (دُبّ) في النِّهايةِ أنَّهُ لَمْ يَعُدْ معَها مزيدٌ مِنَ الطَّعامِ، تمكَّنَتْ إبريل مِنَ الصُّعودِ عَلى ظهرِهِ، وبِمجرَّدِ أنِ اسْتَقرَّتْ عَليهِ، انْطَلَقا باتِّجاهِ أصْغرِ الجِبالِ الثّلاثَةِ، عَلى الرّغمِ مِنْ أنَّهُ كانَ شَديدَ الانْحِدارِ.

كانَ عَلى إبريل أنْ تُغمِضَ عَيْنَيها؛ لأنَّ النَّظَرَ إلى الأسفَلِ مِنْ عَلى جانِبَي جبلٍ كانَ أسوَأَ بِكثيرٍ مِنْ أيِّ قِطارِ مَلاهٍ أُفْعُوانيٍّ رَكِبَتْهُ عَلى الإطلاقِ - وهذِهِ الرِّحلَةُ كانتْ دونَ أيِّ حِزامِ أمانٍ. لكنْ لا داعي لأنْ تَقلَقَ.

صَعِدَ (دُبّ) بِرشاقَةِ نَمِرٍ طَوالَ الطَّريق حتّى وصلَ إلى حَيْدٍ ضَيِّقٍ جِدًّا في مُنتصفِ الجبلِ تَقريبًا، قَبْلَ أنْ يتوقَّفَ أمامَ كَهْفٍ مُتوسِّطِ الحَجمْ عَلى خاصِرَةِ الجَبَلِ.

إنَّهُ بيتُ (دُبّ).

اضطرَّتْ إبريل إلى الانبِطاحِ عَلى ظهرِهِ حتّى يتمكَّنَ كِلاهُما مِنَ الدُّخولِ.

في الدّاخِلِ اتَّسعَ الكَهْفُ، وتمكَّنَتْ مِنَ الانْزلاقِ مِنْ عَلى ظَهْرِ (دُبّ) والوقوفِ مُنْتَصِبَةً. بِالكادِ استَطاعَتِ الرُّؤيَةَ، ولَمْ تكُنْ لَديْها أيُّ فِكرةٍ إلى أيِّ مَدًى امتَدَّ الكَهْفُ إلى الدّاخِلِ. لكنَّهُ كانَ مَحمِيًّا مِنْ عوامِلِ الأذى، وشَكَّلَ مكانَ اخْتِباءٍ مِثاليٍّ.

«لكنَّهُ لَيسَ مُريحًا جِدًّا، ألَيْسَ كَذلِكَ؟»

ضيَّقَتْ عَينَيها مُحاوِلَةً التَّكَيُّفَ مَعَ الضَّوءِ الشَّحيحِ. لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعبِ أنْ تَرى (دُبّ) نَظَرًا لِحجْمِهِ الكَبيرِ ولونِهِ الأبيَضِ، بَينَما اكْتنَفَ باقي الكَهْفِ ظَلامٌ كَئيبٌ رَطْبٌ.

في الزّاويَةِ بِالكادِ تَمكَّنَتْ مِنْ تَمييزِ كَوْمَةٍ صَغيرةٍ مِنَ الرّيشِ وَقُشورِ البَيضِ وَالعِظامِ، عَلى الرَّغمِ مِنْ أنَّها لَمْ تَكُنْ أشَياءَ تُريدُ النَّظَرَ إلَيْها عَنْ قُرْبٍ، فإنَّها - عَلى الأقَلِّ - وَضَّحتْ لَها كيفَ كانَ يَحصُلُ عَلى طَعامِهِ، وَيا لَها مِنْ حَياةٍ.

عَبَقَ الكَهْفُ كُلُّهُ بِرائحَةٍ عَفِنَةٍ جعَلَتْ جسمَها يَقشَعِرُّ.

مَدَّتْ يَدَها، وَرَبَّتَتْ عَلى خَطْمِهِ. قالَتِ الموسوعَةُ إنَّ ذُكورَ الدِّبَبَةِ القُطبِيَّةِ تُفضِّلُ العُزْلَةَ (بِاسْتِثناءِ فَتْرَةِ التَّزاوُجِ أوْ حينَ تَرغَبُ في المُصارعَةِ).

لَمْ يَسَعْها سِوى أنْ تَشعُرَ بِالأسَفِ لِحالِهِ.

«يا مِسكينُ. مُنْذُ مَتى وأنتَ تعيشُ هُنا وحدَكَ تَمامًا؟»

زَمْجَرَ (دُبّ) مِنْ خَلفِ أسْنانِهِ، ولَمْ تكُنْ زَمْجَرةَ سَعادَةٍ وَرِضًا، وإنَّما في الغالِبِ زَمْجَرةُ غَضَبٍ وإحباطٍ. زَمْجَرةٌ لا تُعَبِّرُ عَنْ شهورٍ فَحَسْبُ، بَلْ عَنْ سَنواتٍ مِنَ الغَضَبِ والإحْباطِ.

كانَ مُجَرَّدُ التَّفكيرِ فيه عالِقًا في هذا الكَهفِ، مِنْ دونِ أيِّ فُرصَةٍ لِمُقابلَةِ أيٍّ مِنْ بَني جِنْسِهِ، تَفوقُ قُدْرَتَها عَلى الاحْتمالِ.

«كيفَ انْتهى بِكَ الأمْرُ عالِقًا هُنا عَلى الجزيرةِ؟»

زَمْجَرَ مَرَّةً أُخرى، ولِلَحظَةٍ، حامَتْ قِصَّةُ (دُبّ) مِنْ دونِ إفْصاحٍ بَيْنَهُما، مِثْلَ شَيءٍ يَرتعِشُ حَيًّا في الهواءِ.

حبسَتْ إبريل أنفاسَها.

لكنْ، أيًّا كانَتِ القِصَّةُ، وَأيًّا كانَ المكانُ الَّذي أَتَتْ مِنْهُ، فإنَّها اخْتفَتْ مِثلَ نَفْخةِ دُخانٍ.

هَزَّ (دُبّ) رأسَهُ بِقوَّةٍ مِنْ جانِبٍ إلى آخَرَ، وبإيحاءٍ غَريزيٍّ اتَّجَها نَحوَ مَدْخَلِ الكَهْفِ، حيثُ شَعَرا فَوْرًا بِالهواءِ نَظيفًا وخَفيفًا.

اصطَبَغَ وَجْهاهُما بِلَونِ العَسلِ حينَ باغَتَهُما وَهْجُ الشَّمسِ الدّافئُ.

اسْتدارَ (دُبّ) نَحوَ إبريل ولَعَقَ وَجْهها مِنْ أعْلى إلى أسْفَلَ. ولأنَّ رائحَةَ نَفَسِهِ كانتْ سَيِّئَةً لِلغايَةِ، ولأنَّها لَمْ تتوقَّعْ ما فَعَلَهُ، ولأَنَّ لِسانَهُ كانَ رَطْبًا جِدًّا، أخذَتْ إبريل تَضحَكُ. كانَ ذاكَ النَّوعُ مِنَ الضَّحِكِ الَّذي يتبَعُ لَحظَةً حَزينةً، كبيرًا وصاخِبًا ومَليئًا بِالرّاحَةِ.

ضَحِكَتْ وضحِكَتْ بِشِدَّةٍ لِدرجَةِ أنَّها انْقلبَتْ عَلى ظَهْرِها، وأمسكَتْ بَطنَها لِتَمنَعَ عَنها الألَمَ. عندَها انْقَلبَ (دُبّ) بِجانِبِها، وتمَدَّدَ عَلى ظَهْرِهِ، وراحَتْ أذُناهُ ترتَعِشانِ، وَبَدا كَما لَوْ أنَّهُ كانَ يَضحَكُ أيضًا.

وهكَذا اسْتَلْقَيا عندَ فَمِ الكَهْفِ ضاحِكَينِ.



«آه يا (دُبّ)،» تمكَّنَتْ مِنَ القَولِ أخيرًا. «أنا أُحِبُّكَ فِعلًا.»
لَمْ يَستطِعْ أنْ ينطِقَ كَلِمَتيْ «أنا أحبُّكِ،» لكنَّهُ لَمْ يكُنْ بِحاجَةٍ إلى ذلِكَ.

فقَدْ كانَتا في ثِقَلِ جَسَدِهِ الدّافئِ المُطْمَئِنِّ بِجانبها، وفي الطَّريقةِ الَّتي تَطَلَّعَ بِها إلَيها، بثِقَةٍ مُتَجَرِّدَةٍ مُنفَتِحَةٍ، وبِعينَيهِ اللَّتينِ تُشْبِهانِ الشّوكولاتَةَ الذّائبَةَ. كانَتِ الكَلِمتانِ هناكَ، غيرَ مَنطوقَتينِ، بَينَهما، وَسَتبْقَيانِ هُناكَ إلى الأبَدِ.

كانَ الحُبُّ، كَما رَأتْهُ إبريل، مِثْلَ السِّحْرِ.

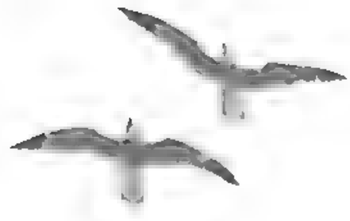
مالَتْ نَحوَهُ، ووضعَتْ ذِراعَيْها حَوْلَ رَقبَتِهِ لِتَحتضِنَهُ. «مهما كانَ ذلكَ الشَيءُ الَّذي جعلَكَ حزينًا، يمكنُكَ أنْ تخبِرَني بِهِ يَومًا ما، يا (دُبّ)،» تمتمَتْ في فرائهِ. «لقَدْ مَرَرْتُ بأشياءَ حَزينةٍ أنا أيضًا، لذلِكَ لا تَقْلَقْ بِشأنِ إزْعاجي. فأنا سَأَفهَمُ.»

ارتعشَتْ أُذُنا (دُبّ) بِرِفْقٍ، وَأراحَ رأسَهُ في عِناقِها.

«فقطْ أخبِرْني عندَما تكونُ مُستعِدًّا. ذاكَ هوَ أفضَلُ وقْتٍ لِتحكي قِصَّةً. ليسَ قبلُ وَليسَ بعدُ. لكنْ فقطْ عندَما تكونُ القِصَّةُ جاهِزَةً لِتخرجَ.»

مالَتْ نحوَهُ مُقترِبَةً مِنهُ أكثَرَ، وقبَّلَتْ وجهَهُ. «و. . . أعدُكَ بِأنْ أُحاوِلَ أنْ أجْعَلَ الأمورَ أفضَلَ بالنِّسبَةِ لكَ.»

وهذِهِ المرَّةُ عِندَما زأرَ (دُبّ)، ارتَدَّ زئيرُهُ عَنْ جُدرانِ الكَهْفِ، ودخَلَ مُجلجِلًا إلى صَميمِ قلبِها.



الفصلُ السّادسَ عشرَ

دروسٌ في الزَّئيرِ

قَضَيا بَقيَّةَ اليومِ في الاسْتكشافِ.

في البدايَةِ، أخَذَها (دُبّ) إلى الأطْرافِ القَصِيَّةِ شَرْقًا، حيثُ وَقَفا عَلى أبعَدِ حافَّةٍ للجَزيرةِ، عَلى قِمَّةِ بعضِ الأجْرافِ النّاتئَةِ الّتي انْحدرَتْ نَحْوَ الأمْواجِ الرَّمادِيَّةِ الهائجَةِ.

وعَلى الرَّغمِ مِنْ أنَّهُما وقَفا بِالقرْبِ مِنَ الحافَّةِ، وعَصَفَتْ بِهما رِياحُ البحرِ الغاضِبَةُ مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ، فإنَّ إبريل لَمْ تَشعُرْ

مُطلَقًا بِعَدِمِ الأمانِ - ليسَ وَ(دُبّ) مَعها يَحرُسُها ويحْميها. لا يمكِنُ أنْ تكونَ غيرَ آمِنَةٍ معهُ.

«أريدُ أنْ أتَعلَّمَ الزَّئيرَ مثلَكَ!» صَرخَتْ مِنْ فوقِ الأمْواجِ. لِحُسْنِ الحَظِّ، لَمْ يكنْ عَليها أنْ تَنتظِرَ وقْتًا طَويلًا لِتُشاهِدَ وتتَعَلَّمَ. وقَفَ (دُبّ) عَلى قائمَتَيْهِ الخَلْفِيّتَينِ، وجَأَرَ بِذلِكَ النَّوعِ مِنَ الزَّئيرِ الرّاعِدِ الّذي انْطَلَق فالِقًا الهواءَ فوقَ الأمْواجِ مِثْلَ الصّخورِ حتَى ذَوى في المَدى البَعيدِ.

حاولَت أنْ تفعَلَ الشَّيءَ نفْسَهُ، لكنَّ زَئيرَها سقَطَ في البحْرِ عَلى بطنِهِ في خَبْطَةٍ ثَقيلَةٍ مُطَرْطَشَةٍ.

أراها (دُبّ) كيفَ تنفُخُ صَدْرَها إلى الخارِجِ، وتقِفُ شادَّةً قامَتَها أطوَلَ ما تستَطيعُ - ثُمَّ أطوَلَ - وأنْ تجعَلَ الزَّئيرَ يَرتحِلُ لِلأعْلى مِنْ جَوفِها، فيخرُجُ مِنْ أعمَقِ وأوحَشِ جُزءٍ فيها.

كانَ زئيرُها الثّاني أفضَلَ قليلًا، لكنْ لَيسَ قريبًا مِنْ زَئيرِ (دُبّ) الصّامِّ للآذانِ.

تَدَرَّبتْ إبريل وتَدَرَّبتْ حتّى نظرَتْ إلى ساعَتِها، وأدركَتْ أنَّها قاربَتِ الحاديةَ عشرَةَ مساءً. لكنَّها لَمْ تشعُرْ بِالتَّعَبِ عَلى الإطلاقِ. هذا ما يحدُثُ مَعَ الشَّمسِ المُشرقَةِ طَوالَ الوَقْتِ. فمِنْ دونِ الظَّلامِ، لَمْ يكُنْ هُناكَ ما يشعِرُكَ بِالنُّعاسِ.

قالت إبريل: «عَلى أيٍّ حالٍ، وَجَبَ عَلَيَّ الذَّهابُ إلى المنزِلِ، لكنْ يُمكِنُنا العَودَةُ غدًا، ألَيْسَ كَذلِكَ؟ ويمكِنُني المحاوَلَةُ مَرَّةً أُخْرى؟»

ارتعشَتْ أُذُنا (دُبّ) فَعَدَّتْ ذلِكَ دَليلًا عَلى مُوافَقَتِهِ. وهكَذا عادا لِتَتَدَرَّبَ عَلى الزَّئيرِ بعدَ ذلكَ كُلَّ يومٍ تَقريبًا.

مَعَ كُلِّ زَئيرٍ، أصبحَتْ إبريل أقرَبَ بِقليلٍ مِنْ دُبٍّ، وأبعَدَ بِقليلٍ عَنِ الإنسانِ. لَمْ يكُنْ مُهِمًّا أنَّها كانتْ صغيرَةً. كانَ المُهِمُّ فقطْ مَدى رَغبَتِها في أنْ تُسمِعَ صوتَها.

لَمْ تكُنْ تلْكَ اللِّقاءاتُ كُلُّها مِنْ أجْلِ الزَّئيرِ فقطْ، فبينَما استمَرَّ (دُبّ) بالنُّمُوِّ واكتِسابِ مزيدٍ مِنَ القُوَّةِ، أخَذَها في رِحْلَةٍ إلى نقطَةٍ في أقْصى غَربِ الجَزيرةِ حيثُ انْحَدَرَتِ الأرْضُ إلى البحْرِ عَلى شكْلِ جَلاميدَ عملاقَةٍ نَحَتَتْها الأمْواجُ، وشَظايا صخرِيَّةٍ خَشِنَةٍ مُدَبَّبَةٍ نَتَأَتْ خارِجَ الماءِ مِثْلَ سَكاكينَ.

«لَمْ أكُنْ أعْرِفُ أنَّ مَكانًا مِثْلَ هذا مَوجودٌ هُنا، يا (دُبّ)،» تَنَفَّسَتْ مُمْتَلِئَةً بِالدَّهشَةِ. «هذا جميلٌ لِلغايَةِ! لكِنْ . . . أنتَ لَنْ تقفِزَ عَلى الجَلاميدِ، ألَيْسَ كَذلِكَ؟ أوه! أنتَ تَفعَلُ ذلِكَ!'

مَعَ الوَقْتِ، صارَ رُكوبُ (دُبّ) أسْهَلَ، خاصَّةً عنْدَما تضغَطُ بِرُكْبَتَيها عَلى خاصِرَتَيهِ الصُّلْبَتينِ، وتَشُدُّ عَضَلَةَ بَطْنِها؛ لِتَحفَظَ

تَوازُنَها.

تَشَبَّثَتْ بِإحكامٍ وهُوَ يُحَلِّقُ مِنْ جُلْمودٍ إلى جُلْمودٍ كأنَّها الحَصى المرصوصَةُ لِلسَّيْرِ، ثُمَّ قَفَزَ أبعدَ فَأَبْعَدَ داخِلَ البَحرِ بينَما الماءُ البارِدُ حَدَّ التَّجَمُّدِ يَنْهَشُ كَعْبَيها طَوالَ الوَقْتِ.

قفزَ إلى رأسِها تَحذيرُ والِدِها بِعَدَمِ الاقْترابِ كَثيرًا مِنْ حافَّةِ البحرِ، لكنَّها تَجاهلَتْهُ. ففي نِهايةِ الأمْرِ، كانَ ما قالَهُ لَها هوَ عَدَمُ رَغبَتِهِ في أنْ تَقترِبَ مِنْ حافَّةِ البَحرِ بِمُفْرَدِها.

لكنَّها لَمْ تكُنْ بِمُفْرَدِها، أليسَ كَذلِكَ؟

«امْسِكيني إذا اسْتَطَعْتِ أيَّتُها الأمْواجُ!» صاحَتْ ضاحِكَةً بَينَما قَفَزَ (دُبّ) أعلى.

في يومٍ آخَرَ - رُبَّما في اليومِ التّالي، أوِ اليومِ الّذي بعدَهُ، أو حتّى الّذي تَلاهُ - أخَذَها (دُبّ) إلى داخلِ الجَزيرةِ حيثُ، مَعَ كُلِّ طاقَتِهِ الجديدةِ الّتي اكْتَسَبَها، قفزَ عَبْرَ البُحيراتِ الزَّرقاءِ المُتَلَأْلِئَةِ كَما لَوْ أنَّهُ كانَ يَثِبُ فوقَ بِرَكِ الماءِ الصَّغيرةِ.

توقَّفَ عندَ بُحيرَةٍ بِعَينِها ذاتِ مِياهٍ زَرقاءَ زاهِيَةٍ بِلونِ سَماءِ الصَّيفِ.

«بُحيرَةٌ عَلى شَكْلِ قَلْبٍ!» جَثَمَتْ إبريل بِالقُرْبِ مِنْ حافَّةِ البُحيرةِ، ومَرَّرَتْ أصابِعَها عَبْرَ الماءِ البارِدِ البِلَّوْرِيِّ.

بَحْلَقَتْ فيهِما صورَتُهُما المُنْعَكِسَةُ بِضَبابِيَّةٍ عَلى سَطْحِ الماءِ، كانَتْ مُتَلَأْلِئَةً وراقِصَةً كأنَّها مفعَمَةٌ بِالحَياةِ وُمُبهِرَةٌ مِثْلُهُما تمامًا.

«بحيرةٌ عَلى شَكْلِ قَلْبٍ لَنا نحنُ فقطْ. انظُرْ كَمْ أنا صَغيرةٌ مُقارَنَةً بِكَ! أنا صَغيرةٌ جِدًّا، لكنَّنا نَصنعُ ثُنائِيًّا جَيِّدًا،» قالت إبريل. «أَلَيْسَ كذلِكَ يا دُبُّ؟ نحنُ نصنعُ *أفضلَ* ثُنائِيٍّ،»

وفَرَكَ (دُبّ) كَتِفَها بِأَنْفِهِ.

مَعَ انْقضاءِ يونيو، وحلولِ يوليو، أخَذَها إلى جانِبٍ مِنَ الجَزيرةِ حيثُ نَمَتْ مُنْتشرَةً أزهارٌ أُرْجوانِيَّةٌ صَغيرةٌ. ثُمَّ أخَذَها إلى أعْلى الجبَلِ حيثُ كانَ الثَّلْجُ لا يزالُ مَفْروشًا في طَبَقاتٍ سَميكَةٍ بارِدَةٍ؛ لأنَّهُ حتّى وإنْ حَلَّ فَصْلُ الصَّيفِ كانَ الجَوُّ ما يزالُ مُتَجَمِّدًا تَقريبًا.

في أكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أحضَرَتْ إبريل الزَّلّاجَةَ مَعَها، وتزحْلَقَتْ أسفلَ الجَبلِ بِصرخَةٍ ضاحِكَةٍ.

فعلَتْ كُلَّ الأشياءِ الّتي تاقَتْ لِفِعْلِها عندَما سمعَتْ لِأوَّلِ مَرَّةٍ أنَّها ووالِدَها كانا قادِمَيْنِ إلى الدّائرَةِ القُطبيَّةِ الشَّمالِيَّةِ، وطارَ قَلْبُها عالِيًا نحوَ السَّماءِ مِنْ فَرْطِ السَّعادَةِ.

في يومٍ آخَرَ، جَمَعا كُلَّ القُمامَةِ في خَليجِ (والْروس)

وساعدَها (دُبّ) في سَحْبِ الزَّلّاجَةِ إلى المنزلِ - مَعَ حِرْصِها عَلى ألّا يَراهُ والِدُها.

لَمْ يتبَقَ أيُّ جُزْءٍ مِنَ الجَزيرةِ لَمْ يَسْتكشِفاهُ معًا، اسْتَكْشَفا كُلَّ سِرٍّ، كُلَّ رُكْنٍ، كُلَّ صَدْعٍ، كُلَّ حافَّةٍ، كُلَّ جانِبٍ، وُكُلَّ شِبْرٍ مِنَ الجَزيرةِ. اسْتَكْشَفا كُلَّ البُحيراتِ، كُلَّ الكُهوفِ، كُلَّ الجِبالِ، كُلَّ الجَداولِ. اسْتَكْشَفا كُلَّ الشَّواطئِ على الجَزيرةِ؛ الشَّواطئِ الرَّمِليَّةِ، وتلكَ المَرصوفَةِ بِالحَصى، وتلكَ الّتي لَمْ تَبْدُ حتّى كَشواطِئَ، الشَّواطئِ المتوارِيَةِ، والشَّاطئِ الّذي نزلَتْ إبريل ووالِدُها عَليهِ عِنْدَما وَصَلا إلى هُنا.

لَمْ تفكِّرْ كَثيرًا في ذلِكَ اليومِ الأوّل. فقَدْ كانَ بَعيدًا في ذاكِرَتِها مِثْلَ حَياتِها القَديمَةِ في مَوْطِنِها؛ كَسرابٍ ضَبابِيٍّ لَمْ تكُنْ لَتُصَدِّقَ أنَّهُ وُجِدَ عَلى الإطلاقِ.

بعدَ ظُهْرِ أحَدِ الأيّامِ في بِدايَةِ شَهرِ أُغسطس، كانَتْ تجلِسُ القُرْفُصاءَ عَلى الرَّملِ في خليجِ (والْروس) فيما كانَ (دُبّ) يلعَبُ بالأمْواجِ. اخْتَفى تحتَ السَّطحِ قَبْلَ أنْ يخرُجَ بِشارِبينِ تقطُرُ مِنْهُما مِياهُ البَحرِ.

بَدا مُختَلِفًا كَثيرًا في هذِهِ الأيّامِ. لَمْ يكُنْ ذلك لأنَّ مِعطَفَهُ صارَ أبيضَ لامِعًا ومُتَألِّقًا، أو لأنَّهُ كانَ يُشِعُّ بِتِلكَ القُوَّةِ الصّافِيَةِ

الّتي لا يُمْكِنُ أنْ يُطْلِقَها سِوى حيوانٍ - بلْ لحقيقةِ أنه كانَ سَعيدًا.

وعَلى الرَّغمِ مِنْ أنَّ إبريل لَمْ تُقابِلْ أيَّ دُبٍّ قُطْبِيٍّ آخَرَ مِنْ قَبْلُ، فإنَّها كانَتْ تعرِفُ كيفَ تَسْتَشِفُّ السّعادَةَ - رَفَعَ رأسَهُ بِزاويَةٍ مَرِحَةٍ، هَزَّ أنْفَهُ، وتدَحْرَجَ عَلى ظهرِهِ وساقاهُ مَثْنِيَّتانِ في الهواءِ، وراحَ يَتَلَوّى.

وعَلى الرّغمِ مِنْ أنَّ الأمْرَ انْطَوى عَلى مُخاطَرَةٍ كَبيرةٍ، فإنَّ إبريل شعرَتْ بِسعادَةٍ شديدةٍ؛ لأنَّها تجاهَلَتْ تحذيرَ تور وأنْصَتَتْ لإحساسِها الفِطْرِيِّ بَدلاً مِنْ ذلِكَ.

«أنا سعيدةٌ أيضًا،» قالتْ بِابتسامَةٍ مُماثِلَةٍ. «ليستْ لَدَيَّ شَوارِبُ يُمكِنُني هَزُّها، لكنْ أنا سعيدةٌ. كَما تعلَمُ، يا (دُبّ)، أعتقِدُ أنَّني أسعَدُ مِمّا كنتُ عليهِ في أيِّ وقْتٍ مِنَ الأوقاتِ.»

استمرَّتِ الأيّامُ تَمضي، لا يُميِّزُها عَنْ بعضِها سِوى بريقٍ مُلوَّنٍ مِنَ السَّعادَةِ.

لَمْ يكنْ هُناكَ غَسَقٌ، ولَمْ يكُنْ هُناكَ فَجْرٌ. حتّى ساعَتَها توقَّفَتْ - كانَ لِلأَمْرِ عَلاقَةٌ بِوُجودِها قريبَةً جِدًّا مِنَ القُطْبِ الشَّمالِيِّ.

وفي غِيابِ ما يمكِنُ أنْ يُنَبِئَ عَنِ الوقْتِ، امتزَجَ النَّهارُ

بِاللَّيلِ، وامتَزَجَ اللَّيلُ بِالنَّهارِ. لَمْ يَعُدِ الزَّمَنُ عَقْرَبينِ داخِلَ ميناءِ ساعَةٍ، بلْ شيئًا أزلِيًا وأبدِيًّا وساحِرًا.

كانَ الوقتُ صَيْفًا.

وكانَ *أفضَلَ* صَيفٍ.



الفصلُ السّابعَ عشرَ

الجَزيرَةُ تتحَدَّثُ

لكنْ إذا كانَتْ هُناكَ سَحابَةٌ واحدَةٌ في الأفُقِ، فَستكونُ مِنْ ذلِكَ النَّوعِ الَّذي يزدادُ قَتامَةً مَهْما طالَ شُروقُ الشَّمْسِ؛ لأنَّهُ كُلَّما استعادَ (دُبّ) مَزيدًا مِنْ قُوَّتِهِ الكامِلَةِ، ازدادَ قَلَقُ إبريل.

لَمْ يكُنْ قلَقُها هذا لأنَّها لا تَستطيعُ تَخَيُّلَ نَفْسِها وهي تودِّعُهُ. فهيَ لا تَقوى حتّى عَلى مُجَرَّدِ التَّفكيرِ في *ذلِكَ الأمْرِ*. كانَتِ المسألَةُ أسْوَأَ بِكثيرٍ. إذ ماذا سيحْدُثُ عِنْدَ رَحيلِها؟ كيفَ

سَيعيشُ بِمُفرَدِهِ في ذلِكَ الكَهْفِ المُظلِمِ الموحِشِ وَالرَّطْبِ لأشْهُرٍ أو حتّى لِسَنواتٍ أخْرى؟

تلكَ كانَتِ الأسئلَةُ الّتي أَرَّقَتْها وهيَ بعيدةٌ عنْهُ، وكانَ صوتُها يَزدادُ عُلُوًّا وإرْعابًا حينَ تَكونُ عَلى سريرِها؛ لأنَّها مَهْما تقلَّبَتْ واسْتَدارَتْ في فِراشِها، لا تنجَحُ في معرِفَةِ الإجاباتِ. فحتّى إنْ كانَ (دُبّ) قادِرًا عَلى إطعامِ نفْسِهِ الآنَ بَعْدَ أنْ شُفِيَتْ كَفُّهُ، فَالحقيقةُ هيَ أنَّهُ لا يَنْتَمي إلى هذا المكانِ.

لَمْ يكُنْ هذا مَوطِنَهُ.

كُلَّما فكَّرَتْ إبريل في الأمْرِ اتَّضَحَ لَها أنَّ (دُبّ) لا يمكِنُهُ البَقاءُ هُنا أبدًا. لكنْ ماذا تفعَلُ حِيالَ ذلِكَ؟ قرَّرَتْ إبريل في ليلَةٍ مُؤْرِقَةٍ أنَّ الجَوابَ في الأساسِ يكمُنُ في اكْتشافِ الطَّريقةِ الّتي انتهى به المَطافُ عَلى الجَزيرَةِ.

عقدَتْ إبريل العَزْمَ عَلى الحصولِ عَلى إجاباتٍ، وبِمجَرَّدِ اسْتيقاظِها في اليومِ التّالي، توجَّهَتْ مُسرعَةً إلى خليجِ (والْروس). وصلَتْ باكِرًا، ولمْ يكُنْ (دُبّ) قَدْ جاءَ بَعْدُ، فَصَفَّرَتْ لَهُ.

لَمْ تكُنْ مُجَرَّدَ صَفْرَةٍ تُخْرِجُها مِنْ بينِ أسْنانِها. كانَتْ صَفْرَةً احْتِرافِيَّةً تَنطلِقُ بِوَضْعِ إصْبَعينِ في فَمِها تَعَلَّمَتْها مِنْ مُشاهَدَةِ

الصَّيّادينَ بِالقُرْبِ مِنْ مَنْزِلِ الجَدَّةِ (أبلز).

لَمْ يُزْعِجْها أنَّ صَفيرَها لَمْ يَكُنِ الأعْلى، فأينَما يكونُ (دُبّ) عَلى الجَزيرَةِ، فَسيَتَمَكَّنُ دائمًا مِنْ سَماعِها. لقَدْ كانَ مُتَماهِيًا مَعَها بِالطَّريقَةِ التّي تُطَوِّرُ بِها الحَيواناتُ حاسَّةً سادِسَةً تِجاهَ البَشَرِ الَّذينَ يُحبّونَهُمْ. وهكَذا، بعْدَ ثَلاثينَ ثانِيَةً، لَمَحَتْ خَيالَهُ المألوفَ في الأفُقِ.

«تعال هنا!» لوَّحَتْ لَهُ بِيَدَيْها، وعندَ وُصولِهِ ألقَتْ إلَيْهِ بِعُلْبَةِ قَصْديرٍ مِنْ سَمَكِ الإسقَمْرِيِّ بِالزَّيتِ. «لَنْ تأكُلَ زُبدَةَ الفولِ السّودانيِّ اليومَ. يُمكِنُكَ الحصولُ عَلى هذِهِ بَدَلًا مِنْها.»

كانَ مِنَ المُقْلِقِ بِالنِّسبَةِ لَها تَناقُصُ بَرطماناتِ زُبدَةِ الفولِ السّودانيِّ بِسرعَةٍ كبيرةٍ، كَما حدَثَ مَعَ المُؤَنِ الأخْرى. في الحقيقةِ تَبَقّى في المَخْزَنِ أقَلُّ مِنْ ثُلُثِ الطَّعامِ الَّذي كانَ فيهِ. لِحُسْنِ الحَظِّ، لَمْ يَدْخُلْ والِدُها غرفَةَ المُؤَنِ عَلى الإطلاقِ؛ لذلِكَ لَمْ يَلْحَظْ شيئًا، لكنَّ ذلِكَ كانَ مَصدرَ قَلَقٍ آخَرَ يَقرَعُ رأسَها بِاسْتمرارٍ.

في نِهايَةِ الأمْرِ أكَلَ (دُبّ) سَمَكَ الإسْقمرِيِّ بارِدًا مُباشَرَةً مِنْ عُلْبَةِ القَصديرِ. ثُمَّ تَجَشَّأَ مِنَ الشَّبَعِ.

«أحْضَرْتُ بعْضَ الأشياءِ لِأُريها لَكَ اليَومَ،» قالَتْ، محاوِلَةً ألّا

تَجْفَلَ مِنْ رائحَةِ أنْفاسِهِ. «فكَّرْتُ أنَّكَ قَدْ ترغَبُ في رؤيَتِها.»

فَرَشَتْ إبريل بَطّانِيَّةَ النُّزْهَةِ عَلى الأرضِ وتَربَّعَتْ عَلَيْها في حينِ جَلَسَ (دُبّ) يَلْعَقُ شَفَتَيْهِ عَلى لَوْحٍ خَشَبِيٍّ. «انْظُرْ، هذِهِ حَصاتي الّتي عَلى شَكْلِ قَلْبٍ. إنَّها مِنَ الشّاطئِ القريبِ مِنْ منزلِ الجَدَّةِ (أبلز) وأنا أنامُ مَعَها دائمًا، أضَعُها تحتَ وِسادَتي لِتَجْلِبَ لِيَ الحَظَّ. وهذِهِ صورةٌ لِأُمّي وَأبي. التُقِطَتْ في يومِ زَفافِهِما. نعمْ، معَكَ حَقٌّ. يبدو أبي مُبْتَسِمًا بِسَعادَةٍ هُنا.» حَدَّقَتْ في الصّورَةِ. لقَدْ نظرَتْ إلَيْها آلافَ المَرّاتِ مِنْ قَبْلُ، لكِنْ تَحتَ نَظراتِ (دُبّ) المُتَفَرِّسَةِ بَدا الأمْرُ كَما لَوْ أنَّ عَيْنَيْها القَديمَتينِ قَدْ بُدِّلَتا، وكانَتْ تَراها لِلمَرَّةِ الأولى. «في الحَقيقةِ، لَديهِ ابتسامَةٌ لَطيفَةٌ، ألَيْسَ كَذلِكَ؟ إنَّها في عَينيْهِ. الطَّريقَةُ الّتي تَتَغَضَّنانِ بِها عِنْدَ طَرَفَيْهِما مِثْلَ النّجومِ.»

ارتعشَتْ أُذُنا (دُبّ)، وطابَ لإبريل أنْ تفكِّرَ أنَّ ذلِكَ كانَ دَليلًا عَلى مُوافقَتِهِ.

«أنا . . . أنا فقطْ أتَمَنّى لَوْ أنَّ أبي يبتَسِمُ لي بِهذِهِ الطَّريقَةِ هذهِ الأيّامِ.»

تنهَّدَتْ واحِدَةً مِنْ تِلْكَ التَّنهيداتِ الّتي تَأتي مِنْ مَكانٍ عَميقٍ جِدًّا، واستغرَقَ الأمْرُ لَحَظاتٍ لِتَستعيدَ صوتَها مَرَّةً أخْرى.

«لقَدْ تَمنَّيْتُ أنْ يُقرِّبَنا هذا الصَّيفُ مِنْ بعضِنا،» قالتْ بِهدوءٍ. «لكنَّهُ لَمْ يفعلْ. وإذا فَعَلَ شيئًا فقَدْ فرَّقَنا عَنْ بَعضِنا أكثرَ مِنْ أيِّ وقْتٍ مَضى.»

بِما أنَّ إبريل لَمْ تَعرِفْ كيفَ تُحسِّنُ الأمورَ مَعَ والِدِها، رفعَتْ ذَقنَها، ونفضَتِ الأفكارَ السَّيِّئَةَ مِنْ رأسِها، وعندَها فقطْ تذكَّرَتِ السَّبَبَ الرَّئيسَ الَّذي اندفعَتْ لِأجْلِهِ مُسرِعَةً إلى الخَليجِ.

«(دُبّ)، أتمَنّى لَوْ كنتُ أعرِفُ قصَّتَك أيضًا. أنتَ هُنا بمفردِكَ، لكنْ لا بُدَّ أنَّ لديكَ أمًّا وأبًا مِثْلي.»

نظرَتْ إلى وَجْهِ (دُبّ) بِتَرَقُّبٍ، لكِنَّ تَعابيرَهُ لَمْ تتغَيَّرْ. لَمْ تتوقَّعْ مِنْهُ أنْ يُجيبَها - لَمْ تكُنْ مغفَّلَةً إلى هذا الحَدِّ. لكنَّها بِبَساطَةٍ تأمَّلَتْ أنْ تَرى منْهُ شيئًا مِثْلَ إشارَةٍ تُساعِدُها عَلى فَهْمِ ماضيه. لكنَّ (دُبّ) تَثاءَبَ فقطْ، وألْقى بِرأسِهِ عَلى كفَّيْهِ الأمامِيَّتَينِ، ثُمَّ أغمَضَ عينَيْهِ.

زَفَرَتْ بِبطءٍ، ثُمَّ انْحنَتْ إلى الأمامِ، ودلَّكَتِ المساحَةَ الّتي بينَ أذنَيْهِ. لَنْ تستسلِمَ - هِيَ فقطْ بِحاجةٍ لِلعثورِ عَلى المِفتاحِ الَّذي سَيكشِفُ لَها ماضيهِ.

جلسَتْ تُراقِبُهُ وهُوَ نائمٌ. قدْ يَبدو غَريبًا بِالنِّسبَةِ لِأناسٍ آخَرينَ أنْ تُشاهِدَ حَيوانًا وهُوَ نائمٌ فَحَسْبُ. لكنْ في الواقِعِ،

كانَتْ إبريل تعرِفُ أنَّها مِنْ أكثَرِ الهَدايا المُمَيَّزَةِ الّتي يُمكِنُ أنْ يَمنَحَها حَيوانٌ لِإنسانٍ، فقدْ أكَّدَتْ لَها مدى ثِقَةِ (دُبّ) بِها. كانَتْ قادرةً عَلى أنْ تَبوحَ لَهُ بِأعمَقِ مَشاعِرِها الدَّفينَةِ كُلِّها، وكانَ وُجودُ مَنْ تَبوحُ لَهُ بِها شُعورًا جديدًا. كانَ بِإمكانِها أنْ تخبِرَ (دُبّ) بأيِّ شيءٍ في العالَمِ بِأسرِهِ، وهوَ لَمْ يَسخَرْ مِنْها، ولا حتّى مَرَّةً واحدةً أوْ يجعَلْها تشعُرُ بأنَّها بَلهاءُ.

وبفضلِ هذا كُلِّه، كانَ (دُبّ) أفضلَ صَديقٍ عَرفتْهُ عَلى الإطلاقِ.

عندَما استيقَظَ أخيرًا، وتثاءَبَ بِصوتٍ عالٍ، قفزَتْ عَلى ظهرِهِ، ثُمَّ شَرَعَ يعدو قافِزًا حتّى تَجاوَزَ نِصْفَ المسافَةِ إلى أعْلى الجبلِ مُتَوسِّطِ الحَجْمِ. وهناكَ عَلَّمتْهُ كيفَ يصنعُ كُراتِ الثّلْجِ بالضَّغْطِ عَليها بِشِدَّةٍ في قَبْضَتَيْها مِثْلَ كُراتِ الجولْفِ، وكيفَ يَتَراشَقانِ بِها. صنَعا ملائكَةً عَلى الثَّلجِ، ثُمَّ أمْضَيا وقْتَ الغَداءِ في تَدريبِها عَلى الزَّئيرِ، وبعدَ الظَّهيرَةِ في تعليمِها كَيفيَّةَ شَمِّ الهَواءِ.

كانَ عَلَيها أنْ تَستنشِقَ بِعمْقٍ حَقًّا.

لَمْ يكُنْ لَديها أنْفٌ مِثْلَ أنْفِهِ، لكنْ بَعْدَ أسابيعَ مِنَ التّدريبِ تَمكَّنَتْ أخيرًا مِنْ شَمِّ رائحةِ الثَّلجِ الصُّلْبَةِ لِلأغطِيَةِ الجَليديَّةِ المتحَرِّكَةِ في القُطبِ الشَّماليِّ.

كانتْ رائحتُها حادَّةً ونظيفَةً، مِثْلَ قَواريرَ زُجاجِيَّةٍ.

عَلَّمها (دُبّ) أيضًا كيفَ تَعرِفُ الاتِّجاهَ الَّذي تَهُبُّ مِنهُ الرّيحُ، وإذا كانَ الثَّلجُ قادِمًا أوْ إنْ كانَتِ العاصِفةُ قريبةً، أوْ حتّى إذا كانَ الهواءُ مُحمَّلًا بِالمطَرِ.

لكنْ في عصْرِ هذا اليومِ بِالذّاتِ، كانَ أفضَلُ شيءٍ فَعلاهُ، هُوَ أنَّهُ عَلَّمَها الإصْغاءَ. ليسَ أنْ تسمَعَ فقطْ مِثلَما نَسمَعُ أنا وأنْتَ. بَلْ أنْ تَسمعَ *حَقًّا*.

عندَما أمالَتْ رأسَها، وفتحَتْ أُذنَيها، اسْتطاعَتْ أنْ تَسمَعَ نُدَفَ الثَّلْجِ وهيَ تَتساقَطُ عَلى قِمَمِ الجِبالِ، صريرَ وَأزيزَ سُفُنِ الشَّحْنِ البَعيدَةِ عَنِ الأنظارِ، وحتّى تَنَهُّداتِ والِدِها محمولَةً في النَّسيمِ. ثُمَّ، عندَما توقَّفَ تَساقُطُ البَرَدِ، وظهرَتِ الشَّمْسُ مِنْ جَديدٍ، ولَمْ يكُنْ بِمقدورِهِما مَعرفَةُ إنْ كانَ الوقْتُ بَعْدَ الظّهيرَةِ



أوِ المساءِ أوْ حتّى اليومِ التّالي، عَلَّمَها كيفَ تُصْغي إلى الجَزيرَةِ نَفْسِها.

بالطَّبْعِ، في البدايَةِ لَمْ يكُنْ لَدَيْها أيُّ فِكرةٍ عَمّا كانَ يَفعَلُهُ. راقَبَتْهُ بِفُضولٍ وهُوَ يتمَدَّدُ مُنْبَطِحًا عَلى الجليدِ، وأذنُهُ مَضْغوطَةٌ إلى الأرضِ. مَرَّتْ ثَوانٍ طَويلةٌ، ولَمْ تَسمَعْ سِوى صَوتِ الزَّفيرِ الرَّقيقِ لِأنفاسِها.

«ما الَّذي تَستَمِعُ إلَيهِ؟» سألَتْهُ أخيرًا.

ومِنْ دونِ إجابَةٍ قادِمَةٍ مِنهُ، كانَ الشّيءُ الوحيدُ الَّذي أمْكَنَها فِعلُهُ هوَ اكْتشافُ الأمْرِ بِنَفْسِها.

قلَّدَتِ الطَّريقَةَ الّتي سَطَّحَ بِها (دُبّ) نَفْسَهُ عَلى الجليدِ، واستَلْقَتْ بِأُذُنِها مَضغوطَةً إلى الأرضِ. في البِدايَةِ لَمْ تَسمَعْ شَيئًا سِوى أنفاسِها الحارَّةِ أوِ الرّيحِ في أُذُنَيها أوْ صَوتِ الأمْواجِ



في البَعيدِ. لكنْ بعدَ بِضْعِ دَقائقَ، بَدأتْ تَسمَعُ شَيئًا آخَرَ. شَيئًا مُنفَصِلًا عَنْ كُلِّ ذلِكَ. شيئًا قادِمًا مِنْ مركَزِ الأرضِ نفسِها.

«أستطيعُ السَّماعَ!» شهَقَتْ. «أستطيعُ سَماعَ الجَزيرَةِ!»

كانَ الصَّوتُ مِثْلَ الضَّوضاءِ الّتي تَسمعُها عندَما تضَعُ صَدَفَةً قُرْبَ أُذُنِك، أوْ صَوتَ الرّياحِ في أُذُنَيْكَ عندَما تكونُ راكِبًا قِطارَ المَلاهي الأُفْعوانِيَّ، أوْ هَمْسَ الأشجارِ في أرضٍ سِحْرِيَّةٍ بعيدةٍ جِدًّا.

«هذا جميلٌ!»

استلقَتْ وَأُذُنُها مَضغوطَةٌ إلى الأرضِ لِساعاتٍ.

كانَ الأمْرُ أشْبَهَ بِالنَّومِ عَلى أرجوحَةٍ شَبكِيَّةٍ مُعلَّقَةٍ بينَ شَجرتَينِ، وما كادَتْ إبريل تغفو حتّى فَعَلَتِ الجَزيرَةُ شَيئًا مُضحِكًا.

تَنهَّدَتْ.

انْتَصَبَتْ أُذُناها.

لا يمكِنُ لِلجُزُرِ أنْ تتَنَهَّدَ، أَليسَ كَذلِكَ؟ أَنصَتَتْ بِشِدَّةٍ أكْبَرَ. وانْطلَقَتْ مَرَّةً أخْرى. التَّنهيدَةُ. لكنَّها لَمْ تكُنْ تَنهيدَةً سَعيدَةً راضِيَةً – ليستْ تِلكَ الّتي تُطْلِقُها بعدَ تَناوُلِ وجْبَةِ عيدِ ميلادِكَ أوْ قطعَةٍ كامِلَةٍ مِنَ الشّوكولاتَةِ البَيضاءِ. كانَتْ ذاكَ النَّوعِ *الآخَرِ*

مِنَ التَّنْهيدِ. التَّنهيدَةُ الّتي يُطْلِقُها الكِبارُ عِندَما يُشاهدونَ الأخْبارَ، أوْ يَفتحونَ كَشْفَ الحِسابِ المَصْرِفِيِّ أوْ حينَ يَرفعونَ سَمّاعَةَ الهاتِفِ فَيَتَلَقَّوْنَ نَبَأً سَيِّئًا.

ذاكَ النَّوعِ مِنَ التَّنْهيدِ.

ارتعَدَتْ إبريل واسْتقامَتْ جالِسَةً. ضغطَتْ عَلى أنْفِها، ونَفَخَتْ بِشِدَّةٍ. لكنَّ صَوتَ الجَزيرَةِ كانَ ما زالَ يَرِنُّ في أُذُنَيها.

«(دُبّ)؟» نظرَتْ نَحوَهُ بِقَلَقٍ. «هلْ سَمِعْتَ ذلِكَ؟»

رفَعَ نَفْسَهُ مِنْ عَلى الأرضِ. وَببطءٍ اسْتدارَ لِيواجِهَها. كانَتْ أخيرًا عَلى وَشَكِ اكْتِشافِ السَّبَبِ الَّذي مِنْ أجلِهِ انْتَهى الأمْرُ (بِدُبّ) عالِقًا في الجَزيرَةِ.



الفصلُ الثّامنَ عشرَ

قِمةُ الجَبَلِ

قَبْلَ أنْ تَفهَمَ حتّى كيفَ حَدَثَ ذلِكَ، كانتْ قَدِ امْتَطَتْ ظَهْرَ (دُبّ) وشَرَعا يَعْدُوانِ نَحْوَ جُزءٍ مِنَ الجَزيرَةِ لَمْ تَكُنْ قَدْ تعرَّفَتْهُ بَعْدُ.

اقْتَرَبا مِنَ الجِبالِ سالِكَيْنِ طَريقًا لَمْ يَسبِقْ لَهُما السَّيرُ فيهِ، حيثُ انْجَرفَتْ جَداوِلُ الجَليدِ مُندفِعَةً صَوْبَ البَحْرِ، ونَمَتْ نَباتاتُ الجَولَقِ سَميكَةً وأُرْجوانِيَّةً. وبينَما عَبَرَ (دُبّ) البُحيراتِ

قَفْزًا، طارَتْ أسْرابُ النَّوارِسِ، وتفَرَّقَتْ في الهواءِ.

عَلى يمينِهِما، عَلَتِ الأمواجُ الرَّمادِيَّةُ وتقَلَّبَتْ، وفي مَكانٍ ما في البَعيدِ، فَرَّ ثَعلَبٌ قُطْبيٌّ مِنَ الخَوفِ.

مِنْ عَلى مَسافَةٍ قريبَةٍ، كانَتِ الجِبالُ مَصنوعَةً مِنْ غَرانيتَ بِلونِ الحَديدِ، قاسيَةً وَمَهيبةً وشاهِقَةَ الارْتِفاعِ، تَصْدَحُ النَّوارِسُ عَلى كُلِّ جُزْءٍ مِنْها بِزَعيقِها وصياحِها ونقيرِها وصُراخِها.

تفرَّقَتْ النَّوارِسُ في هذا الاتِّجاهِ وَذاكَ حينَ جَرى (دُبّ) مُتقافِزًا بَينَها، واتَّجَهَ مُباشَرَةً نَحوَ الجَبَلِ الأكبرِ والأكثرِ انْحدارًا وإرْعابًا عَلى الإطلاقِ.

ثُمَّ بَدَأَ يَتسلَّقُ الجَبَلَ.

كانَ الجَبَلُ مُنحدِرًا. كانَ شَديدَ الانْحدارِ في بعضِ الأماكِنِ لِدرجَةٍ دَفعَتْ إبريل إلى التَّشَبُّثِ (بدُبّ) بِقوَّةٍ خشيَةَ أنْ تنزلِقَ فَتتدَحْرَجُ إلى سَفْحِ الجَبلِ، وتفقِدَ حياتَها. كانَ شَديدَ الانْحدارِ في بعضِ الأوقاتِ لِدرجَةٍ جَعلَتْهُما يَشعُرانِ بِضرورَةِ الاسْتِدارَةِ والعودةِ. كانَ مِنْ غيرِ المُمكِنِ أنْ يَستمِرَّ.

لكنَّهُ استَمَرَّ. مُتقدِّمًا وصاعِدًا.

كانَتْ تِلكَ شَهادَةً عَلى قُوَّتِهِ الجامِحَةِ أوْ عَزيمَتِهِ أوْ فقطْ شَجاعَتِهِ الدّاخِلِيَّةِ. صَعِدَ مُتسلِّقًا بِمخالِبِهِ وزاحِفًا بِجَسَدِهِ

وأطْرافِهِ حتّى اقْترَبَ مِنْ قِمَّةِ الجَبَلِ، كانَتِ القِمَّةُ صَخرَةً مائلَةً مُغطّاةً بِالثَّلجِ بِالكادِ أكبَرَ مِنْ مَقصورَةِ الأرصادِ الجَوِّيَّةِ. كَإبرَةٍ حادَّةٍ تَخترِقُ السَّماءَ الزَّرقاءِ.

بَدا مِنَ المُؤَكَّدِ لإبريل أنَّ (دُبّ) لَنْ يَتَمَكَّنَ بَتاتًا مِنْ تَسَلُّقِ هذا الجزءِ الأخيرِ مِنَ الجَبَلِ، فقَدِ انْتَصبَتِ الصَّخْرةُ أمامَهُما كَحائطٍ غرانيتيٍّ عَصِيٍّ عَلى التَّسلُّقِ.

انْعَصَرَ قلْبُها في صَدْرِها، وضغَطَتْ أصابِعُها بِشِدَّةٍ حتّى بَدأَتْ مَفاصِلُها تُؤلِمُها.

تباطَأَ (دُبّ) لِلَحَظاتٍ. انْخفَضَ ثانِيًا رُكَبَهُ، أَخَذَ نَفَسًا قوِيًّا عَميقًا حتّى أعْماقِ روحِهِ، ثُمَّ قَفزَ. قَفزَ عَبْرَ السَّماءِ طائرًا إلى القِمَّةِ.

وتوقَّفَ الزَّمَنُ.

لَمْ يَعُدْ هُناكَ شَيءٌ سِوى هذِهِ اللَّحظَةِ.

هذِهِ اللَّحظَةِ الثَّمينَةِ الجَميلَةِ المُعَلَّقَةِ.

اللَّحظَةِ الَّتي تَشَبَّثَتْ عِندَها إبريل (بدُبّ)، وتَشَبَّثَ (دُبّ) بِها، وطارا مَعًا عَبْرَ السَّماءِ. وغَرِقَ كُلُّ شَيءٍ في الصَّمْتِ، صَمْتِ *الأشياءِ اللَّحظيَّةِ العَظيمةِ.*

دامَتْ تلكَ اللَّحظَةُ عُمْرًا بِأكْمَلِهِ، رُبَّما إلى الأَبَدِ.

خِلالَ هذا الوَقْتِ الأَبَدِيِّ، تَدَفَّق سَيْلٌ مِنَ الأفكارِ إلى رَأْسِ إبريل. كيفَ بَدَتِ القِمَّةُ وَكأنَّها لا تزالُ بَعيدةَ المُنالِ عَلى نَحوٍ موجِعٍ. كيفَ بَدا سَفْحُ الجَبَلِ بعيدًا جِدًّا عَلى نَحوٍ مُرعِبٍ. وكيفَ، عَلى الرَّغمِ مِنْ خَوفِها، وثقَتْ بِغريزَتِها في (دُبّ) وائْتَمَنَتْهُ عَلى حَياتِها، والأهَمُّ مِنْ كُلِّ ذلِكَ، كيفَ كانَ هذا الصَّيفُ هُوَ أفضَلُ وأجمَلُ صَيفٍ في حَياتِها. وشيءٌ آخَرُ لَمْ يكُنْ حتّى فِكْرَةً عَلى الإطلاقِ؛ لأنَّ الأفكارَ لَمْ تُصنَعْ لِهذا النَّوعِ مِنَ الأشْياءِ. لَقدْ كانَ شُعورًا.

كانَتْ تَطيرُ.

ولَمْ يكُنْ شُعورًا مِثْلَ أيِّ شُعورٍ اخْتَبَرَتْهُ عَلى الأرضِ.

كانَ غُيومًا تَتراقَصُ عَبْرَ السَّماءِ. كَواكِبَ بَعيدَةَ المَنالِ، وشُهُبًا وَمُذَنَّباتٍ مُتلألِئَةً بَرّاقَةً

كانَ شُعورًا *عَظيمًا*.

انْدَفَع الهَواءُ مُلامِسًا أذُنَيها، وشعرَتْ بِأنَّها طائرٌ، وقُبَيلَ أنْ تعتادَ شُعورَ انْعدامِ الوَزْنِ هذا، هَبَطا عَلى القِمَّةِ بِخَبْطَةٍ عِملاقَةٍ.

انْزلَقَتْ كَفّا (دُبّ) الأمامِيَّتانِ عَلى الثَّلجِ. تَطايَرَ الحَصى، وَتَساقَطَ عَنْ حافَّةِ الجبَلِ مُقَعْقِعًا لِيُلاقي حَتْفَهُ عَلى الصُّخورِ في الأسْفَلِ.

انْتَفَضَ (دُبّ) وانْتَصَبَ لاهِثًا، وفي النِّهايَةِ ارْتَمى عَلى بَطْنِهِ. صنَعَتْ أنفاسُهُ أشْكالًا في الهواءِ السّاكِنِ الحادِّ.

انزلَقَتْ إبريل مِنْ عَلى ظَهْرِهِ، وهبطَتْ ضارِبَةً الجَليدَ بِخِفَّةٍ. كانَتْ ساقاها تُؤْلِمانِها، ويَداها مُتَقَرِّحَتانِ مِنَ التَّشَبُّثِ بِإحكامٍ، وَأُذُناها تَلْتَهِبانِ، لكنَّ قَلْبَها كانَ مُشرِقًا ونابِضًا بِالحَياةِ.

لِلَحْظَةٍ، اسْتَلْقَتْ مُتَمَدِّدَةً عَلى ظَهْرِها؛ لِتَلْتَقِطَ أنْفاسَها. كانَتِ السَّماءُ فَوقَها قريبَةً بِما يَكفي لِتُلامِسَها.





كانَتْ عَلى ارتفاعٍ عالٍ جِدًّا! في أعْلى ارْتِفاعٍ بَلَغَتْهُ مِنْ دونِ أنْ تَستَقِلَّ طائرَةً. كانَتْ عَلى ارتفاعٍ كَبيرٍ لِلغايَةِ جَعَلَ رأسَها يسبَحُ، وفي فَمِها مَذاقُ شيءٍ صَعُبَ عَلَيْها تَمييزُهُ.

أدارَتْ رأسَها في اتِّجاهٍ واحِدٍ، ورأتِ الجَزيرَةَ كلَّها مفروشَةً تحتَها مِثْلَ لَوحَةٍ قُماشِيَّةٍ مُلوَّنَةٍ. بَدَتْ بُحيراتُها الَّتي تُعَدُّ بِالمئاتِ مِثْلَ بُقَعٍ زَرقاءَ زاهِيَةٍ. وامْتَدَّ خليجُ (والْروس) واسِعًا مِثْلَ ابْتسامَةٍ رَمليَّةٍ في البَعيدِ.

وفي أَبْعَدِ أبْعَدِ نُقطَةٍ في الجَنوبِ رأتْ نُقْطَتينِ صَغيرتَينِ حَمراوَينِ كانَتا محطَّةَ الأرصادِ الجَوِّيَّةِ.

عندَما أدارَتْ رأسَها في الاتِّجاهِ الآخَرِ، كانَ كُلُّ ما أمكَنَها رُؤيَتُهُ هوَ البَحْرُ. البَحْرُ والبَحْرُ ومزيدٌ مِنَ البَحْرِ. لقَدْ كانوا فِعلًا مُجرَّدَ ذَرَّةٍ في مُحيطٍ مِنَ اللّانهاياتِ الرّماديَّةِ. جعلَ ذلكَ جزيرةَ الدُبِّ تَبدو صغيرةً جِدًّا، وجعلَ إبريل تشعُرُ بِأنَّها صغيرةٌ جِدًّا عَلى نَحوٍ خارِقٍ. لكنْ ليسَ بِالطّريقةِ الَّتي كانَتْ تشعُرُ بِها سابِقًا. لقَدْ جَعَلَها تشعُرُ بأنَّها لا تُقهَرُ.

«(دبّ)؟» استقامَتْ جالِسَةً «أوه.» كانَ الهواءُ حادًّا ومريرًا وجليدِيًّا للغايَةِ لِدرجَةِ أنَّها شعرَتْ بِنوبَةِ دُوارٍ مُفاجئةٍ.

وضعَتْ رأسَها بينَ رُكبَتَيْها حتّى زالَ الدُّوارُ.

استغرَقَ الأمْرُ دَقيقةً، رُبَّما أكثرَ قَليلًا. وعندَما رفعَتْ رأسَها مِنْ جَديدٍ، لَمْ تَرَ (دُبّ) في البِدايةِ.

ثُمَّ رأتْهُ؛ كانَ جالِسًا خلفَها مُواجِهًا البَحْرَ ومحدِّقًا فيهِ. كانَ بِمقدورِ إبريل أنْ تَستَشْعِرَ حزنَهَ العَميقَ.

«(دُبّ)؟ أوه، ماذا بِكَ يا (دُبّ)؟ ما الخَطْبُ؟» أسرعَتْ إلى جانِبِهِ. «لماذا أنتَ مُستاءٌ؟»

بِالكادِ اسْتَطاعَتِ النَّظرَ إليهِ. لا يُلاحِظُ كثيرٌ مِنَ البَشَرِ حينَ تَشعُرُ الحَيواناتُ بِالألَمِ لأنَّها لا تُظهِرُ مَشاعرَها بِالطَّريقةِ نفْسِها. لكنَّ إبريل لَمْ تكُنْ كذلِكَ. ألّا نَرى تعابيرَ عَلى وجوهِ الحيواناتِ لا يَعْني أنَّها لا تَشعُرُ. ومشاعِرُ (دُبّ) كانَتْ حقيقيَّةً مِثْلَ مَشاعرِ أيِّ إنسانٍ: مُتدفِّقَةً وواضِحَةً ونقيَّةً.

كانَتْ عيناهُ هِيَ الأكثَرُ سوءًا. تحوَّلَتِ الشّوكولاتَةُ النّاعِمَةُ الذّائبَةُ إلى بِئرَينِ عَميقَينِ لا قاعَ لَهُما أَخافا إبريل مِنْ النَّظرِ فيهِما خَشيَةَ الغَرَقِ. كلُّ شيءٍ فيهِ كانَ يُشعُّ نوعًا مِنَ البُؤسِ الَّذي قَدْ تَجِدُهُ في مَقبرَةٍ فارغَةٍ مَهجورَةٍ ومَنسِيَّةٍ، أوْ في مِضمارِ سِباقٍ رُفِعَتْ فيهِ الخِيامُ لإِخفاءِ الحِصانِ الَّذي سَقَطَ. نُكِسَتْ أُذُنا (دُبّ) الجَميلَتانِ، وتمدَّدَتا مُسَطَّحتَيْنِ وقَريبَتَيْنِ مِنْ وَجْهِهِ فيما تعلَّقَ فَكُّهُ ثَقيلًا بِارْتِخاءٍ.

وفي تلكَ اللَّحظَةِ، أدركَتْ إبريل أنَّ تَنهيدَةَ الجَزيرَةِ كانَتْ صَدًى لِحُزْنِ (دُبّ) نَفْسِهِ.

«أوه، يا (دُبّ).»

في النِّهايَةِ، تولَّتْ غَريزَتُها زِمامَ الأمورِ.

اقْتَرَبَتْ مِنْهُ، وطوَّقَتْ رَقبَتَهُ بِذِراعِها، ضغَطَتْ بِخَدِّها عَلى فِرائهِ في المَكانِ النّاعِمِ المُزْغَبِ بَينَ أُذُنَيْهِ وَعينيهِ. ثُمَّ قَبَّلَتْ فِراءهُ؛ لأنَّ الجَميعَ يَعرِفُ أنَّ قُبُلاتِ الحَيواناتِ هيَ الأفضَلُ عَلى الإطلاقِ. قبَّلتْهُ. ثُمَّ قَبَّلَتْهُ مَرَّةً أُخْرى وَأُخْرى وَأُخْرى؛ لأنَّها عندَما كانتْ تشعرُ بِالاستياءِ، فإنَّ هذا كُلُّ ما كانَتْ تُريدُهُ حَقًّا. أنْ يحتَضِنَها أَحَدٌ، ويقبِّلَها ويجعلَ كُلَّ شيءٍ أفضَلَ.

«لا بُدَّ أنَّ شيئًا فظيعًا حَدَثَ جَعلَكَ حَزينًا جِدًّا، يا (دُبّ)،» همسَتْ، وذِراعاها تُطوِّقانِ رَقبَتَهُ. «وإذا كنتَ مُستَعِدًّا لِتُخبرَني، أعْدُكَ بأنْ أُصْغِيَ.»



الفصلُ التّاسعَ عشرَ

قِصَّةُ (دُبّ)

كانَتْ هذِهِ هيَ الطَّريقةُ الّتي رَوى بِها (دُبّ) قِصَّتَهُ لإبريل.

ليسَ بِالكلماتِ؛ لأنَّ الدِّببةَ القُطْبيَّةَ لا تستطيعُ الكَلامَ، لكنَّهُ لَمْ يكُنْ بِحاجَةٍ إلى الكَلماتِ عَلى أيِّ حالٍ. أحْيانًا لا تَستطيعُ كُلُّ الكَلِماتِ الّتي في العالَمِ أنْ تحكيَ قِصَّةً. بَدلًا مِنْ ذلِك، وكَما عَرفَتْ إبريل مِنْ واقعِ التَّجربَةِ، رَوى (دُبّ) قِصَّتَهُ بِالطَّريقةِ الّتي تَروي بها جميعُ الحَيواناتِ قِصَصَها.

تَطَلَّبَ الأمْرُ مِنْها أنْ تجلِسَ وتُنْصِتَ إليهِ كَما يَجِبُ فَحَسْبُ. تحتاجُ كَذلِكَ إلى جُرعَةٍ صِحِّيّةٍ مِنَ الغَريزةِ، والحَساسِيَّةِ، وقدرَةٍ حاذِقَةٍ لِتَملأَ الفَراغاتِ.

وعَلى قِمَّةِ الجَبَلِ، والرّيحُ تُصَرْصِرُ في أُذُنَيْها، والبَرْدُ يَقرِضُ وَجهَها، حبَسَتْ إبريل أنفاسَها وجلسَتْ وانتظَرتْ.

في البدايَةِ، سارَ (دُبّ) بِبَساطةٍ ذِهابًا وإيابًا مُقلِّبًا الثَّلْجَ تَحتَ أقدامِهِ إلى كُتَلٍ عَشوائيَّةٍ غاضِبَةٍ. لكنْ بَعْدَ بِضْعِ دَقائقَ، وقَفَ عَلى حافَّةِ القِمَّةِ البَعيدةِ، وأدارَ ظَهرَهُ لِلجَزيرةِ، وأنْفُهُ في اتِّجاهِ الشَّمالِ.

ثُمَّ اتَّضَحَ الأمْرُ.

واتَّضَحَ لَها كُلُّ شيءٍ.

«بالطَّبعِ،» قالَتْ بِرِقَّةٍ. «تلكَ هيَ الطَّريقُ نَحْوَ موطِنِكَ، ألَيْسَ كذلِكَ؟ ذاكَ هُوَ الشَّمالُ.»

عَوَتِ الرّيحُ، وفي مَكانٍ ما في البَعيدِ تَكَسَّرَتِ الأمواجُ على الشّاطِئِ، وعَلى قِمَّةِ الجَبَلَ تمسَّكَتْ إبريل بالحقيقَةِ بِقُوَّةٍ خَشيَةَ أنْ تُفْلِتَ مِنْها.

قالت إبريل: «إلى الشَّمالِ مُباشَرَةً مِنْ هُنا توجَدُ (سفالْبارد)، المكانُ الّذي كانَتِ السَّفينَةُ مُتوجِّهَةً إلَيهِ. السَّفينَةُ الّتي أقَلَّتْنا

إلى هُنا. أخبرني تور قَليلًا عَنْها.» نَقَّبَتْ في دِماغِها لِتَرى ما يُمكِنُها أنْ تَتَذَكَّرَ. لَمْ تَتَذَكَّرْ شَيئًا سِوى نَظرَةِ عَيني تور الزَّرقاوَينِ، ومعِدَتِها المصابَةِ بِدُوارِ البَحرِ. لكنَّ شَيئًا واحِدًا اسْترجَعَتْهُ ذاكِرَتُها بِوضوحٍ شَديدٍ مِنْ مُحادَثَتِها مَعَ والِدِها «توجَدُ كَثيرٌ مِنَ الدِّببةِ القُطْبيَّةِ هُناكَ.»

أدارَ (دُبّ) رأسَهُ بِبطءٍ لِيُواجِهَها، وفي اللَّونِ البُنِّيِّ الغامِقِ لِعَينَيْهِ، رأَتْ شَيئًا عَجِزَتْ عَنْ الانْتباهِ لَهُ سابِقًا. الحَنينُ إلى الوَطنِ.

«ذاكَ هُوَ المكانُ الّذي أتَيتَ مِنهُ، ألَيْسَ كَذلِكَ؟» قالَتْ بِنعومَةٍ. «ذاكَ هُوَ مَوطِنُكَ.»

وعَلى الرَّغمِ مِنْ أنَّهُ لا يَستطيعُ الكَلامَ، فإنَّ نورًا شَعَّ مِنْ وَجهِهِ وهُوَ يَنظُرُ باتِّجاهِ (سفالْبارد). كانَ نورًا ساطِعًا مِثْلَ شَمْسِ مُنْتصفِ اللَّيلِ، وكانَ عَلَيها أنْ تَرمِشَ عِدَّةَ مَرّاتٍ لِتَتَكَيَّفَ مَعَ سُطوعِهِ.

«لكنَّ (سفالْبارد) تبعُدُ ما يَقرُبُ مِنْ مِئتينِ وَخمسينَ ميلًا مِنْ هُنا،» تابعَتْ. «كيفَ أمكَنَكَ أنْ تقطَعَ كُلَّ هذِهِ المسافَةِ لِتَصِلَ إلى هُنا؟ خاصَّةً وأنَّ الأغطِيَةَ الجَليديَّةَ قَدْ ذابَتْ حولَ الجَزيرةِ؟»

تسطَّحَتْ أُذُنا (دُبّ) والْتَصَقَتا بِجُمْجُمَتِهِ. عَنى هذا أنَّهُ كانَ مُستاءً مِنْ شيءٍ ما. بالطَّبعِ، سيكونُ مُستاءً مِنْ ذَوَبانِ الأغطِيَةِ الجَليديَّةِ. كُلُّ الدِّبَبَةِ القُطْبيَّةِ سَتكونُ كَذلِكَ. الأمْرُ يُشبِهُ أنْ يَأتيَ أحَدٌ، وينْتَزِعَ مِنها بَيتَها.

زَحَفَتْ إلى حيثُ كانَ جالِسًا، حريصَةً عَلى عَدَمِ الاقْترابِ مِنَ الحافَّةِ كَثيرًا، ثُمَّ أَراحَتْ وجهَها عَلى ظَهْرِهِ. مالَ نَحْوَها حيثُ لامَسَتْهُ، فَمَسَّدَتْهُ تحتَ أُذُنيهِ مُباشَرَةً. كانَ المَلمَسُ ناعِمًا هُناكَ. مِثْلَ تَهويداتِ ما قَبْلَ النَّومِ. وبِالفِعْلِ سُرعانَ ما شَعَرَتْ بِهِ مُستَرْخِيًا. في الوَقتِ نَفسِهِ، دارَ دِماغُها مِثْلَ الآلاتِ الموجودَةِ في مَقصورَةِ الطَّقْسِ الخاصَّةِ بوالِدِها، وحاولَتْ تَجميعَ قِطَعِ الأُحْجِيَةِ الأخيرةِ مَعًا.

«مِنْ غَيرِ المُمكِنِ أنْ تَكونَ قَدْ وَصَلَتَ إلى هُنا بِقارِبٍ. وما كانَ بِمَقدورِكَ قَطْعُ كُلِّ هذِهِ المسافَةِ سِباحَةً، لِذا فَالشَّيءُ الوَحيدُ الّذي يُفَسِّرُ وُجودَكَ هُنا هُوَ أنْ تَكونَ الأغطِيَةُ الجَليديَّةُ قَدْ ذابَتْ حَديثًا.» قالَتْ وهِيَ تُفَكِّرُ بِصوتٍ عالٍ.

الصَّحيحُ أنَّها لَمْ تُفَكِّرْ بَتاتًا أنْ تَسأَلَ والِدَها مَتى ذابَ الجَليدُ حَوْلَ الجزيرةِ. لَمْ تَذكُرِ الموسوعةُ أيَّ شَيءٍ عَنْ ذلِكَ أيضًا، فافْتَرَضَتْ أنَّهُ حَدَثَ قَبْلَ سَنواتٍ وَسَنواتٍ. إدْراكُها أنَّ ذَوبانَ

الجَليدِ حَدَثَ قَريبًا جِدًّا جَعَلَ صَدرَها يُؤلِمُها بِطريقةٍ غَريبةٍ.

«أنا آسِفةٌ يا (دُبّ). البَشَرُ يمكِنُ أنْ يكونوا إلى حَدٍّ كبيرٍ. . . مُستهتِرينَ في بعضِ الأحيانِ. حَسنًا، أنا لَسْتُ مُستهترَةً. ولا حتّى كُلُّ البَشَرِ مستهترون. مُعظمُنا لا نَقْصِدُ أنْ نكونَ كَذلكَ، كَما تعلمُ. نحنُ فقطْ لا نعرفُ ما يجِبُ فعْلُهُ حِيالَ الأغطِيَةِ الجَليديَّةِ، والبلاستيكِ والحَيواناتِ الّتي تُعاني مثلَكَ. لِأكونَ صَريحةً، كُلُّ هذا يبدو كَبيرًا ومُخيفًا - يبدو كَما لَوْ أنَّنا في مُواجَهَةِ جِدارٍ عملاقٍ؛ لِذا مِنَ السَّهْلِ أحْيانًا عَدَمُ فِعْلِ شَيءٍ، والأمَلُ في أنْ يَتَولّى شَخصٌ آخَرُ إصلاحَ الأمورِ.» رَفَعَتْ كَتِفَيها بِقلَّةِ حيلةٍ. «حتَى لَو أردْتَ أنْ *تفعلَ* شيئًا، حينَ تكونُ صَغيرًا مِثلي، يصبِحُ مِنَ الصَّعبِ جِدًّا أنْ تَجعلَ صَوتَكَ مَسموعًا.»

زَمْجَرَ (دُبّ)، وكانَ ضَجيجًا غَيرَ مُتوقَّعٍ، فَسقطَتْ إبريل إلى الوَراءِ.

«أنتَ مُحِقٌّ،» قالَتْ وهِيَ تُسرِعُ في الوُقوفِ عَلى قَدمَيها مِنْ جَديدٍ. «هذا لَيسَ عُذْرًا، وأنْتَ مُحِقٌّ تَمامًا في أنْ تَغضبَ. كَوْني صَغيرةً لَيسَ سَببًا كافِيًا لِئَلّا أفعَلَ أيَّ شيءٍ. أعِدُ بأنْ أَبْذُلَ قُصارى جهدي مِنَ الآنَ فَصاعدًا. خاصةً الآنَ، وقدْ تعلَّمْتُ الزَّئيرَ.»

انتظرَتْ حَتّى هَدَأَ مَرَّةً أخْرى قَبْلَ أنْ تُعاوِدَ الجُلوسَ بِجانِبِهِ.

«لكنَّني ما زلْتُ لا أفهَمُ السَّبَبَ الّذي منعَكَ مِنَ العَودَةِ إلى مَوطنِكَ؟»

أتاها الجَوابُ مِثْلُ ضَرْبَةٍ موجِعَةٍ عَلى صَدْرِها.

«رُبَّما أتيتَ إلى هُنا مَعَ أمِّكَ عِندَما كنتَ صغيرًا جِدًّا، ثُمَّ مَرِضَتْ أو أصيبتْ أو حَدَثَ لَها شيءٌ ما.» كانَتْ إبريل تعلَمُ أنَّها تُخمِّنُ فقطْ، لكنَّهُ كانَ سَرْدًا مَنطِقيًّا؛ لأنَّ صِغارَ الدِّببةِ القُطْبيَّةِ تقْضي قُرابَةَ العامينِ مَعَ أُمَّهاتها. «وبالطَّبعِ، عِندَما تعافَتْ تمامًا، كانَتْ أغطية الجَليدِ حَولَ الجزيرةِ قدْ ذابَتْ، وهكَذا لَمْ تَتَمَكَّنا مِنَ العودَةِ إلى موطِنِكُما.»

الْتَفَتَتْ إلى (دُبّ) لِتَحصُلَ منهُ عَلى تأكيدٍ لِتَخْمينِها. صارَتْ مُتَماهِيَةً مَعَهُ عَلى نَحوٍ جَعَلَها تعرفُ تَمامًا كيفَ تُترجِم مَشاعرَهُ، فَشعرَتْ بِالحُزنِ يَنضَحُ منهُ.

«لقدْ عَلقْتَ هُنا.» ألقَتْ إبريل بِذراعَيها حولَ رقبَتِهِ، وابتلَعَتْ ريقَها بِصعوبَةٍ. كانَتْ نِهايةُ القِصَّةِ واضِحةً أمامَها، وقوَّتْ نفسَها لِتَسمَعَها. «ومِنْ ثَمَّ؟»

رفعَ (دُبّ) رأسَهُ، وتأمَّلَ البحرَ طَويلًا. نظرَ طَويلًا جِدًّا حتّى إنَّها شعرَتْ بأنَّهُ لَنْ يُنهيَ القِصَّةَ. لكنْ في النِّهايةِ، الْتَفَتَ إلَيها،

ثُمَّ أخذَتْ نفَسًا عميقًا ومرتَجِفًا حينَ أدركَتِ الحقيقةَ أخيرًا.

«يا إلهي. ماتَتْ؟» أَجْهَدَتْ عقلَها بحثًا عَنِ السَّببِ. «لأنَّهُ لَمْ يكُنْ هُناكَ ما يكفي مِنَ الطَّعامِ لكِليكما. بالطَّبعِ. أوه يا (دُبّ). هذا مروِّعٌ.» ضغطَتْ بِخدِّها عَلى فرائهِ. رَبَّتَتْ عَلى أذنيهِ. عانقتْهُ بِقُوَّةٍ قَدْرَ اسْتِطاعَتِها. قبَّلتِ الدُّموعَ مِنْ عَينيهِ. شعرَتْ بقلبِها ينزلِقُ. «فقَدْتَ والدتَكَ، وصِرْتَ عالِقًا على هذِهِ الجزيرةِ بمفردِكَ كُلَّ هذا الوَقتِ.»

أمالَتْ جَبهتَها ووضعتْها عَلى وجْهِ (دُبّ) وطوَّقَتْ رقبَتَهُ بِذراعِها. كانَ يرتَجِفُ تحتَ أطرافِ أصابِعها. «يا لَكَ مِنْ مِسكينٍ، مِسكينٍ»

ابتعدَ (دُبّ) عنْها وَزَأَرَ، زئيرًا قويًّا وعالِيًا وشَرسًا حتّى دَمْدَمَتِ الأرضُ تَحتَهُما، وفرَّتِ السُّحُبُ مذعورَةً.

«سأفعَلُ شَيئًا حِيالَ ذلِكَ،» أقْسَمَتْ. «أعِدُكَ.»



الفصلُ العِشرونَ

عالِقٌ

«إلى مَنْ تُرسِلُ تقاريرَ دَرَجاتِ الحَرارَةِ؟» سألَتْ إبريل والِدَها في اليومِ التّالي عَلى وجبَةِ الإفطارِ.

«دَرَجاتُ الحَرارَةِ؟» نظرَ والدُها إلى أعلى مُتفاجِئًا وفنجانُ الشّايِ في يَدِهِ.

لقَدْ مَرَّ وقتٌ منذُ أنْ افتعَلَتْ إبريل محادثَةً معَ والِدِها. أسابيعُ رُبَّما شهورٌ. لَمْ تَتبادَلْ معَهُ الحديثَ كَما يجِبُ مُنذُ ذلِكَ

اليومِ الّذي ساعدَتْهُ فيه في مَقْصورَةِ الطَّقْسِ، وصَرَخَ في وجهِها. منذُ ذلِكَ الحينِ ضاعَتْ في علاقَتِها مَعَ (دُبّ). ليسَ ضياعًا *سَيِّئًا*، وإنّما ضَياعًا *سَعيدًا*. ذلِكَ النَّوعُ مِنَ الضَّياعِ الّذي تقعُ فيهِ داخِلَ غابَةٍ مَسحورَةٍ حيثُ كُلُّ شيءٍ صالحٌ لِلأَكلِ حَتّى السَّماءُ. لكنَّها نظرَتْ إلى أعْلى كَما لَوْ أنَّها اسْتيقظَتْ مِنْ غيبوبَةٍ لِتُدرِكَ أنَّ والدَها ما زالَ هُنا. وقبلَ أنْ تسحَبَ نفسَها، وتُعيدَها إلى الواقِعِ، تساءلَتْ لِبرهَةٍ إنْ كانَتْ هذهِ هِيَ الطَّريقَةُ الّتي يَنتَبِهُ والدُها لِوُجودِها معظمَ الوَقتِ.

في نِهايَةِ الأمْرِ، كانتْ قدْ قطعَتْ وَعْدًا.

«نعمْ. تِلْكَ الّتي تقيسُها،» أجابَتْ والدَها. «لِمَنْ تُرسِلُها؟»

وضعَ الفِنجانَ بِعنايَةٍ عَلى طَبَقِهِ، وَبَدا سَعيدًا لِاهْتِمامِها. «إلى الحُكومَةِ النّرويجيَّةِ.»

«صَحيحٌ.» مَضَغَتْ بَسكويتَةَ الشّوفانِ، وهيَ غارِقَةٌ في التَّفكيرِ. «لكنْ ماذا *يَفعلونَ* بِها؟»

«إنَّها مِنْ أجْلِ البَحثِ العِلْميِّ، يا إبريل،» أجابَ والِدُها. «إنَّنا نَقيسُ دَرَجاتِ الحَرارَةِ لِنرصُدَ أيَّ اخْتلافٍ مِنْ سَنَةٍ إلى أُخْرى.»

«نعمْ،» قالَتْ وهِيَ تَلوحُ بِيَدِها. «أعرِفُ *ذلِكَ*. لكِنْ ماذا *يَفعَلونَ* بِها بالضَّبْطِ؟ بَعْدَ أنْ يَحصلوا عَلَيْها.»

«*يَفعلونَ؟*» قالَ أَبوها.

«نعَمْ،» أجابَتْ إبريل. «ماذا يَفعَلونَ حِيالَها؟ إنَّها لا تؤثِّرُ فقطْ عَلى الدِّببَةِ القُطبِيَّةِ وكُلِّ حَيواناتِ القُطْبِ الشَّماليِّ الأُخْرى، ألَيْسَ كَذلِكَ؟ الطَّقْسُ في القُطْبِ الشَّماليِّ يؤثِّرُ *عَلى الجَميعِ*، في كُلِّ الكَرةِ الأرضِيَّةِ.»

«هذا صَحيحٌ.» بَدا والدُها مُهْتَمًّا بعضَ الشَّيءِ، لكنْ كانَ هذا أقْصى ما فَعَلَهُ. مَرَّةً أُخْرى، كانَتْ هذِهِ هِيَ الهَيئَةُ الّتي يَبدو عَلَيْها كُلُّ الرّاشِدينَ عِندَما يتحَدَّثونَ عَنْ ظاهِرَةِ الاحْتِباسِ الحَراريِّ. لَمْحَةٌ مِنَ الاهْتمامِ بَعضَ الشَّيءِ لكنْ لا يوجَدُ ما يدفَعُهُمْ إلى القَلَقِ. لا تزعِجُهُمْ حَقيقةُ أنَّ العالَمَ في أزْمَةٍ بِقدرِ ما تُزعِجُ إبريل.

ضَرَبَتْ قَبْضَتي يَدَيها بِبعضِهِما بَعضًا، وحاولَتْ أنْ تتحدَّثَ بِصوتٍ ثابِتٍ وهيَ تتذكَّرُ بَعضَ الإحصائيّاتِ الّتي قرأَتْها: «الجليدُ يعكِسُ نَحوَ سِتّينَ بِالمِئةِ مِنْ ضَوءِ الشَّمسِ الّذي يَسقُطُ عَليهِ؟»

«ثمانينَ بِالمِئةِ،» قالَ والدُها مَصَحِّحًا.

«حَسنًا ثمانينَ بِالمِئةِ إذنْ.» نظرَتْ إليهِ. «إذَنْ ماذا يحدُثُ عِندَما يختفي كُلُّ الجَليدِ؟»

«عندَما تزيلينَ كُلَّ الجَليدِ فَهذا يعْني أنَّ الشَّمسَ سَترسِلُ

أشِعَّتَها مُباشَرَةً إلى المُحيطِ، وعندَما يحدُثُ ذلِكَ، سَترتَفِعُ دَرجاتُ حَرارةِ البَحرِ، وهذا بِدورِهِ يَعني أنَّ مُستوياتِ سَطْحِ البَحْرِ سَترتَفِعُ.»

«والأغطِيَةُ الجَليديَّةُ؟» سألَتْ إبريل، غارِزَةً أظافِرَها في راحَةِ يَدِها لِتَبْقى هادئةً. «كَمْ ذابَ مِنْها بِالفِعْلِ؟ أعلَمُ أنَّ كثيرًا مِنْها ذابَ . . . لكنْ كَمْ بِالضَّبْطِ؟»

صَفّى والدُها حنجُرَتَهُ. «وفقًا لِوكالَةِ الفَضاءِ الأمريكيَّةِ (ناسا) هذا الصَّيف، فإنَّ المنطقَةَ الّتي يُغطّيها الجَليدُ البَحريُّ في القُطْبِ الشَّماليِّ آخِذَةٌ في التَّقَلُّصِ بِمُعَدَّلٍ يزيدُ عَنِ الثَّلاثَةَ عشرةَ بِالمِئةِ كُلِّ عَشرِ سَنواتٍ مُنذُ ثَمانيناتِ القرنِ الماضي. وهوَ ما يعادِلُ خَسارةَ أكثرَ مِنْ مِليونِ ميلٍ مُرَبَّعٍ مِنَ الجليدِ البَحريِّ.»

«*مليونُ*؟» شعرَتْ إبريل بالصَّدمةِ، كَما لَوْ أنَّ الأرضَ انشقَّتْ وابتلعَتْها كلَّها. «إذنْ فَما سمعَتْهُ كانَ صَحيحًا؟ كنتُ أعرفُ أنَّها تذوبُ، لكنَّني لَمْ أكُنْ أعلَمُ أنَّها تذوبُ بِهذِهِ السُّرْعَةِ.»

«آه،» قالَ والدُها بِأفضلِ نَبْرَةِ صَوْتِ معلِّمٍ لَديهِ. «في الواقِعِ، ذابَتْ الأغطِيَةُ الجَليديَّةُ القُطْبِيَّةُ في العِشرينَ سَنةً الماضيةَ أكثرَ مِمّا حصلَ في العشرةِ آلافِ سنةٍ الّتي مضَتْ.»

«إذنْ فَعَلَينا أنْ نفعلَ شيئًا!» صاحَتْ إبريل متخلِّيَةً عَنْ كُلِّ

جُهودِها لِلبقاءِ هادئةً. «نحنُ بِحاجةٍ إلى أنْ نعكِسَ ما يحدُثُ بِطريقةٍ ما! أنْ نُعيدَ إلَيهِم الجَليدَ. لِماذا لا يفعلُ النّاسُ شَيئًا حِيالَ ذلِكَ؟ لماذا لا تفعَلُ *أنتَ* المَزيدَ؟»

قَطَّبَ والدُها حاجِبَيْهِ. كانَ واضِحًا أنَّهُ لَمْ يطرَحْ عَلى نفْسِهِ هذا السُّؤالَ مِنْ قَبْلُ، واشْتَبَكَ حاجِباهُ الكَثيفانِ مَعًا مِثْلَ يَسْروعٍ مُرتَبِكٍ، وقالَ: «لا أعرِفُ.»

وضعَتْ إبريل بَسكوتَةَ الشّوفانِ على المائدَةِ، ونفَضَتِ الفُتاتَ عَنْ أصابِعِها. كانَتْ بِحاجَةٍ لإعادَةِ هذه المحادَثَةِ إلى مَسارِها الصَّحيحِ. لَمْ يكُنْ خَطَأُ والدِها أنَّ البَشَرَ أَغْرَقوا الكَوْكَبَ في هذهِ الفَوْضى. كانَ خَطَأَ الجَميعِ.

«قلْتَ إنَّ الأغطِيَةَ الجَليديَّةَ قدْ ذابَتْ حَولَ جزيرةِ الدُّبِّ» سألَتْ مُحاولَةً التَّحَقُّقَ مِنْ قِصَّةِ (دُبّ). «بأيِّ سُرعةٍ حَدَثَ ذلِكَ؟ هلْ هُوَ ذَوبانٌ بَطيءٌ أمْ يمكنُ أنْ يَحدثَ بِسرعةٍ؟»

«حَسَنًا . . .» قالَ. «عادَةً، يحدُثُ ذلِكَ بِبطءٍ شَديدٍ، لكنْ كانَتْ هُناكَ سَنةٌ مِنَ السَّنواتِ شهدَتِ ارْتِفاعًا حادًّا في دَرَجاتِ الحَرارَةِ.»

«مَتى؟»

«لا أَستطيعُ أنْ أتذكَّرَ مِنْ دونِ أنْ أتحقَّقَ مِنَ الأمْرِ.»

«مِنْ فَضلِكَ حاوِلْ!» مالَتْ إبريل إلى الأمامِ، وأمسَكَتْ

بِذِراعِهِ. «هذا مُهِمٌّ حَقًّا.»

نظَرَ والدُها إلى يَدِها عَلى ذراعِهِ، وَبَدا مُتَفاجِئًا لِرُؤيَتِها هُناكَ. «يُمكِنُني التَّحقُّقُ مِنَ السِّجِلّاتِ إذا كنْتِ مُهْتَمَّةً حَقًّا.»

«هَلْ تستطيعُ أنْ تُحضِرَها الآنَ؟» أَلَحَّتْ إبريل. «مِنْ فضلِكَ؟»

تنَهَّدَ، لكنَّهُ وَضَعَ كوبَ الشّايِ مِنْ يَدِهِ، اخْتَفى في مَقْصورَةِ الطَّقْسِ، وعادَ حامِلًا عَلى ذِراعَيْهِ مجموعةً كَبيرةً مِنَ السِّجِلّاتِ، وضعَها عَلى الطّاولَةِ. فتَحَ سِجِلًّا، وقالَ: «هذا هُوَ العَمودُ الّذي يوضِّحُ المُتَوسِّطَ السَّنَويَّ لِدرجاتِ حَرارةِ البَحرِ عَلى جزيرةِ الدُّبِّ خِلالَ السَّنواتِ العَشْرِ الماضِيَةِ. يمكِنُكِ أنْ تَرَيْ أنَّ الارْتِفاعَ في دَرَجاتِ الحَرارَةِ ثابِتٌ في مُعظَمِهِ. لكنْ هُنا.» ضغَطَ بِإصبَعِهِ عَلى أحَدِ الأعْمِدَةِ «ارْتفعَتْ دَرَجاتُ الحَرارَةِ ارتفاعًا كبيرًا.»

«أيُّ سَنةٍ؟»

«قَبْلَ سبعِ سَنَواتٍ.»

«وأنتَ مُتأكِّدٌ تَمامًا مِنْ أنَّ هذا حدَثَ عِندَما ذابَتْ آخِرُ الأغطِيَةِ الجَليديَّةِ حَولَ الجزيرةِ؟»

أَوْمَأَ والِدُها بِالإيجابِ.

جَلسَتْ إبريل وهِيَ تَشعُرُ بِتَوَعُّكٍ شَديدٍ في مَعِدَتِها. (دُبّ) هُنا منذُ سَبْعِ سَنواتٍ! عالِقًا عَلى الجَزيرةِ كُلَّ هذا الوقتِ، غيرَ

قادرٍ عَلى العودَةِ إلى موطِنِه.

«لكنْ هذا ليسَ عَدْلًا!» صرخَتْ بِإحْباطٍ. «ليسَ ذَنْبَها أنَّ العالَمَ وَصَلَ إلى هذه الحالَةِ مِنَ الفَوْضى. إنَّه ذَنْبُنا نحنُ!»

«ليسَ ذنْبُ مَنْ؟»

حَدَّقَتْ فيهِ إبريل وقدْ خَلا وجهُها مِنْ أيِّ تَعبيرٍ.

«قلتِ إنَّ هذا لَيسَ ذنْبَها.»

«الدِّبَبَةُ!» قالَتْ بحنقٍ. «الدِّبّبةُ القُطْبِيَّةُ. الجزيرةُ سُمِّيَتْ باسْمِها، وهيَ لا تستطيعُ حتّى القُدومَ إلَيها، وقضاءَ فُصولِ الشِّتاءِ هُنا!»

«في هذا مُفارَقةٌ قاسِيَةٌ . . . وبالطَّبْعِ هُوَ أمْرٌ مُحزِنٌ لِلغايَةِ،» أضافَ بِسرعةٍ.

«والأغطِيَةُ الجَليديَّةُ؟ تِلْكَ الأقرَبُ إلى القُطْبِ الشَّماليِّ. تِلْكَ الموجودَةُ حولَ (سفالْبارد). ما زالتْ هُناكَ، أليسَ كَذلِكَ؟»

«نعم،» قالَ. «في الوقْتِ الرّاهِنِ.»

«هذا يَعْني أنَّ الدِّببةَ القُطْبِيَّةَ ما زال بِمقدورِها أنْ تعيشَ هُناكَ؟»

أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ إيجابًا.

نظرَتْ إلى والِدِها. بِذقْنِه المُلَطَّخَةِ بِمُرَبّى البُرْتقالِ، وأصابِعِهِ

الوَرَقِيَّةِ الرَّفيعَةِ، وأنْفِهِ المَعقوفِ المَدفونِ في تِلْكَ السِّجِلّاتِ، لَمْ يكُنْ المُنقِذَ التَّقْليديَّ. لكنَّهُ كانَ المُنقِذَ الوَحيدَ لَديها. ثُمَّ مَنحتْهُ أفضلَ ابْتساماتِها. رُبَّما خرجَتْ عَلى شَكْلِ تكشيرَةٍ، لكنْ لا يهمُّ.

«ماذا لوْ أخبَرْتُكَ أنَّهُ يوجَدُ دُبٌّ عالِقٌ عَلى الجزيرةِ كُلَّ هذا الوقْتِ؟»

لمْ ينظُرْ إلَيها حَتّى.

«بابا!» قالَتْ إبريل بحَزْمٍ أكبَرَ. «هناكَ دُبٌّ قُطبيٌّ عَلى الجزيرةِ، وأنا بِحاجَةٍ لِمُساعدَتِكَ.»

«هممم؟» نظَرَ إليها مُباشَرَةً، كانَ واضِحًا بِالنِّسبَةِ لَها أنَّهُ لَمْ يكُنْ مُنتَبِهًا إليْها انْتِباهًا كامِلًا.

«اسْمَعْني، مِنْ فَضلِكَ؟» كانَتْ تُجاهِدُ لِلحِفاظِ عَلى هدوءِ صَوْتِها، لكنَّهُ اسْتَمَرَّ في الخُروجِ مُرتَجِفًا. «يوجَدُ دُبٌّ قُطبيٌّ هُنا. وهُوَ ألْطَفُ وأجْمَلُ دُبٍّ في العالَمِ بِأسْرِهِ. وأحتاجُ إلى مُساعَدَتِكَ؛ لِذا مِنْ فَضلِكَ، هَلْ يمكِنُ أنْ تترُكَ هذا السِّجِلَّ مِنْ يَدِكَ *في الحالِ*.»

تَرَكَ الأبُ بِالفِعْلِ السِّجلَّ، وَسَقَطَ مِنْ يَدِهِ عَلى الأرضِ بِخبطَةٍ عالِيةٍ. حظِيَتْ بِاهتمامِهِ الكامِلِ الآنَ. لكنْ لَيسَ بِالطَّريقَةِ الّتي

أرادَتْها. في الواقِعِ، نظرَ إليها بِطريقَةٍ جَعلَتْ مَعِدَتَها تَتَلَوّى.

ابْتلعَتْ إبريل ريقَها. «يوجَدُ دُبٌّ قُطبيٌّ عَلى الجزيرةِ.»

حَمْلَقَ والدُها فيها لِفترةٍ طَويلةٍ قَبْلَ أنْ يجيبَ، وهُوَ يهُزُّ رأسَهُ نافِيًا. «لَمْ. تَعُدْ. توجَدُ. دِبَبَةٌ. عَلى. جزيرةِ. الدُّبِّ. هذا مُستحيلٌ. بِبَساطَةٍ.»

«لكنْ يوجَدُ واحِدٌ! وهُوَ لَيسَ خَطيرًا على الإطلاقِ،» قالَتْ متوسِّلَةً. «أريدُ فقطْ مُساعَدَتَهُ، ألا تَرى؟ هذا لَيسَ المكانَ الّذي يجبُ أنْ يكونَ فيهِ!»

استمَرَّ والِدُها بالتَّحديقِ فيها كَما لَوْ أنَّها فقدَتْ عقلَها. ثُمَّ، وهُوَ الأسوَأُ مِنْ ذلِكَ كلِّهِ، بَدا وكأنَّهُ اعْتقَدَ بِأنَّها تمزَحُ، وشَرَعَ في الْتِقاطِ سِجِلِّهِ.

«أنتَ لا تُصَدِّقُني، أليسَ كَذلِكَ؟ حَسَنًا، اذهَبْ، وتَفَقَّدِ المَخْزَنَ!» قالتْ بِتَهَوُّرٍ. «سَتعرِفُ عندَها أنَّني أقولُ الحَقيقةَ!»

«المخزَنُ؟ ما عَلاقةُ هذا بأيِّ شَيءٍ؟»

«سوفَ تَرى. فقطْ اذهَبْ وَتَفَقَّدْهُ!»

نهَضَ بِبطءٍ واقِفًا عَلى قدمَيْهِ، وبَعْدَ أنْ صَفّى حُنجرَتَهُ بِضْعَ مَرّاتٍ، فتحَ بابَ المَخزَنِ.

«**إبريل!**» تَشَبَّثَ بِإطارِ البابِ لِيَسْنِدَ نفْسَهُ. «الطَّعامُ! أينَ



ذَهَبَ كُلُّ الطَّعامِ؟»

«أخبرْتُكَ لِلتَّوِّ! كانَ يَتَصَوَّرُ جوعًا - جِلْدٌ عَلى عَظْمٍ. لكنْ لأنَّهُ عادَ لِلصَّيْدِ، ومَعَ كُلِّ الطَّعامِ الّذي أطعَمْتُهُ لَهُ، يجِبُ أنْ تَراهُ الآنَ. يبدو—»

اسْتَدارَ والِدُها إلى الخلفِ لِيواجِهَها. «إبريل، ماذا فَعَلْتِ؟» كانَتْ نبرَةُ صَوتٍ لَمْ تَسمَعْها مِنْ قَبْلُ، وابتلَعَتْ ريقَها بِشِدَّةٍ.

«أعْطيْتُ الطَّعامَ لـِ (دُبّ).»

«لـِ (دُبّ).»

أَوْمَأَتْ بِرَأْسِها إيجابًا.

«لِدُبٍّ قُطبيٍّ،» قالَ والِدُها وهُوَ يجلِسُ عَلى الأريكَةِ بِخَبْطَةٍ عاليةٍ. كانتِ السِّجِلّاتُ مُبعثَرَةً حولَ قَدمَيْهِ، وعَلى وجهِهِ تَعبيرٌ سارِحٌ غَريبٌ، جعَلَ إبريل تشعُرُ بِحرارَةٍ وُرطوبَةٍ. «كانَتِ الجَدَّةُ (أبلز) عَلى حَقٍّ،» قالَ والِدُها. «كانَ خَطَأً مِنّي جَلْبُكِ إلى هُنا. قالَ البَحّارَةُ إنَّ الجَزيرةَ يُمكِنُ أنْ تفعَلَ أشياءَ غَريبةً بِالعَقْلِ. كُلُّ هذا الوقْتِ وحدَكِ، والخَطَأُ هُوَ خَطَئي أنا؛ لأنَّني عملْتُ بِجهْدٍ، ولَمْ أقْضِ كَثيرًا مِنَ الوقْتِ معَكِ كَما كنْتُ أتَمَنّى. بالطَّبْعِ، مِنَ الطَّبيعيِّ أنْ تَختَرعي صَديقًا وهْمِيًّا لِيكونَ بِصحبَتِكِ.»

«إنَّهُ ليسَ صديقًا وهميًّا!» صرخَتْ. «أنا مِثْلُ أُمّي. أنا فقطْ

مُختلِفَةٌ. حتّى إنَّكَ قلْتَ ذلِكَ بِنَفْسِكَ!»

«نعم، لكنَّ الفَرْقَ هُوَ أنَّها لَمْ تختَلِقْ حَيواناتٍ، يا إبريل، ومِنْ ثَمَّ تَرْمِ بكلِّ طَعامِنا.» ضاقَتْ عَيناهُ الرَّماديَّتانِ، واصْطَبَغَتا بِذلِكَ النَّوعِ مِنَ الشَّفَقَةِ المُرَوِّعَةِ المُقَزِّزَةِ الّتي جَعلَتْها ترغَبُ في البُكاءِ مِنَ الإحباطِ. «طِفْلَتي العزيزةَ، هَلْ فَعَلْتِ هذا لأنَّكَ تَرغبينَ بِبعضِ الاهتِمامِ؟»

«لا،» قالَتْ، وهِيَ تُديرُ رأسَها حَتّى لا يرى دُموعَها. «لَقَدْ فَقَدْتُ الأمَلَ في حدوثِ ذلِكَ منذُ زَمَنٍ طَويلٍ.»

اخْتارَ والِدُها تِلْكَ اللَّحظةَ بِالذّاتِ لِيتَمَخَّطَ بِصوتٍ عالٍ في منديلِهِ. «حَسَنًا إذنْ،» أعلَنَ بِمجرَّدِ انتهائهِ، غافِلًا تَمامًا عَما قالَتْهُ لِلتَّوِّ. «عَلى كُلٍّ لَمْ يَبْقَ لَدينا سِوى سِتَّةُ أسابيعَ عَلى الجزيرةِ.»

«ستَّةَ أسابيعَ؟» شَهَقَتْ إبريل. «بَقِيَ لَدَيْنا سِتَّةَ أسابيعَ فَقطْ؟»



الفصلُ الحادي والعشرونَ

الخطَّةُ

في الأيّامِ الّتي تَلَتْ، انْتبهَتْ إبريل إلى والدِها وهُوَ يُحَدِّقُ فيها. لَمْ يكُنْ تَحديقًا أبَويًّا دافِئًا وحانِيًا، وإنَّما تَحديقًا بِعينينِ ضَيِّقَتَيْنِ غيرِ واثِقتينِ، جَعَلَتاها تشعُرُ وكأنَّها شخصٌ غَريبٌ في كُلِّ مَرَّةٍ كانتْ فيها بِرفْقَتِهِ. حَتّى أنَّهُ أحْصى كُلَّ الطَّعامِ الّذي تَبَقّى في المخزنِ، فصارَ مِنَ المُستحيلِ أخْذُ أيِّ شيءٍ منهُ. لِحُسْنِ الحَظِّ كانتْ إبريل قدْ توقَّعَتْ حُدوثَ أمْرٍ طارئٍ كَهذا،

فخَبَّأَتْ كَمِّيَّةً مِنَ الطَّعامِ تحتَ سَريرِها، لكنَّ الكَمِّيَّةَ تلكَ لَمْ تكُنْ كافِيَةً لِستَّةِ أسابيعَ؛ لِذا صارَ وَضْعُ خطَّةٍ لِمُساعدَةِ (دُبّ) أكثرَ إلْحاحًا الآنَ.

«كيفَ أصبَحْنا بِهذِهِ الفَوْضى؟» قالتْ إبريل وهيَ تتفَحَّصُ غرفَةَ المعيشةِ كَما لَوْ أنَّها تَراها للمَرَّةِ الأولى.

كانَتْ قدِ انْشَغَلَتْ بِالمَرَحِ طَوالَ الصَّيفِ حَتّى فاتَها، بطريقَةٍ ما، الانْتِباهُ إلى الأكوامِ المُتَراكِمَةِ وغيرِ المَغسولَةِ مِنَ الملابسِ والأكْوابِ وأَباريقِ الشّاي وعلبِ الحِساءِ الفارغَةِ. لكنَّها، في النِّهايةِ، وجدَتِ الكِتابَ عنِ الدّائرَةِ القُطْبيَّةِ الشّماليَّةِ مَحشورًا بينَ علبةِ قَهوةٍ قديمةٍ وإحْدى صِدريّاتِ والِدِها المصنوعةِ مِنْ قُماشِ البيسلي. وبِسرعةٍ بحثَتْ عنِ الفصلِ الخاصِّ (بسفالبارد).

سقَطَ مِنْ بينِ صَفَحاتِ الكِتابِ غلافُ حَلوى اليانسون.

اتَّضَحَ لَها أنَّ (سفالْبارد) عبارةٌ عَنْ أرخبيلٍ مِنَ الجُزُرِ الصَّغيرَةِ تقعُ في مُنتصَفِ المسافَةِ تَقريبًا بينَ النّرويجِ والقُطبِ الشَّماليِّ، يتألَّفُ نَحوُ سِتّينَ بِالمِئةِ مِنْها مِنَ الأنْهارِ الجَليديَّةِ، وهِيَ موطِنٌ للطّيورِ البَحريَّةِ والثَّعالبِ القُطْبيَّةِ والرَّنَّةِ ونحوِ ثلاثةِ آلافِ دُبٍّ قُطْبيٍّ.

«وجَدْتُ الخطَّةَ!»

شعرَتْ بشيءٍ حارٍّ يتدفَّقُ في عُروقِها عندَما أتاها الجوابُ أخيرًا. كانَ واضِحًا! واضِحًا جِدًّا لِدرجةِ أنَّهُ كانَ يُحَدِّقُ في وجهِها طَوالَ الوقتِ. وكانَ هُناكَ شيءٌ واحدٌ فقط لِتَفعلَهُ. لَمْ تَعُدْ مضطَرَّةً لِتَرِك (دُبّ) في كَهفِهِ الرَّهيبِ الموحِشِ.

سوفَ تأخُذُهُ إلى موطِنِهِ.

مَوطِنِهِ في (سفالْبارد).

«سيكونُ لَدْيكَ كَثيرٌ مِنَ الأصْدقاءِ هُناكَ. ورُبَّما بعضُ الأقاربِ أيضًا! مثلُ أبناءِ العَمِّ والعَمّاتِ والأعْمامِ. ورُبَّما حَتّى زوجةٍ،» همسَتْ، آمِلَةً أنْ يتمكَّنَ (دُبّ) مِنْ سَماعِها عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الجَزيرَةِ. «لَنْ تعودَ وحيدًا بعدَ الآنَ.»

كانَتِ المشكِلَةُ الوحيدةُ هِيَ المسافَةُ.

كانَتْ (سفالْبارد) عَلى بُعْدِ رِحلةِ يومٍ كامِلْ بِالسَّفينةِ مِنْ جزيرةِ الدُّبِّ، وهِيَ مسافةٌ بعيدةٌ جِدًّا لِيجْتازَها (دُبّ) سِباحَةً، وإلّا لَعادَ (دُبّ) إلى وطنِهِ قَبْلَ زَمَنٍ طَويلٍ. لكنْ لابُدَّ مِنْ أنَّ هُناكَ طريقةً أُخْرى لإيصالِهِ إلى هُناكَ - حَتّى مِنْ دونِ مُساعدَةِ والِدِها.

وهكَذا صارَ لَدَيْها بِداياتُ خطَّةٍ.

*

لم يكُنِ القاربُ المَقلوبُ في خليجِ (والْروس) قارِبًا تقليديًّا عَلى الإطلاقِ. تأمَّلَتْهُ إبريل وهِيَ تقِفُ أمامَهُ. «إنَّهُ أقربُ إلى زورقِ (كانو[4])، لكنَّهُ زورقُ (كانو) كبيرٌ. كبيرٌ بِما يَكفي لَنا نحنُ الاثْنينِ عَلى أيِّ حالٍ.»

كانَ بَدَنُ الزَّورَقِ مَطْلِيًّا باللَّونِ الأصفرِ، ومَثْنيًّا لِلأعْلى في طَرَفَيْهِ، مِثْلَ سَفينَةِ (فايكنغ). تقشَّرَ الطّلاءُ عنهُ في بَعْضِ المِواضِعِ، لكنْ عندَما فَركَتْهُ إبريل بِقُفّازِها، لَمَعَ قَليلًا، مِثْلَ شَمسِ الشِّتاءِ.

«ذاتَ مَرَّةٍ كنتَ جَميلًا جِدًّا، أليسَ كَذلِكَ؟ أتساءَلُ كيفَ انْتَهى بِكَ المطافُ هُنا. هَلْ رَحَلوا وتركوكَ بِمُفردِكَ أيضًا؟» نظرَتْ حولَها في بَقايا كُلِّ الأشياءِ الّتي تَرَكَها البَشَرُ وراءهُمْ في خليجِ (والْروس). الكوخُ المُتهالِكُ، الرَّصيفُ الخَشبيُّ الخَرِبُ، الحَبْلُ الحَديديُّ الصَّدِئُ، الزُّجاجاتُ البلاستيكيَّةُ الّتي لَفَظَها البحرُ. «كيفَ أصبحَنا بهذِهِ الفَوضى؟» سألَتْ للمَرَّةِ الثّانيَةِ هذا اليومَ.

تنهَّدَتْ وأعادَتْ تركيزَها إلى القارِبِ مِنْ جَديدٍ. في الدّاخِلِ كانَ هُناكَ مِقعَدانِ خَشَبِيّانِ ومِجدافٌ قديمٌ وكثيرٌ مِنَ الحَصى والرَّملِ والأصدافِ والأوساخِ. لكنْ، لِحُسْنِ الحظِّ، لا يوجَدُ أيُّ عَلامات عَلى وجودِ أيِّ ثُقوبٍ.

«أوَّلُ شيءٍ عَلَيَّ أنْ أفْعَلَهُ هُوَ أنْ أنظِّفَكَ.»

مِنْ طَرَفِ عَيْنِها رأَتْ مِياهَ البَحْرِ وهِيَ تتكَسَّرُ عَلى الشّاطِئِ. بعضُ الأمواجِ كانَتْ مرتفِعَةً بِارتفاعِ قامَتِها. أغلَبُها كانَ أطوَلَ. توتَّرَتْ مَعِدَةُ إبريل وانقَلَبَتْ. يا اللهُ! لكِنْ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ مدى خُطورةِ الرِّحلَةِ المحتَمَلَةِ، وبغضِّ النَّظرِ عَنْ دُوارِ البَحرِ الّذي ستَشعُرُ بِهِ عَلى مَتْنِ القارِبِ، كانَتْ مُصمِّمَةً عَلى إيصالِ (دُبّ) إلى موطِنِهِ.

كانَ البديلُ غيرَ وارِدٍ.

قضَتِ اليَومينِ التّاليينِ في قِراءةِ الخَرائطِ، وكُلِّ النَّصائحِ حولَ أساسِيّاتِ البَقاءِ عَلى قيدِ الحَياةِ خِلالَ رِحلةٍ طَويلةٍ بِالقارِبِ كَما هِيَ مُفَصَّلَةٌ في الموسوعَةِ. لكنَّها كانَتْ كُلَّما قرأَتِ المَزيدَ عَنِ الإبحارِ شَعَرَتْ بِقِلَّةِ اسْتِعدادِها؛ فَمَنْ كانَ لَيعرفَ أنَّ بِمقدورِ شكْلِ الأمواجِ أنْ يُنَبِّئَ بِتَغيُّرِ الرّيحِ، أوْ أنَّ طولَ بَعضِ مُصطلحاتِ الإبحارِ كانَ بِطولِ قاموسٍ كامِلٍ، أوْ أنَّكَ تحتاجُ إلى حاسَّةٍ سادسةٍ في أحوالِ الطَّقْسِ؟

وقفَتْ إبريل أمامَ خريطَةِ جزيرةِ الدُّبِّ المعلَّقَةِ عَلى الحائطِ، وعضَّتْ شَفَتَها بِتَوَتُّرٍ. كانَ هُناكَ اسْتِخدامٌ واحدٌ فقط

لِهذا الشَّيءِ. وكانَتْ هذِهِ بِالتَّأكيدِ حالَةً طارئةً، وبِما أنَّ والدَها في مَقصورَةِ الطَّقْسِ، فَقدْ كانَتْ هذِهِ لَحظةً مِثاليَّةً لِتَفعلَ ذلِكَ.

كانَتْ قدْ وضعَتِ الظَّرْفَ في الدُّرْجِ قُرْبَ سَريرِها. كانَتْ رائحَتَهُ خليطًا مِنْ رائحَةِ سَمَكِ الأسقَمْريّ، وحبلٍ قديمٍ وشيءٍ آخَرَ. رائحةٌ تُشعِرُ بِالرّاحَةِ والأمانِ، وهذا ما أَقْنَعَها أخيرًا بالاتِّصالِ قَبْلَ أنْ تُثْنِيَ نَفْسَها عَنْ ذلِكَ.

رنَّ الهاتفُ مَرَّتينِ.

«*ألو؟*» كانَ الصَّوتُ واضِحًا عَلى نَحْوٍ مُفاجِئٍ، كَما لَوْ أنَّهُ في الغرفَةِ المجاوِرَةِ. «*مَرْحبًا؟*»

صارَ فَمُها جافًّا بِطريقَةٍ غيرِ مَفهومةٍ. «تور؟» تمكَّنَتْ أخيرًا مِنَ النَّقْنَقَةِ كَضفدَعٍ. «هذِهِ أنا. إبريل. إبريل وود»

«إبريل؟» قالَ، وقَدْ بَدا عَلى صوتِهِ الانْدهاشُ، كَما لَوْ أنَّهُ لَمْ يتوقَّعْ أنْ يسمعَ صوتَها مَرَّةً أخرى عَلى الإطلاقِ. «هلْ كُلُّ شيءٍ عَلى ما يُرامُ في الجَزيرَةِ؟»

هَزَّتْ رأسَها، ثُمَّ أدرَكَتْ أنَّهُ لا يستطيعُ رُؤيَتَها. «نعم،» أجابَتْ بِسرعَةٍ. «كُلُّ شيءٍ عَلى ما يُرامُ.»

توقَّفَتْ إبريل لِبُرْهَةٍ. لَمْ تكُنْ أبدًا جيِّدَةً في التَّحدُّثِ عَبْرَ الهاتِفِ، ولا حَتّى في أحْسَنِ الأحوالَ كَما أنَّ التَّحدُّثَ مَعَ شخصٍ

لَمْ تقابِلْهُ سِوى مَرَّةٍ واحدَةٍ مِنْ قَبْلُ جَعَلَها تتوتَّرُ أكثَرَ. أمسكَتِ الهاتِفَ بإحكامٍ.

«كيفَ يُمكِنُني مُساعَدَتُكِ؟» قالَ تور قاطِعًا لحظَةَ الصَّمْتِ.

«أردْتُ فقط أنْ أطرحَ عليكَ سُؤالًا عَنِ الإبحارِ» قالَتْ آمِلَةً أنْ يبدُوَ صَوتُها مُقنِعًا: «أنا . . . أكتبُ تقريرًا للمدرسةِ، وأحتاجُ أنْ أشرَحَ للنّاسِ كيفَ يمكِنُ الذَّهابُ مِنْ جزيرةِ الدُّبِّ إلى (سفالْبارد) بِالقارِبِ.»

«وتريدينَ التَّأكُّدَ مِنْ أنَّ القاربَ سَيبحرُ في الاتِّجاهِ الصَّحيحِ؟» سألَها. «فلا ينتهي الأمرُ بِالنّاسِ في نيويورك؟»

«شيءٌ مِنْ هذا القَبيلِ» اعترفَتْ.

«حَسنًا، في الأيّامِ الخالِيَةِ، استخدَمْنا خريطةَ السَّماءِ لِنَجِدَ طريقَنا.»

«خريطةُ السَّماءِ؟» لَمْ تذكُرِ الموسوعةُ ذلِكَ. «تقصِدُ النُّجومَ؟»

«هذا صحيحٌ. لكنْ هذِهِ الأيّامَ البوصلةُ عملِيَّةٌ أكثرُ.»

تنفَّسَتِ الصُّعداءَ. لَدَيها بوصَلَةٌ.

«سوفَ تحتاجينَ أيضًا إلى مخطَّطِ بحرِ (بارنتس).»

نظرَتْ إلى الخريطةِ. كانَتْ قديمةً بعضَ الشَّيءِ، وزَواياها مَطويَّةٌ لِكثرَةِ الاستخدامِ، لكنَّها سَتفي بِالغرضِ.

«ونظامُ تحديدِ الموقِعِ العالَمِيِّ (GPS)»

«ماذا؟»

«إنَّهُ نِظامٌ متَّصلٌ بِالقَمَرِ الاصطناعيِّ، ويُظهِرُ موقِعَكِ،» قالَ تور، حينَ بَدَأَ الهاتفُ بالهَسْهَسَةِ. تَحدَّثَ بِصوتٍ أعْلى ليجعلَ صوتَهُ مَسموعًا. «كُلُّ مَكانٍ في العالَمِ، حَتّى الأماكنِ الصَّغيرَةِ جِدًّا مِثْلَ جزيرةِ الدُّبِّ، لَها مجموعةٌ مِنَ الإحداثِيّاتِ والقِيَمِ[5]. يَستَخْدِمُها البَحّارَةُ أداةً مِلاحِيَّةً. نتعاملُ مَعَها، وكأنَّها نجومُ العَصرِ الحَديثِ.»

«لكنْ هَلْ يمكنُكَ أنْ تَستغنِيَ عَنْ نظامِ تَحديدِ الموقِعِ العالمِيِّ (GPS)؟» قالَتْ وهِيَ ترفَعُ صوتَها. «أو أنْ تستغنيَ عنِ النُّجومِ؟»

«نعم» قالَ، حينَ بَدَأَ الهاتفُ يُطَقْطِقُ، ويقطِّعُ الصَّوتَ. تكَلَّمَ بِصوتٍ أعْلى فوقَ الهَسْهَسَةِ. «لكنْ . . . أصعبُ . . . اعتمدي . . . بَوْصَلَتُكِ. أَعِدّيها . . . الإحداثِيّاتُ . . . (سفالْبارد) . . . كوني . . . حَذِرَةً . . . الرّيحُ.»

كانَ بِإمكانِها الحُصولُ عَلى الإحداثِيّاتِ مِنَ الخَريطةِ – كانَ سَهلًا عَليها القيامُ بِذلِكَ – ثُمَّ تَتْبَعُ البَوصلَةَ حَتّى تَصِلَ إلى هُناكَ.

«إبريل؟» سَأَلَها، عِنْدَما عادَ الخَطُّ واضِحًا فَجْأَةً «هَلْ ما زِلْتِ عَلى الخَطِّ؟»

«أوه!» جَفَلَتْ حينَ رأَتْ والدَها مِنَ النّافذَةِ، وهُوَ يتَّجِهُ مُباشَرَةً نَحْوَ المَقصورَةِ. «يجِبُ أنْ أذهَبَ،» قالَتْ بِسرعَةٍ. «لكنْ شُكرًا لَكَ!»

وقَبْلَ أنْ يتمكَّنَ تور مِنَ الرَّدِّ أوْ حَتّى أَخْذِ نَفَسٍ، أقفلَتْ إبريل الخَطَّ.

«هَلْ كُلُّ شيءٍ عَلى ما يُرامُ يا إبريل؟» سأَلَ والدُها وهُوَ يدخُلُ المَقصورَةَ معَ هَبَّةٍ مِنَ الهواءِ البارِدِ المتجَمِّدِ، ونفْحَةٍ مِنْ حَلْوى اليانسونِ.

«بِخيرٍ تَمامًا،» قالَتْ وهِيَ تَمُرُّ مِنْ جانِبِهِ في طَريقِها إلى الخارِجِ.

لَمْ يكُنْ لَديها أيُّ شيءٍ آخَرَ تُضَيِّعهُ. حانَ الوقتُ لِتُخْبرَ (دُبّ).

عِنْدَما وصَلَتْ إلى خليجِ (والْروس)، كانَ (دُبّ) يلعَبُ بينَ الأمواجِ، يغوصُ تَحتَها مِثْلَ الفُقْمَةِ ثُمَّ يخرُجُ بعدَ لَحظاتٍ مَعَ شُعاعٍ مِنَ الفَرَحِ. لَمْ يكُنْ قَدْ رَآها بعْدُ، فَتَوَقَّفَتْ لِتَتَفَرَّجَ عَلَيْهِ.

لَمْ يَسَعْها سِوى أنْ تُقارِنَ بينَ ما تَراهُ الآنَ مَعَ ما رَأَتْهُ عندَما الْتَقيا لِأوَّلِ مَرَّةٍ. مِعطَفُهُ لَمْ يَعُدْ رَمادِيًّا ومُلَبَّدًا وخَشِنًا. صارَ الآنَ أملَسَ لامِعًا ومُتلألِئًا مثْلَ غُبارِ النُّجومِ. لَمْ تَعُدْ أذُناهُ ذابِلَتينِ، بَدَلًا مِنْ ذلِكَ، تَراقَصَتا عَلى رأسِهِ، واهْتَزَّتا مُفْعَمَتَيْنِ بِالحَياةِ. لَمْ تَعُدْ قادِرَةً عَلى عَدِّ كُلِّ ضُلوعِهِ. في الحَقيقةِ، صارَ جَسَدُهُ مُكْتَنِزًا، ورُبَّما سَمِنَ بعضَ الشَّيءِ. أمّا وجهُهُ فَقَدْ تَوهَّجَ مِنَ الرِّضا كَشخْصٍ تَناوَلَ لِلتَّوِّ عشاءَهُ المفضَّلَ، وكانَ عَلى وَشَكِ أنْ يَتجَشَّأ بِمِلْءِ فَمِهِ.

بَدا كَما يجِبُ أنْ تبدُوَ كُلُّ الدِّببةِ القُطْبيَّةِ.

سعيدًا وصَحيحًا وقَوِيًّا.

اخْتنقَتْ بِالدُّموعِ، وأدرَكَتْ فَجأَةً أنَّ وقتَهُما مَعًا قارَبَ عَلى نِهايَتِهِ. قبْلَ أسبوعٍ فقطْ، اخْتَفَتِ الشَّمْسُ أخيرًا خلْفَ الأفُقِ إيذانًا بِنِهايَةِ شمْسِ مُنتصَفِ اللَّيلِ لِسَنَةٍ أخْرى. حتى إنّ ساعتَها بدأَتْ تعمَلُ مِنْ جديدٍ، تُحْصي بِدقّاتِها أيامَهُما المتبقِّيَةَ مَعًا.

«(دُبّ)،» همسَتْ، وصَوْتُها يتقَطَّعُ مِثْلَ وَرَقِ الصَّنْفرَةِ.

عندَها سمِعَ صوتَها. رفَعَ رأسَهُ، وارْتَعَشَتْ أُذُناهُ، وأضاءَ وجْهَهُ بِالكامِلِ؛ بِالطَّريقَةِ الّتي يُضيءُ بِها دائمًا عندَما يَرى إبريل. نافِضًا الماءَ عَنْ مِعطَفِهِ وناثِرًا عَلى الشّاطئِ آلافًا مِنْ قَطراتِ

الماءِ بِألوانِ قَوسِ قُزَحَ، ثُمَّ جَرى مُسْرِعًا نَحوَها.

عندَما وَصَلَ إلى جانِبِها، فَرَكَ أنفَهُ عَلى كَتِفِها بِلطْفٍ كأنَّهُ يُحَيّيها، ثُمَّ لَعَقَ وجهَها بِضْعَ مَرّاتٍ أيضًا. وبعْدَ أنْ زَأَرَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما عَلى الآخَرِ، أراحَتْ ذَقْنَها عَلى صدرِهِ، وتنَفَّسَتْ رائحَتَهُ.

كانَتْ رائحَةً تُشبِهُ الوَطَنَ.

رمشَتْ إبريل عِدَّةَ مَرّاتٍ، ثُمَّ دفنَتْ أنفَها في فِرائهِ، ولَفَّتْ ذِراعَيْها حَولَهُ، وابتَلَعَتْ بِصعوبةٍ. لَمْ تحْتَجْ حَتّى لِتقولَ أيَّ شيءٍ.

فَهِمَ (دُبّ).

شعرَتْ بِحُنجرَتِها خَشِنَةً، وحدَّقَتْ طَويلًا في الجِبالِ المُغطّاةِ بِالثُّلوجِ قبْلَ أنْ تشعُرَ بِثقَةٍ كافيَةٍ لِتتحَدَّثَ. «يجْبُ أنْ أعودَ إلى مَوطِني قريبًا،» تمكَّنَتْ مِنَ القولِ أخيرًا. «لَيسَ لأنَّني أريدُ ذلِكَ. لكنْ لأنَّني مُضْطَرَّةٌ لِذلِكَ. يجِبُ أنْ أذهَبَ إلى المدرسةِ حَتّى أتمكَّنَ مِنَ اجْتيازِ بعضِ الامتحاناتِ، مِمّا يَعني أنَّهُ سَيكونُ لَدَيَّ الأوراقُ اللّازمَةُ لِأفعَلَ شيئًا مُهمًّا عندَما أكبرُ،» قالَتْ. «لكِنْ أتعلَمُ شَيئًا؟ لسْتُ مضْطَرَّةً لِلانتظارِ حَتّى أكبرَ. لا أستطيعُ تَرْكَ الأمْرِ لِلآخرينَ لِكَي يَجِدوا حَلًّا. سأفعَلُ شَيئًا لِلمساعدَةِ في إنقاذِ القُطْبِ الشَّماليِّ – ورُبَّما حَتّى الكرةُ الأرضيَّةُ. وهذا الشَّيءِ يبدَأُ الآنَ في الحالِ.»

أخذَتْ نَفَسًا عميقًا. «لنْ أتركَكَ يا (دُبّ). لَدَيَّ خطَّةٌ.»

أحاطَتْ وجهَهُ بِيدَيها حَتّى نَظَرا لِبَعضِهما، عيناها في عَينَيْهِ. كانَتْ عَيناهُ بِلونِ الشّوكولاتَةِ؛ دافِئتينِ ولامِعتينِ. حَدَّقَتا فيها بِطريقَةٍ جعلَتْ دَواخِلَها تَذوبُ.

طَوالَ حياتِها، لَمْ يخطُرْ بِبالِها أنَّها ستَجِدُ أحَدًا ينظُرُ إلِيها بِالطَّريقةِ الّتي نظرَ بِها (دُبّ) إلَيها في تلكَ اللَّحظةِ.

«إنَّها خطَّةٌ خَطرةٌ، لكِنْ لَيسَ لَدينا خَيارٌ آخَرُ. إمّا ذلِكَ أو . . . حَسنًا، *ذاكَ* لَنْ يحدُثَ. اهْدَأْ. لا بأسَ.»

مَسَحَتِ الرُّطوبَةَ مِنْ عَن وجْهِهِ بِأطرافِ أصابِعِها، ومَسَّدَتْ تحتَ أذنِهِ اليُسْرى في المكانِ الّذي يُحِبُّ. «الحقيقةُ هيَ أنَّني خائفَةٌ. أنا لسْتُ شُجاعَةً مِثلَكَ. ما كنْتُ لِأبْقى هنا بِمُفرَدي طَوالَ تلكَ السَّنواتِ مِثلَما فعلْتَ أنتَ. لكنَّهُ أفضَلُ مِنْ ألّا نفعلَ أيَّ شيءٍ، وكَما تعلَمُ، فإنَّ البَشَرَ بارِعونَ جِدًّا في ألّا يفعلوا أيَّ شيءٍ. لا أريدُ أنْ أكونَ ذلِكَ النَّوعَ مِنَ الأشخاصِ بعدَ الآنَ.» رفعَتْ ذَقنَها، وتحدَّثَتْ بِثقَةٍ أكبرَ مِمّا شعرَتْ بِهِ. «لِذا، علَيكَ أنْ تَعِدَني بأنْ تأتيَ مَعِي حَتّى لَوِ اعتَقَدْتَ أنَّها أسوَأُ فِكرَةٍ في العالَم.»

وكانَ هذا حينَ أشارَتْ إبريل إلى القارِبِ.

ارتعشَتْ أُذُنا (دُبّ)، واهتزَّ شارباهُ، وتراجَعَ إلى الخَلْفِ بِطريقةٍ مُفاجئةٍ لِلغايَةٍ اضْطَرَّتها إلى إفلاتِ يَديها عنْهُ خَشيَةَ أنْ يقذِفَ بِها عَبْرَ الشّاطئِ.

نهضَ عَلى الفورِ واقِفًا عَلى قائمَتَيهِ الخَلفِيَّتينِ، شاهِقَ الطّولِ فوقَها مِثْلَ ناطِحَةِ سَحابٍ، وزأَرَ بِغضَبٍ. كانَ أعْلى زئيرٍ سَمِعَتْهُ منهُ عَلى الإطلاقِ، ولَوْ أنَّهما كانا واقِفَينِ عَلى حافَّةِ الجُرْفِ فَلَرُبَّما وصلَ زئيرُهُ هذا إلى القمرِ، وعادَ منهُ عِدَّةَ مَرّاتٍ عَلى الأقلِّ.

عندَما انتَهى، أخرجَتْ إصْبَعيها مِنْ أذُنَيها، ورفعَتْ نفْسَها لِتستَقيمَ عَلى امْتدادِ قامَتِها الكامِلَةِ، وقالَتْ: «انْظُرْ (دُبّ)، سأفعَلُ ذلِكَ سَواءً أعجبَكَ أمْ لا، لا يمكِنُكَ إيقافي. لكنْ سيكونُ الأمرُ أسهلَ بكثيرٍ إذا وافَقْتَ—»

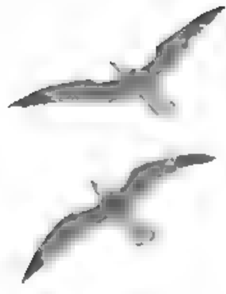
زأرَ (دُبّ) مَرَّةً أخْرى، بصوتٍ طَغى عَلى بقيَّةِ ما كانَتْ عَلى وَشَكِ قولِهِ. وفي هذه المرةِ حَتّى الشَّمْسُ اختبأتْ، والأرضُ ارْتعدَتْ، والجبالُ ارْتجفَتْ. زأرَ وهاجَ وزمجَرَ لِفترَةٍ بَدَتْ أنَّها وقْتٌ طويلٌ جِدًّا – معَ أنّه كانَ مِنَ الصَّعبِ مَعرِفَةُ الزَّمنِ بِالضَّبطِ. لكنَّهُ كانَ كافِيًا لِتجلِسَ إبريل بِجوارِ القارِبِ المَقلوبِ، وتقَلِّبَ الخيوطَ بِيَدَيها عَشْرَ مَرّاتٍ عَلى الأقلِّ، وتأخُذَ قَيلولَةً سَريعةً.

في النِّهايةِ، توقَّفَ (دُبّ) عن الزَّئيرِ كَما توقَّعَتْ.

«هذا خيارُكَ الوحيدُ. لا يمْكنُكَ البقاءُ هنا.» همسَتْ.

في النِّهايةِ، أراحَ ذقنَهُ عَلى كَتِفِها، تأوَّهَ بِلطْفٍ، ثُمَّ لَعَقَ وَجهَها.

«سآخذُكَ إلى موطنِكَ.»



الفصلُ الثّاني والعشرونَ

مُفاجأةٌ غَيرُ مَرْغوبٍ بِها

عادَتْ إبريل إلى خليجِ (والْروس) كُلَّ يومٍ خِلالَ الأسبوعِ التّالي. وفي كُلِّ يومٍ كانَتْ تشكُرُ تِريليوناتِ النّجومِ الّتي في السَّماءِ الشَّماليّةِ؛ لأنَّ والدَها كانَ يُواجِهُ صُعوباتٍ مَعَ واحدَةٍ مِنْ آلاتِهِ الرَّئيسةِ - فَالوقتُ الّذي قَضاهُ في مُحاولَةِ إصْلاحِ الآلَةِ كانَ يَعْني أنَّه لَمْ يَلْحَظْ ما فَعَلتْهُ مِنْ وراءِ ظَهرِهِ.

*

كانَ التَّحَدّي الأكبرُ هُوَ الطَّعامُ. حَتّى مَعَ التَّقنينِ الشَّديدِ، أوشَكَ الطَّعامُ الّذي خَبَّأَتْهُ تحتَ سَريرِها عَلى الاختفاءِ؛ لِذلِكَ كانَ عَليها أنْ تُسابِقَ الزَّمنَ، وتتأكَّدَ مِنْ أنَّ القارِبَ سَيكونُ جاهِزًا قَبْلَ نَفادِ الطَّعامِ. لكنْ تَعيَّنَ عَليها أيضًا أنْ تحتفِظَ ببعضِ الطَّعامِ مِنْ أجلِ الرِّحْلَةِ.

حَتّى الآنَ، خزَّنَتْ في القارِبِ:

- *ثلاثَ برطماناتٍ مِنْ زُبدَةِ الفولِ السّودانِيِّ المقرمَشَةِ (تركَتْ واحدةً فقط تحتَ سريرِها)؛*
- *آخِرَ أربعِ علبٍ مِنْ بسكويتِ الشّوفانِ.*
- *علبةً واحدةً مِنْ حساءِ الطّماطمِ لَها، وثلاثَ علبٍ مِنْ مَرَقَةِ اللَّحْمِ (لِدُبّ).*
- *علبةً واحدةً مِنْ خوخِ الشَّرابِ (لَمْ تكنْ تحبُّها، لكنَّ (دُبّ) رَجاها بنظرتِهِ المُدبيَةِ أنْ تحضِرَ بعضَ الأطْعِمَةِ المُحلّاةِ).*
- *ثلاثَ قطعٍ مِنْ حلوى اليانسونِ الخاصَّةِ بِوالِدِها (أحضَرَتْها لأسبابٍ عاطفيَّةٍ. فَعلى الرّغمِ مِنْ أنَّهما لَمْ يكونا على وِفاقٍ، فإنَّها أرادَتْ أنْ تأخُذَ مَعها شيئًا يذكِّرُها بِهِ).*
- *غالونين من الماءِ.*

• فتّاحة علبِ القصديرِ.
• سكّينَ الجيشِ السّويسريّ الخاصّة بأبيها.
• البوصلَة لِتدُلَّهما على وجهةِ (سفالْبارد).
• الكتابَ عَنِ الدّائرةِ القُطبيَّةِ الشّماليّةِ الّذي تضمَّنَ خريطةً تقريبيّةً لِبحرِ (بارنتس) بينَ جزيرةِ الدُّبِّ و(سفالْبارد).
• مشمَّعًا لِتغطيةِ القاربِ، وحمايَتِهِ مِنَ الأمواجِ العاليةِ والعواصِفِ.
• بعضَ أقْراصِ دُوارِ البحرِ.
• بِنطالَها وسُتْرَتَها المضادّينِ للماءِ، إضافةً إلى قبَّعَةٍ مُقاوِمةٍ للماءِ.
• زوجينِ مِنَ الجواربِ الصّوفيَّةِ.
• كنْزَةَ الصّوفِ الّتي حاكَتْها لها الجَدَّةُ (أبلز) في عيدِ الميلادِ العامَ قبْلَ الماضي، (مَعَ أنَّ أكمامَها صارتْ قصيرةً بعضَ الشَّيءِ)،
• كيسًا بلاستيكيًّا بِسحّابٍ وجدَتْهُ في خزانةِ المطبخِ.
• علبةَ الإسعافاتِ الأوّليَّةِ مِنَ المقصورةِ. (شعرَتْ بِالضّيقِ، لأنَّها أخذَتْها، فماذا سيحدُثُ لَوْ جَرَحَ أبوها نفسَهُ؟).
• وسادَتَها.
• وأخيرًا حصاتَها الّتي عَلى شَكْلِ قَلْبٍ.

*

كانَتْ بعضُ هذِهِ الأشياءِ، مِثْل الماءِ، ثَقيلةً جِدًّا لِدرجَةِ أنَّها اضطَرَّتْ إلى الاستِعانَةِ (بِدُبّ) لِمساعَدَتِها في جَرِّ الزَّلّاجةِ. لكنَّها تمكَّنَتْ مِنْ أنْ تخبِّئَ الباقي في حَقيبَةِ ظَهرِها. للأسَفِ، ما لَمْ يكُنْ لَديها، ورُبَّما تَحتاجُهُ أكثَرَ مِنْ أيِّ شيءٍ آخَرَ، هُوَ سُتْرَةُ النَّجاةِ. لكنَّها سَتَأْخُذُ هاتِفَ الاتِّصالِ عَبْرَ الأقْمارِ الاصْطِناعيَّةِ بَدَلًا مِنْ ذلِكَ. سَيكونُ ضَروريًّا في حالاتِ الطَّوارئِ مَعَ أنَّ ذلِكَ أقلَقَها؛ لأنَّها سَتترُكُ والِدَها مِنْ دونِهِ.

كانَتْ عَمليَّةُ إصْلاحِ القارِبِ أكثَرَ صُعوبَةً.

أوَّلًا، كانَ عَليها إقناعُ (دُبّ) أنْ يَقْلِبَهُ لِيَصيرَ في وَضْعِهِ الصَّحيحِ، ومِنْ ثَمَّ كانَ عَليها إصلاحُهُ. لِحُسْنِ الحَظِّ، كانَ في المَقصورةِ كِتابٌ يَشْرَحُ كُلَّ شيءٍ عَنِ القوارِبِ، وبِالاستفادَةِ مِنْ تَوجيهاتِهِ إلى جانِبِ ذِكرياتِها عَنِ الصَّيّادينَ عَلى أرصِفَةِ الموانئِ وهُمْ يُعِدُّونَ قَوارِبَهُم في بِدايةِ الصَّيفِ، فقدْ أزالَتْ كُلَّ الحُطامِ مِنَ الدّاخِلِ، وباستخدامِ وَرَقِ الصَّنْفَرَةِ الّذي وجدتْهُ في المَخزنِ، صَقَلَتْ جميعَ الخُدوشِ وَالنُّتوءاتِ والمَواضِعِ الخَشِنَةِ. كانَ الأمرُ أصعبَ بِكثيرٍ مِمّا بَدا علَيهِ. عادَتْ يومًا بعدَ يومٍ إلى خليجِ (والْروس) حَتّى آلَمَتْها ذِراعاها، وتخدَّشَتْ أصابِعُها حَتّى الاحْمرارِ، وتشنَّجَ أسفَلُ ظَهرِها.

في مَقصورةِ الطَّقْسِ، وجدَتْ بعضَ المَساميرِ ومِطرَقَةً، وبِاستخدامِ أحَدِ ألواحِ الخَشَبِ المُفَكَّكَةِ مِنَ الكوخِ المَهجورِ، صنعَتْ حاجِزًا صغيرًا في قاعِدَةِ القارِبِ؛ حَتّى لا تَنْزَلِقَ أغراضُهُما وتتَبعْثَرَ في كُلِّ مكانٍ.

أصلحَتِ المقعدَ بِاستخدامِ قطعةِ خشبٍ ناعمةٍ مِنْ قِطَعِ الخشبِ الّتي جَرفَتْها الأمواجُ. وبِمجرَّدِ اكْتمالِ تحميلِ القارِبِ، كانَتِ المهمَّةُ الأخيرةُ هِيَ تثبيتُ القُماشِ المشمَّعِ بِالمساميرِ؛ لِيحميَ الحُمولَةَ مِنَ الأمواجِ العالِيَةِ والطَّقْسِ السَّيِّءِ، ورُبَّما حَتّى حَيواناتِ الفَظِّ.

أبقَتْها مَخاوِفُ كثيرةٌ مُستيقِظَةً في اللَّيلِ، لكنَّ أكبَرَها كانَ كيفَ تتأكَّدُ مِنْ أنَّ القارِبَ سَيَجِدُ طَريقهُ شَمالًا إلى (سفالْبارد)، ناهِيكَ عَنِ العودَةِ إلى جزيرةِ الدُّبِّ مَرَّةً أخْرى بَعْدَ ذلِكَ. كانَتْ لَدَيْها البَوصَلَةُ، لكنْ دونَ مُحَرِّكٍ أوْ شِراعٍ، كانَ عَلَيْها الاعْتمادُ عَلى مِجدافٍ واحدٍ والتَّجديفُ بِهِ بِنَفْسِها.

كانَ ذلِكَ مَطْلبًا كبيرًا. لكنْ نَظَرًا لأنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْها أيُّ بَديلٍ آخَرَ سِوى أنْ تَترُكَ (دُبّ) هُنا، تعيَّنَ عَليها أنْ تَفعلَ ذلِكَ.

تقرَّرَ أنْ يكونَ مَوعِدُ الانْطلاقِ في العاشِرِ مِنْ شهرِ سبتمبر،

وهُوَ أبعَدُ تاريخٍ أمكَنَها أنْ تُمَدِّدَ إلَيهِ في ظلِّ مَؤونَتِهما المتناقِصَةِ.

«لَمْ يتبَقَ أيُّ طعامٍ تقريبًا،» قالَتْ إبريل (لِدُبّ). «لِذا عَلينا أنْ نُغادِرَ في هذا التّاريخِ، لا تقْلَقْ، ما زالَ أمامَنا أسبوعٌ، وآمُلُ أنْ يكونَ الطَّقْسُ ألطَفَ بِحلولِ المَوعِدِ.»

منذُ أنِ انْتَهَتْ مِنْ إعدادِ القارِبِ، غرقَتِ الجَزيرةُ بِالأمطارِ. لَمْ يكُنِ المطَرُ مِنْ نوعِ الرَّذاذِ النّاعِمِ الّذي اعْتادَتْ علَيهِ إبريل في موطِنِها، كانَ كَثيفًا وغَزيرًا وثقيلًا اخْترَقَ الهواءَ مِثْلَ الإبَرِ. مَطَرٌ جَارِفٌ عَبَرَ الجزيرةَ مِثْلَ مِلاءاتٍ مِدْرارَةٍ، وجعَلَ الأمواجَ ترتَفِعُ مِثْلَ التَّماسيحِ. مَطَرٌ جَمَّدَتْ بُرودَتُهُ إبريل حَتّى العَظْمِ في كُلِّ مَرَّةٍ خرجَتْ فيها، وأصابَها في النِّهايةِ بِنزلَةِ بَرْدٍ سَيِّئَةٍ، وعُطاسٍ عالٍ، ورَشْحٍ شَديدٍ في الأنْفِ.

أمضَتِ اليَومينِ الماضِيينِ مُستلقِيَةً عَلى الأريكَةِ أمامَ النّارِ. كانَتْ تفضِّلُ الاسْتلقاءَ عَلى سَريرِها لِتتجَنَّبَ نَظراتِ والدِها؛ بينَ الحينِ والآخَرِ كانَتْ تَضبِطُهُ وهُوَ يُبحلِقُ فيها. لكنَّ غُرفَةَ نومِها كانَتْ بارِدَةً.

كانَ رأسُها ينبِضُ. وكانَتْ بشرَتُها مُبلَّلةً بِالعَرَقِ. وشعَرَتْ بِلِسانِها سميكًا. حَتّى لَوْ أرادَتِ الحَرَكَةَ، ما كانَتْ لَتستطيعَ ذلِكَ.

كانَتْ متسلِّحَةً بِصندوقٍ مِنَ المناديلِ، وبعضِ حِساءِ الطَّماطِمِ المُخفَّفِ.

كانَتْ تشعُرُ بِالأسَفِ الشَّديدِ عَلى نفْسِها، فضْلًا عَنْ قلَقِها بِشأنِ (دُبّ).

«أخبارٌ سارَّةٌ،» قالَ والِدُها، وهُوَ يقفِلُ الهاتِفَ المتَّصِلَ بِالأقمارِ الاصْطناعيَّة.

«هممم؟» قالتْ إبريل بَنَخْنَخَةٍ.

اسْتخدَمَ والِدُها هاتِفَ الأقْمارِ الاصْطناعيَّةِ في وقتٍ مُبكِّرٍ اليَومَ؛ لِيعرِفَ كيفَ يُصلِحُ جِهازًا لا يعمَلُ.

افْترضَتْ إبريل أنَّ هذِهِ المُكالَمَةَ كانَتْ مِنَ المُهندِسِ الّذي عاوَدَ الاتِّصالَ بِهِ.

«كانَ هذا مُديري، السَّيِّدُ أولسن،» قالَ والِدُها. «الشّابُ الّذي سَيَتوَلّى المهمّةَ بعدَنا سيصِلُ أبكَرَ مِمّا هوَ متوقَّعٌ.»

«ماذا؟» عَطَسَتْ بِعنفٍ. «لِماذا؟»

«يَبْدو أنَّ مهمَّتَهُ السّابِقةَ أُنْجِزَتْ أبكَرَ مِمّا هُوَ متوقَّعٌ، وهُوَ عَلى استعدادٍ لِيبدَأَ هُنا مبكِّرًا، يَعْني ذلِكَ أنَّ بإمكانِنا العودَةَ إلى بيتِنا يا إبريل. لا أعرِفُ عنْكِ، لكنّي أعتقِدُ أنَّني مُستعِدٌّ لِبعضِ الرّاحةِ مِنْ جديدٍ. وفقط تَخَيَّلي! مُرَبّى البرتقالِ عَلى

خبزِ (الكرَمْبيتْ) المدهونَةِ بِالزُّبدَةِ. كعكَ (السكُنْ) السّاخِنَ المَخبوزَ لِلتَّوِّ مَعَ مُرَبّى التّوتِ. والبنَّ المَطحونَ مَع الحليبِ الطّازَجِ.»

«لكنْ . . .» قالَتْ إبريل وشعرَتْ بِحَلْقِها يَضيقُ ويحتَقِنُ، وبِقلبِها يَطرُقُ بِقوَّةٍ. حاولَتْ أنْ تتكلَّمَ، لكنَّ الكلماتِ تَزاحمَتْ في حلقِها «لكِنْ . . .»

كعكُ (السكُنْ)؟ مُربّى البرتقالِ؟ البُنُّ المَطحونُ؟

«لا يمكنُنا أنْ نُغادِرَ الآنَ!»

«لكنَّكِ ستكونينَ أفضَلَ حالًا هُناكَ،» قالَ والدُها، وحَدَجَها بواحِدَةٍ مِنْ نَظراتِهِ تلْكَ. «أَلا تريدينَ العودَةَ إلى البيتِ؟»

«لا!» قالَتْ مُعترِضَةً، وعطسَتْ مَرَّةً أخْرى. «أنا بِحاجَةٍ لِمَزيدٍ مِنَ الوقتِ.»

«وقْتٌ لِماذا؟»

«أعطيتَني هذِهِ السّاعَةَ في بِدايَةِ فصلِ الصَّيفِ، وقلْتَ إنَّها مِنْ أَجْلِ (فري*لو*فتستريف). الآنَ أنتَ تأخذُ (فري*لو*فتستريف) منّي!»

فتحَ والدُها فمَهُ، وأغلَقَهُ.

عرفَتْ إبريل أنَّها لَمْ تكُنْ واضحَةً عَلى وجْهِ التَّحديدِ، لكنَّها

لَمْ تعرِفْ كيفَ تعبِّر عَنْ نفسِها. كيفَ يمكِنُها ذلِكَ؟ كانَ رأسُها ممتلِئًا بِالزُّكامِ، وشعرَتْ بِدِماغِها مُشَوَّشًا.

لَمْ تستطِعْ أنْ تُحدِّثَهُ عَنْ (دُبّ) مَرَّةً أخْرى، ليسَ بعدَ مُحادثَتِهما الأخيرةِ الّتي انتهَتْ على نحْوٍ سَيِّءٍ جِدًّا. لكنَّ كُلَّ ما أمكَنَها تَصوُّرُهُ هوَ وجهُهُ، ونظرةُ الرَّجاءِ في عَينيهِ كلَّما حَدَّقَ بِها.

في النِّهايةِ بدأَتْ بِالبُكاءِ، ليسَ بِالشَّهقاتِ الكبيرةِ البَشعَةِ، بَلْ بِدموعِ إحْباطٍ صغيرةٍ خرجَتْ رغْمًا عنها، وسالَتْ عَلى خَدَّيها. مَسحَتْها بِغضَبٍ، وقالَتْ: «أنتَ دائمًا تأخُذُ مِنّي كلَّ ما أحِبُّهُ.»

بَدا والِدُها مُندهِشًا، كأنَّها سكبَتْ علَيْهِ كوبًا مِنَ الماءِ البارِدِ.

«هذا ليسَ صَحيحًا.»

«هذا صحيحٌ!» قالَتْ باكِيَةً. «أخذتَ مِنّي الجُرْذَ الّذي أنقذْتُهُ!»

«هذا لأنَّهُ كانَ جُرْذًا،» أجابَها، وسحَبَ منديلَهُ الرِّجاليَّ الكبيرَ مِنْ جَيبِ سُترتِهِ، ونفَضَ عنهُ ما عَلِقَ بِهِ مِنْ ورقِ حَلوى اليانسونِ قَبْلَ أنْ يقدِّمَهُ لَها. «لَمْ يكنْ مكانُهُ في المنزِلِ.»

«ماذا عَنْ مركَزِ إنقاذِ الحيواناتِ؟»

«أيُّ مركزٍ لإنقاذِ الحيواناتِ؟»

«بالضَّبطِ!» تمخَّطَتْ. «يريدونَ مُتطوِّعينَ لِلمُساعدَةِ في تنظيفِ الخُيولِ، لكنّي أحتاجُ إلى ورقَةِ إذنٍ لِلعمَلِ هُناكَ. طلبْتُ مِنكَ ذلِكَ عِدَّةَ مَرّاتٍ، لكنَّكَ لَمْ تُوقِّعِ الورقةَ بَعْدُ!»

«لكنْ . . . كيفَ يُمكِنُ أنْ توجَدَ خُيولٌ في وسطِ المَدينةِ؟» سألَ وهُوَ يَستعيدُ المنديلَ المُغَطّى بِالمخاطِ بِتردُّدٍ. «لَمْ أدرِكْ حَتّى أنَّهُ كانَ هُناكَ إسطبلٌ قَريبٌ مِنّا.»

«هذا لأنَّكَ لا تُصْغي إليَّ أبَدًا!» صرخَتْ إبريل بغَضَبٍ. «أنتَ لا تعرِفُ أيَّ شيءٍ عَمّا أريدُ! قلْتَ إنّنا قادِمانِ إلى الدّائرةِ القُطبيَّةِ الشَّماليّةِ لِقضاءِ بعضِ الوقْتِ معًا. لكنَّكَ كَذَبْتَ! أنتَ مُنشغِلٌ جِدًّا بِحُزنِكَ عَلى أُمّي طَوالَ الوقْتِ حَتّى إنَّك لا تَراني! إمّا ذلِكَ، أو أنَّكَ تعمَلُ!»

ارتعَشَ حاجِبا والِدِها بِالطَّريقةِ المُضحِكَةِ الّتي يتحرّكانِ بِها دائمًا كلَّما شعَرَ بِالتَّوتُّرِ. تقوَّسَ طَرَفا فمِهِ، ثُمَّ صَفّى حُنْجُرَتَهُ، وقالَ: «رُبَّما يُمكِنُنا . . . الحصولُ عَلى دروسٍ في رُكوبِ الخيلِ عندَما نعودُ إلى المنزلِ.»

«لا أريدُ دروسًا في ركوبِ الخيلِ!»

لَمْ تقصِدْ إبريل أنْ تزأرَ. لكنَّ الزَّئيرَ خرَجَ فقط.

لو كانَ (دُبّ) هُنا، لكانَ فَخورًا بها؛ لأنَّهُ كانَ أعْلى زئيرٍ أطلقَتْهُ حَتّى الآنَ.

كانَتْ قوَّةُ زَئيرها صامَّةً لِلآذانِ لِدرجَةٍ جعلَتْ يَدَ والِدِها ترتَجِفُ والقهوةُ في فنجانِهِ تُطَرْطِشُ عَلى وجهِهِ. بعْدَ أنْ مَسَحَ حاجِبَهُ بِالمنديلِ المُغَطّى بِالمُخاطِ، وأخَذَ نَفَسًا ثابِتًا، فتَحَ عينَيهِ عَلى اتِّساعِهِما، ونظَرَ إلى إبريل كَما لَوْ أنَّهُ يَراها للمَرَّةِ الأولى مُنذُ سَنواتٍ.

حدَّقَتْ إبريل بِدورِها بِهِ.

كانَ الزَّئيرُ يخْفُتُ في صدرِها، لكنَّ قلبَها كانَ ما يزالُ يضرِبُ بِشراسَةٍ، والدَّمَ يضُخُّ في عروقِها مِثْلَ حِمَمِ البراكينِ المُنصهِرَةِ السّاخِنَةِ.

«لَمْ يَعُدْ يهمُّني ذلِكَ بعدَ الآنَ.» كرَّرتْ بِصوتٍ هادئٍ وثابِتٍ. «أنا فقط لسْتُ مُستعدَّةً لِلعودةِ إلى المنزلِ بَعْدُ.»

«إبريل؟» مَدَّ والِدُها يدَهُ كَما لَوْ أنَّهُ عَلى وشَكِ أنْ يربِّتَ عَلى كَتِفِها، لكنَّهُ تردَّدَ وسَحَبَها. «الأمْرُ هُوَ أنَّني لَمْ أكُنْ سَأوافِقُ، لكِنْ . . . بعْدَ ذلِكَ الحديثِ عَنِ الدُّبِّ القُطبيِّ، ثُمَّ ما حَلَّ بالطَّعامِ . . . فكَّرْتُ . . . اعتقَدْتُ أنَّكِ سَتكونينَ أفضَلَ حالًا

إذا عُدْنا إلى البيتِ؛ لِذا . . . وافَقْتُ.»

«قُلْ لَهُمْ إنَّك لَمْ تَعُدْ مُوافِقًا، إذنْ!»

«لقَدْ فاتَ الأوانُ،» قالَ والدُها. «سيكونُ هُنا غدًا.»



الفصلُ الثّالثُ والعشرونَ

لَمْ يَعُدْ هُناكَ وَقْتٌ

كانَتْ إبريل تحِبُّ أنْ تفكِّرَ أنَّها أكبرُ مِنَ الفَتياتِ الأُخرياتِ اللَّواتي في مِثْلِ عُمْرِها. كانَتْ تقولُ لِنَفْسِها في أغلَبِ الأحيانِ: «قدْ أكونُ قَصيرةً، لكنَّني عَلى الأقلِّ لَسْتُ طِفلَةً سَريعةَ البُكاءِ.» إلّا أنَّها في هذِهِ اللَّيلةِ، دخلَتْ غاضِبَةً إلى غرفَةِ نومِها، وصفقَتِ البابَ خلفَها، ثُمَّ ارْتمَتْ عَلى السَّريرِ بِوجهِها، وصرخَتْ في وِسادَتِها.

طَرَقَ والدُها بابَ الغرفَةِ مَرَّةً، ثُمَّ طَرَقَ مَرَّةً أُخْرى، ثُمَّ تَرَكَها وشأنَها. بعْدَ قليلٍ، امتلأَتِ المقصورَةُ بِعَزْفٍ مُنفرِدٍ بِالنّايِ وَالقيثارَةِ لِمَقطوعَةِ (موتزارت). كانَ عَزْفًا مُريحًا ولَطيفًا، ونفَسًا بَعْدَ نَفَسٍ، بدأَتْ إبريل تستعيدُ هدوءَها.

كانَتْ ردَّةُ فِعْلِها نابِعَةً مِنَ الصَّدمَةِ، هذا كُلُّ ما في الأَمْرِ.

لَمْ تقصِدْ أنْ تصرُخَ وتزأَرَ في وجْهِ أبيها. لكنَّ تَعابيرَ وجهِهِ لَحْظَتَها جعَلَتْها تَتساءَلُ إنْ كانَتْ قَدْ رأتْهُ مَرعوبًا إلى هذا الحَدِّ مِنْ قَبْلُ. لكنَّ ذلِكَ لَمْ يحدُثْ، ليسَ منذُ أنْ ضَبطَها وهِيَ تتشَقْلَبُ عَلى سطْحِ مَخزنِ حديقَةِ المنزلِ، وصارَ لونُهُ مِثْلَ الملاءةِ البيضاءِ. ضحكَتْ رغمًا عنها، لكنَّها توقَّفَتْ بعدَ ذلِكَ، وهرَبَتِ الضَّحكاتُ منها كَما يتخثَّرُ الحليبُ.

كانَ عالِمُ الأرصادِ الجَوِّيَّةِ الجديدُ قادِمًا غدًا.

غدًا!

كانَ بِمقدورِها سَماعُ حركَةِ والِدِها وهوَ يحزمُ مَتاعَهُ.

انْتصبَتْ بِحزمٍ في جَلْسَتِها، وهزَّتْ رأسَها لِتتخلَّصَ مِنَ الزُّكامِ. أوَّلًا، أمالَتْ رأسَها ناحِيةَ اليَسارِ؛ لِينسكِبَ الزُّكامُ مِنْ خِلالِ أُذُنِها. ثُمَّ أمالَتْهُ ناحِيةَ اليَمينِ لِتَتخلَّصَ مِنْ بِقاياهُ المُتبعثِرَةِ. عِندَما شعرَتْ أخيرًا بِأنَّ رأسَها صارَ أقلَّ ضَبابيَّةً، فتحَتِ النّافذةَ

بِسرعَةٍ، فإذا بِموجَةِ هَواءِ قارِسَةِ البرودَةِ تندفِعُ داخِلَةً، وتنفجِرُ نابِحةً في وجهِها.

بعدَ طولِ انْتظارِ، صارَ رأسُها أكثَرَ صَفاءً.

اغْتَسلَتِ الجزيرةُ بِشمسِ المَساءِ اللَّطيفةِ، كانَ المطرُ قَدْ توقَّفَ، إلّا أنَّ الماءَ كانَ ما يزالُ يَحومُ في الهواءِ. لَنْ تَرى هذا المنظَرَ مَرَّةً أخرى. لَنْ تَرى كيفَ تجعلُ الشَّمسُ لَونَ البحرِ وَردِيًّا، وكيفَ تَبدو السَّماءُ مِثْلَ المشمشِ. لَنْ تَرى الجبالَ الثَّلاثةَ المُغطّاةَ بِالثُّلوجِ وهِيَ تشكِّلُ الأفقَ، ونَباتاتِ الجولقِ البرِّيَّةَ، ومئاتِ البحيراتِ الزَّرقاءِ، أوْ أيًّا مِنَ الأماكنِ السِّرِّيَّةِ الّتي استكشَفَتْها خِلالَ الأشهرِ القليلَةِ الماضيةِ.

حدَّقَتْ فيها بِشِدَّةٍ، ولفترَةٍ طويلَةٍ، واستنْشَقَتْها كلَّها حتَّى شَعرَتْ بِالدُّوارِ.

لَمْ يكنْ هناكَ أثَرٌ (لِدُبّ).

ولَمْ يكنْ ذلِكَ مُهمًّا. كانتْ تعرِفُ بِأنَّهُ سَيسمَعُها عَلى أيِّ حالٍ.

«سَنرحَلُ اللَّيلَةَ،» همسَتْ، وقوَّسَتْ كَفَّيْها حولَ فَمِها «سألقاكَ عندَ القاربِ منتصفَ اللَّيلِ.»

أَرْهَفَتِ السَّمْعَ بِالطَّريقةِ الّتي علَّمَها (دُبّ) بِها الإصغاءَ.

سمِعَتْ هديرَ الأمواجِ في البعيدِ، وزعيقَ النَّوارسِ، وتنهيدَةَ الجِبالِ، وتَنَفُّسَ الأرضِ اللَّطيفَ.

ومِنْ ثَمَّ.

جاءَها.

زئيرُ (دُبّ).

كانَ زئيرًا اخترَقَ الأرضَ ورَجَّها رَجًّا، ثُمَّ عَبَرَ سَطحَها قافِزًا وراكِضًا ومُجَلْجِلًا حتّى وصلَ نافِذَتَها، وارتطَمَ بِقلْبِها. أمسكَتْ بِزئيرِهِ قريبًا مِنْ صَدرِها، وغاصَتْ عائدَةً إلى سَريرِها، ثُمَّ استنْشَقَتْهُ كامِلًا إلى داخِلِها مِنْ قِمَّةِ رأسِها حتّى أخمَصِ قدمَيْها. بعدَ فترَةٍ، لَمْ تعُدْ تشعُرُ بِأوجاعِها وآلامِها أوْ بأنفِها الممتَلِئِ بالمُخاطِ. شعرَتْ بِأنَّها ممتلِئةٌ بِشيءٍ أجمَلَ بِكثيرٍ.

كانتْ ممتلِئةً بِطاقَةِ (دُبّ).

كانَ القاربُ جاهزًا.

وكانَ عَلَيها الآنَ أنْ تكونَ مُستعِدَّةً أيضًا.

انتظرَتْ حتّى السّاعةَ الحاديةَ عشرةَ تقريبًا، وضعَتْ حِذاءَ المطرِ الملوَّنَ بِألوانِ قوسِ قُزَحَ وَثبَّتَتْ قبَّعَتَها عَلى رأسِها، وسحبَتْها إلى أسفَلَ. كانَ هُناكَ شيء أخيرٌ عَلَيها أنْ تفعَلَهُ.

بِهدوءٍ سَخَّنَتْ بعضَ الحليبِ المعقَّمِ في قِدْرٍ صَغيرَةٍ، وأضافَتْ إليهِ الشّوكولاتَةَ السّاخنةَ، ثُمَّ كتبَتْ رِسالَةَ وَداعٍ قصيرةً لِأبيها. لقَدْ فكَّرَتْ في كلماتِها طَوالَ المِساءِ.

أبي العزيز،

أنا آسفةٌ لأنَّني صرخْتُ في وجهِكَ في وقتٍ سابقٍ اليومَ.

لَمْ أقصِدْ ذلكَ. كنتُ فقط قلِقَةً بِشأنِ (دُبّ) وأنا أقولُ الحقيقةَ.

أُحِبُّكَ.

إبريل

ملاحظةٌ: مِنْ فضلِكَ لا تتبَعْني لأنَّ ذلكَ سيكونُ خطيرًا جِدًّا.

لمْ تستطِعْ أنْ تتذكَّرَ آخِرَ مَرَّةٍ أخبرَتْ فيها والدَها أنَّها تحبُّهُ. ليسَ منذُ كانتْ أمُّها على قيدِ الحياةِ. بَدا لها الأمرُ سخيفًا بعضَ الشَّيءِ وهِيَ تفكِّرُ بِهِ الآنَ.

فقطْ لأنَّ والدَتَها ماتَتْ لا يَعني أنَّها ووالدَها لا يستطيعانِ أنْ يحبّا بعضَهُما بعضًا.

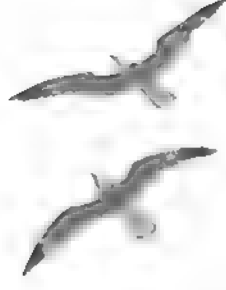
وعَلى الرَّغمِ مِنْ أنَّهما تَخاصَما، ولَمْ يمضِ الصَّيفُ كَما أرادَتْ تَمامًا، فإنَّ مُجَرَّدَ التَّفكيرِ في شعرِهِ الرَّماديِّ الّذي يشبِهُ القَشَّ،

وحاجِبيهِ الجامِحَينِ، وعينَيهِ الرَّماديَّتَينِ الوَديعتَينِ، كادَ يُثنيها عَنِ الرَّحيلِ. كَمْ هوَ غريبٌ أنْ تفكِّرَ، في لَحظةِ المُغادرَةِ، بِبليونِ شيءٍ وشيءٍ لِتقولَهُ لَهُ:

- شكرًا عَلى علَبِ الشّوكولاتَةِ الّتي كانَ يَجلِبُها لَها كُلَّ يومٍ حينَ أصيبَتْ بِالحصْبَةِ، واضطرَّتْ إلى التَّغيُّبِ عَنِ المدرسةِ لمدَّةِ ثلاثةِ أسابيعَ.
- أنَّ مقطوعَةَ (موتزارت) المفضَّلَةَ لَدَيها كانتْ (أنتَ مَنْ يَعرفُ) مِنْ *أوبرا (زَواجِ فيغارو)* لأنَّها جعلَتْها تشعُرُ بأنَّها تقفِزُ.
- أنَّ عَلَيهِ أنْ يَشتريَ لِنفسِهِ حِذاءً واقيًا مِنَ المطرِ بِلونِ قَوْسِ قُزَحَ؛ لأنَّهُ سيجعَلُهُ يَبْدو أقلَّ جِدِّيَّةً.
- أنَّها ندِمَتْ لأنَّها لَمْ تسأَلْهُ أكثَرَ عَنْ عملِهِ في الجامِعَةِ، وإنْ كانَ مُستمتِعًا بِهِ بِالفِعْلِ أمْ لا.
- وما ذِكْرَياتُهُ المُفضَّلَةُ عَنْ أمِّها حتّى تتمكَّنَ رُبَّما مِنْ أنْ تشارِكَهُ فيها.

لكنْ فاتَ الأوانُ عَلى كُلِّ ذلِكَ.

وهكَذا تركَتْ إبريقَ الشّاي وكوبَهُ والرِّسالَةَ خارِجَ بابِ غرفَةِ نومِهِ، ودونَ أنْ تتوقَّفَ للتَّفكيرِ في الأمرِ كثيرًا، ألقَتْ بِحقيبةِ ظَهرِها عَبْرَ نافذَةِ غرفةِ نومِها، ومَعَ تنهيدةِ جُهْدٍ بَسيطةٍ، قفزَتْ خلفَها.



الفصلُ الرّابعُ والعشرونَ

القاربُ

عادَ المَطَرُ وهطَلَ مِدْرارًا مِثْلَ ستائِرَ سَميكَةٍ وثقيلَةٍ عَلى طولِ الطَّريقِ إلى خليجِ (والْروس). تسرَّبَ إلى أسْفَلِ عنُقِ إبريل، وانسكَبَ عَلى طولِ عمودِها الفَقريِّ، وتمكَّنَ حَتّى مِنَ الوصولِ إلى داخِلِ حِذائها الواقي مِنَ المَطَرِ.

أدركَتْ، لَدى وصولِها إلى القاربِ، أنَّها نَسِيَتْ الهاتفَ الّذي يعملُ عَبْرَ الأقمارِ الاصطناعيَّةِ. لَمْ تستطِعِ المجازفَةَ بِالعودةِ

لإحضارِهِ. شعرَتْ بِالحنقِ على نفسِها؛ لأنَّها نَسيَتْهُ.

عندَما رأتْ (دُبّ)، أراحَتْ وجهَها عَلى صدرِهِ. كانَ الأمْرُ أشْبَهَ بِأنْ تتدَثَّرَ بِأنعَمِ مِعطَفٍ صوفيٍّ، أوْ أنْ ترتديَ مِئةَ قِطَّةٍ كثيفةِ الوَبَرِ، أوْ أنْ تَحتضِنَها قِربَةُ ماءٍ ساخِنٍ عملاقَةٌ.

بَعْدَ بِضْعِ دَقائقَ، توقَّفَتْ أسنانُها عَنِ الاصْطِكاكِ.

عَنْ قُرْبٍ، كانَتْ رائحَتُهُ مِثْلَ رائحةِ كُلِّ الحيواناتِ. وحشيَّةً ومِسْكِيَّةً بَعْضَ الشَّيءِ، لكنَّها حلوةٌ في الوقتِ نفْسِهِ. جعلَتْها تشعُرُ بِالأمانِ والرّاحَةِ.

بَقِيا هكذا لِفترةٍ أطوَلَ مِمّا احْتاجَ كِلاهما إلى ذلِكَ. لكنْ في نِهايَةِ الأمْرِ، لا يوجَدُ ما هو أفْضَلُ مِنْ عِناقِ (دُبّ)، لذلِكَ لَمْ يكُنْ مهمًّا حقًّا كَمْ مِنَ الوقْتِ طالَ العِناقُ.

«أعتقِدُ أنَّهُ مِنَ الأفضَلِ أنْ نذهبَ؟»

كانَ القاربُ ثقيلًا جِدًّا بِالنِّسبَةِ لإبريل، لذلِكَ كانَ عَليها الاعتمادُ عَلى (دُبّ) لِيُحرِّكَهُ لَها. لكنَّ محاولَةَ إفهامِ (دُبّ) كانَ مسألَةً أخْرى؛ لأنَّهُ كانَ مهتَمًّا أكثرَ بِاللَّعِبِ مَعَ الأمواجِ.

في النِّهايةِ، وضعَتْ كَتِفَها عَلى بَدَنِ القارِبِ، وحاوَلَتْ يائسَةً أنْ تدفَعَهُ، لكنْ بِلا جَدْوى.

كانَ الأمْرُ أشْبَهَ بِمحاوَلَةِ تَحريكِ جَبَلٍ. ومَعَ استمرارِ هطولِ

المَطَرِ خَبَطَتِ القاربَ بِكفَّيها مِنَ الإحْباطِ.

كانَتْ هذِهِ هِيَ اللَّحظةَ الّتي اقترَبَ عندَها (دُبّ) مُمتَلِئًا بِالفضولِ، أنزَلَ كَتِفَيْهِ ودَفَعَ القاربَ. بِخِفَّةٍ في البدايَةِ، كَما لَوْ أنَّ الأمْرَ لُعْبَةٌ، ثُمَّ تدريجيًّا بِمزيدٍ ومزيدٍ مِنَ القُوَّةِ.

تراجعَتْ إبريل إلى الخَلْفِ بِارتياحٍ، أنفاسُها تموجُ في صدرِها.

«هيًا، يا (دُبّ)! بِمقدورِكَ فِعْلُ ذلِكَ!»

لكنَّ القاربَ لَمْ يتزحْزَحْ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ.

مَتى كانَتْ آخِرَ مَرَّةٍ حَرَّكَ أحدُهُمْ فيها القاربَ؟ ماذا لَوْ أنَّهُ عَلِقَ في الرِّمالِ؟ ماذا لَوْ كانَ ثقيلًا جِدًّا؟ ماذا لَوْ بَقِيَ (دُبّ) عالِقًا هنا إلى الأَبَدِ؟

حبسَتْ إبريل أنفاسَها.

دفعَ (دُبّ) بِقوَّةٍ أكبرَ. دفَعَ بِكلِّ قوَّةِ وضخامَةِ الدُّبِّ الّذي كانَ.

زأرَ ونَخَرَ ودفَعَ.

بدَأَ القاربُ يُصَرْصِرُ أخيرًا وهوَ يهتزُّ مِنْ جانِبٍ إلى آخَرَ، لكنَّهُ لَمْ يتحرَّكْ مِنْ مكانِهِ. ارتجَّ وتأوَّهَ. كانَ الصَّوتُ مِثْلَ صوتِ طَرْقِ المساميرِ، ومِثقابِ طَبيبِ الأسنانِ.

كشَّرَ (دُبّ) عَنْ أسنانِهِ، وخفضَ رأسَهُ، ودفعَ دفْعَةً قويَّةً وحشيَّةً أخْرى. وعندَها أصدَرَ القاربُ صوتَ شيءٍ يُكشَطُ. ثُمَّ صوتًا آخَرَ.

«إنَّهُ يتحرَّكُ! أنتَ تحرِّكُهُ!»

كانَتْ إبريل تهتِفُ مُشجِّعةً مَعَ كُلِّ ملليمترٍ واحدٍ مِنْ تقدُّمِ القارِبِ نحوَ الشّاطئِ بوصَةً إثْرَ بوصَةٍ، زحَفَ القاربُ مقترِبًا أكثرَ فأكثرَ مِنْ حافَّةِ الشّاطئِ إلى أنْ تكسَّرَتْ أوَّلُ موجَةٍ عَلى بدَنِهِ. اغتنَمَتْ إبريل الفرصَةَ، وقفَزَتْ إلى داخلِ القاربِ.

اختنقَتْ وبصقَتْ مِنَ الصَّدمةِ حينَ انْسكبَتْ عليها مياهُ البحرِ مِثْلَ مطرٍ باردٍ كالثَّلجِ.

«فقطْ دفعةٌ واحدةٌ أخْرى، يا (دُبّ)، وسنكونُ في الماءِ!»

أنزلَ (دُبّ) كَتِفَيْهِ، واستجمَعَ كُلَّ ذرَّةٍ مِنْ قوَّتِهِ الكامِنَةِ. ثُمَّ وبِدفْعَةٍ أخيرةٍ هائلَةٍ مِنهُ، غادَرَ القاربُ خليجَ (والْروس) وتمايلَ صاعِدًا وهابِطًا فوقَ البحرِ.

«نحنُ نَطفو!» صرخَتْ إبريل حينَ ركِبَ القاربُ الموجَةَ الأولى، ثُمَّ نزَلَ عَنْها.

وقَفَ (دُبّ) على الشّاطئِ يراقِبُ، ولِلحظَةٍ مُروِّعَةٍ تَفْطُرُ القَلبَ، ظنَّتْ إبريل أنَّهُ لَنْ ينضَمَّ إليها، وسيجرِفُها البحرُ بِمفرَدِها.

وضعَتْ أصابِعَها في فمِها وأطلقَتْ صفيرًا، راجِيَةً أنْ يفهمَ رسالَتَها. لحُسْنِ الحَظِّ، لَمْ يكُنْ بِحاجَةٍ لأنْ تطلُبَ مَرَّتينِ. قفَزَ (دُبّ) في الماءِ، وراحَ يسبَحُ نحوَها.

عندَما وصَلَ إليها، وتسلَّقَ القاربَ الّذي راحَ يميلُ عَلى نحوٍ مُضطَرِبٍ في هذا الاتِّجاهِ وذاكَ الاتِّجاهِ، عانقَتْهُ إبريل بِشِدَّةٍ. وعندَما أفلَتَتْ ذراعَيها، كانَتْ مَلابِسُها مُشَبَّعَة بِالماءِ، وقدْ صارَ القاربُ بعيدًا داخلَ البحرِ، يتأرْجَحُ ويدورُ فوقَ الأمواجِ الباردةِ الرَّماديَّةِ.

وبينَما كانَتْ تُجاهِدُ لِتُثَبِّتَ القماشَ المُشَمَّعَ عَلى القاربِ، تذكَّرَتْ تحذيرَ والدِها لَها بعدَمِ الاقترابِ كثيرًا مِنْ حافَّةِ الشّاطئِ.

فاتَ الأوانُ الآنَ. فقدِ اختفَتْ جزيرةُ الدُّبِّ عَنِ الأنظارِ. شعرَتْ بِمعِدَتِها تتقلَّبُ، وسارعَتْ إلى رَبْطِ العقْدَةِ الأخيرةِ في مكانِها.

«نحنُ في طريقِنا،» همسَتْ وهيَ تُعانقُ (دُبّ) في الظَّلامِ. متمنِّيَةً أنْ يحالِفَهُما الحظُّ. «المحطَّةُ التَاليةُ: (سفالْبارد).»

*



لَمْ تعرِفْ كَمْ ساعَةً مرَّتْ عَلَيهما، لكنَّها قدَّرَتْ أنَّ ما مَرَّ مِنْ وقتٍ كانَ كافيًا لِكي تقومَ بالتَّجديفِ الّذي كانَ أصعَبَ بِكثيرٍ مِمّا تخيَّلَتْ، وتتناوَلَ بعضَ الحَساءِ البارِدِ، وتشارِكَ (دُبّ) بَسكويتِ الشّوفانِ، وتأخُذَ قَيلولَةً بِطريقةٍ ما، وتتكوَّرَ بِجانبِ (دُبّ) في قاعِ القاربِ تحتَ القماشِ المُشَمَّعِ. عندَما استيقَظَتْ، كانَ ذلِكَ لأنَّهُما كانا فوقَ دوّامَةٍ بحريَّةٍ. حلَّقَ القاربُ إلى الأعلى. عالِيًا، عاليًا مِثْلَ طائرةٍ ورقيَّةٍ. في القِمَّةِ، فَعَلَ بَطنُها ذلِكَ الشَّيءَ الغريبَ الّذي يشْبِهُ العَصْرَ. ثُمَّ هبَطَ القارِبُ إلى الأسفَلِ، إلى الأسفَلِ بِقُوَّةٍ.

فردَتْ إبريل ذراعَيها لِتحمِيَ نفسَها. لكنْ لَمْ يكُنْ هناكَ ما يمكِنُ أنْ تمسِكَ بِهِ. في النِّهايَةِ، تَشَبَّثَتْ بِالمقعدِ.

خَدشَ الخشبُ كَفَّيها وتخَدَّرَتْ أصابعُ قَدمَيها مِنَ البَرْدِ. تمايَلَ القاربُ مَرَّةً أخْرى. انقلَبَتْ مَعِدَتُها. وارتجَفَ ذَقْنُها عَلى صدرِها.

أمامَها، رَأَتْ (دُبّ) يَئِنُّ.

«ششش، لا تَخَفِ الآنَ،» تَمْتَمَتْ، تَركَتْ يدَها المقعَدَ لِتلمِسَ خَدَّهُ. «سنكونُ بخيرٍ. أَتَرى؟ البوصلَةُ ما زالَتْ تشيرُ إلى الشَّمالِ.»

حلَّقَ القاربُ مرَّةً أخْرى، مثلَ طائرةٍ ترفَعُ نفْسَها عنِ المدرجِ. صَعدا معهُ إلى الأعْلى، وضَرَبا قمَّةَ الموجَةِ، ثُمَّ هَبَطا بقوَّةٍ إلى الأسفَلِ، وكَبَتَتْ إبريل صُراخَها.

«كُلُّ شيءٍ عَلى ما يُرامُ،» قالَتْ عندَما أَنَّ (دُبّ) مَرَّةً أخرى. «سنكونُ بِخيرٍ. سأُلْقي نظرةً سريعةً في الخارجِ؛ لأرى إنْ كُنّا قدْ شارَفْنا على الوُصولِ.»

كانَتْ أصابعُها متجمِّدَةً ومحمرَّةً، جاهَدَتْ لِفَكِّ الحبلِ الّذي ثبّتَتْ به القماشَ المشمَّعَ. قَضمَتْهُ بِأسنانِها حَتّى انفكَّ قليلًا، ثمَّ نظرَتْ مِنْ خِلالِ الفتحةِ.

«يا اللهُ.»

عَلى مَدِّ بصرِها، لَمْ تَرَ سِوى أمواجٍ رَماديَّةٍ مُتلوِّيةٍ تُحيطُ بالقاربِ مِنْ جميعِ الزَّوايا. لكنَّها لَمْ تكُنْ ذاكَ النَّوعَ مِنَ الأمواجِ الّتي ارْتَطَمَتْ بِالشّاطئِ عَلى جزيرةِ الدُّبِّ. كانَتْ هذِهِ الأمواجُ متوحِّشَةً. هائلةَ الحجمِ. ترتفعُ إلى الأعلى مِثْلَ الأشجارِ. كبيرةً عَلى نَحْوٍ مُخيفٍ لِدرجةٍ جَعلَتِ القاربَ يَبدو وكأنَّهُ مُجَسَّمٌ صَغيرٌ.

ابْتلعَتْ إبريل ريقَها.

لَمْ تظهرْ أرضٌ في الأفُقِ.

لَمْ يظهرْ أيُّ شيءٍ - باستثناءِ الأمواجِ الرَّهيبةِ والمخيفةِ وَهُما.

جلسَ (دُبّ) مُتكوِّرًا عَلى نفسِهِ عَلى الطَّرفِ البعيدِ مِنَ القاربِ، وحدَّقَ فيها بعيونٍ ضخمةٍ بلونِ الشّوكولاتَةِ. مدَّتْ أصابِعَها، ومسَّدَتْ تحتَ أذنِهِ.

«كلُّ شيءٍ عَلى ما يُرامُ.» أغلقَتِ القماشَ المُشَمَّعَ بِسرعةٍ، وقرَّرتْ ألّا تخبِرَهُ عَنِ السُّحبِ السَّوداءِ.



الفصلُ الخامسُ والعشرونَ

العاصِفَةُ

بدأتِ العاصِفَةُ بِقَصْفٍ رعدِيٍّ، وقَرْعِ المَطَرِ المَحمومِ فوقَ القماشِ المُشَمَّعِ.

كانَ الأمرُ مثلَ رحلاتِ التخييم - الاختباء داخلَ الخَيمَةِ أثناءَ هطولِ المَطَرِ - باستثناءِ أنَّكَ داخلَ الخَيمَةِ تشعرُ بِالأمانِ والرّاحةِ والحِمايةِ.

لَمْ تشعرْ إبريل بأيٍّ مِنْ هذه الأشياءِ.

ازدادَ عُلُوُّ الأمواجِ مثلَ وحوشٍ كاسِرَةٍ.

لَمْ تكُنْ بِحاجةٍ إلى النَّظَرِ مِنْ أسفلِ القماشِ المُشَمَّعِ لتعرِفَ ذلِكَ، لأنَّهُ في كُلِّ مَرَّةٍ تسلَّقَ فيها القاربُ موجَةً، كانَ يعلو أكثرَ فَأكثرَ، حَتّى شعرَتْ بأنَّ الأمورَ لا يمكِنُ أنْ تزدادَ سوءًا.

لكنَّها فعلَتْ.

حلَّقَ القاربُ عالِيًا لِدرجةٍ بَدا معَها وكأنَّهُما يتسلَّقانِ سُلَّمًا إلى الفضاءِ. كانا جاثِمينِ عَلى نَحْوٍ مُضطرِبٍ في قمَّةِ المَوجةِ، ويتأرْجَحانِ مِنْ جانبٍ إلى آخَرَ، ثُمَّ يَغوصانِ مَرَّةً أخْرى في قلْبِ الهاويَةِ.

توقَّفَتْ إبريل منذُ فترةٍ طويلةٍ عَنْ مُحاولَةِ كَتْمِ صَرخاتِها.

لَمْ يَعُدِ الأمرُ مهمًّا. اتَّسَعَتْ عَينا (دُبّ) بِالذُّعْرِ، وصارَتِ الرّائحةُ داخلَ القاربِ كثيفَةً ومخيفَةً. وطَوالَ الوقتِ، انْسكَبَ المَطَرُ، وتكسَّرَتِ الأمواجُ، وزمجَرَ الرَّعْدُ. زحفَتْ إلى وسطِ القاربِ ووضعَتْ ذِراعَيْها حولَ (دُبّ). تَلامَسَ وَجْهاهُما، وشعرَتْ بِأنفاسِهِ ساخِنَةً عَلى وجهِها.

«آسفةٌ،» همسَتْ. «هذا كُلُّهُ خَطَئي أنا.»

لَمَسَ (دُبّ) أنفَها بأنفِهِ. وتحتَ أذنِها سمعَتْ قلبَهُ ينبضُ. هَدَرَ صدْرُها وتبعْثَرَت أنْفاسُها.

«أحبُّكَ.» ضغطَتْ بِشفتَيْها عَلى وجهِهِ، وقبَّلَتْه. «أحبُّكَ كثيرًا.» تكورَّتْ بِجانبِهِ، وأدركَتْ في مكانٍ ما في أحشاءِ كَيانِها أنَّهُ يحبُّها هوَ الآخرُ. ولِلَحظةٍ حُلوةٍ ومِثاليَّةٍ، كُلُّ شيءٍ كانَ آمِنًا.

ثُمَّ جاءَتِ الموجَةُ.

بَدا وكأنَّها انطلقَتْ مِنْ أعمَقِ أعماقِ المُحيطِ، وبقسوَةٍ ووحشِيَّةٍ، قَذَفَتْهُما عالِيًا نَحْوَ السَّماءِ.

دارَ القاربُ ورقَصَ في السَّماءِ الرَّماديّةِ، وحامَ في الجَوِّ قبلَ أنْ يسقُطَ بقوَّةٍ. ارتَطَمَ بِالموجِ بِضربةٍ مُدوِّيَةٍ، وانقلَبَ رأسًا عَلى عَقِبٍ.

صرخَتْ إبريل.

زأرَ (دُبّ).

عندَما ارتَطَمَ القاربُ بِالمياهِ بِعنْفٍ تمزَّقَ القُماشُ المُشَمَّعُ، وانْفصَلَ عَنِ القاربِ، طارَ المِجذافُ بعيدًا، وانكسَرَتْ مُقدِّمةُ القاربِ المعقوفَةُ إلى قِسمينِ.

كانَ الماءُ شديدَ البرودةِ، فشهَقَتْ إبريل. وعندَما شهقَتْ مَلَأَ الماءُ فمَها.

ارتبكَتْ وحرَّكَتْ يَدَيها بعشوائِيَّةٍ في كُلِّ الاتِّجاهاتِ مُحاوِلَةً الوصولَ إلى (دُبّ)، لكِنَّ المياهَ جذَبَتْها إلى الأسفَلِ، وشعرَتْ

بيدَيها تمتدّانِ في وسطٍ متجمِّدٍ مِنَ العَدَمِ.

كانَ الماءُ يضرِبُ جسدَها مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ. وتشقْلَبَتْ رأسًا عَلى عَقِبٍ، ثُمَّ قذفَ بِها عَلى جنْبِها، ثُمَّ رَشَقَها عَلى ظهرِها.

تمزَّقَ حذاؤها الملوَّنُ الواقي مِنَ المَطَرِ، ودفعَتْها صَدمَةُ الماءِ الشَّديدةُ عَلى جِلْدِها لِلبُكاءِ.

لَمْ تَأْبَهْ لِأَنَّها ابتلَعَتْ مَزيدًا مِنَ الماءِ، أو لأنَّ طعمَهُ مِثْلُ الملحِ الزَّنِخِ، أو لأنَّ درجةَ الحرارةِ كانَتْ تجمِّدُ أعضاءَها ببطْءٍ واحدًا تلوَ الآخرِ.

لَمْ تَأْبَهْ حَتّى لأنَّ القاربَ تحطَّمَ، ولأنَّ جميعَ متعلِّقاتِها تغرقُ الآنَ في قاعِ البحرِ.

لا شيءَ مِنْ كُلِّ هذا سيَهُمُّ لَوْ أنَّ (دُبّ) كانَ معَها.

وأخيرًا، في اللَّحظةِ الّتي ظنَّتْ فيها أنَّها لَمْ تعُدْ قادرَةً عَلى حَبْسِ أنفاسِها أكثرَ مِنْ ذلِكَ، دَفَعتْها التَّيّاراتُ إلى السَّطْحِ مِنْ جديدٍ، وهناكَ كانَ.

بِالكادِ استطاعَتْ رؤيَتَهُ. لكنَّهُ كانَ بعيدًا جِدًّا عنْها. بعيدًا جِدًّا!

مَدَّتْ يَدَيها مَرَّةً أخْرى.

«(دُبّ)!»

فتحَ (دُبّ) فمَهُ وزأرَ. كانَ بِإمكانِها أنْ تَراهُ، لكنَّها لَمْ تَستَطِعْ سماعَهُ. لكنَّهُ كانَ هُناكَ - يَسبحُ مَسرِعًا نحوَها. أذناهُ مَثْنيَّتانِ للخلفِ. وعَلى وجهِهِ تعبيرٌ حازِمٌ وعازِمٌ عَلى حِمايَتِها.

لَمَسَتْ كَفَّهُ بِأطرافِ أصابِعها. كانتْ قريبةً جِدًّا مِنهُ! قريبةً جِدًّا مِنَ الأمانِ.

لكنَّ البحرَ لَمْ يكُنْ قَدِ انْتَهى مِنْها بَعْدُ. طوَّقَ التَّيّارُ كاحِلَيْها بِإصبَعِهِ، انْتزعَها مِنْ قبضَتِهِ، وسحبَها لِلأسفلِ مِنْ جديدٍ.

قاومَتْ، ساقاها وذِراعاها مَسحوقَتانِ. صرخَتْ.

لكنَّ المياهَ كانَتْ بارِدَةً جِدًّا.

باردةً جِدًّا جِدًّا.

وواصَلَ البحرُ سَحْبَها. استمَرَّ في جَذْبِها، وشَدِّها، وجَرِّها أَعْمَقَ فَأعمقَ. إلى جوفِهِ الغامِضِ حيثُ لَمْ تُغامِرْ حَتّى شمسُ مُنتصفِ اللَّيلِ بِالنُّزولِ. حيثُ كانتِ المياهُ ثقيلَةً ومظلمَةً، وتُشبِهُ الموتَ. حيثُ لا يَنْبَغي لِفتاةٍ في الحاديةَ عشرةَ مِنْ عمرِها أنْ تكونَ.

هُناكَ، استقَرَّ الماءُ حولَها كالصَّقيعِ.

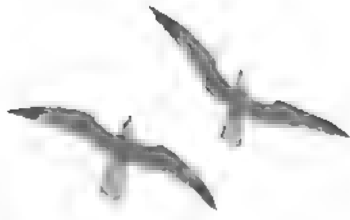
وفي النِّهايةِ، بعدَ معركةٍ طويلةٍ وقاسيةٍ، أغمضَتْ إبريل عينَيْها.

كانَ المكانُ قارسَ البرودةِ.

ومِنْ ثَمَّ استحالَ . . .

. . . كُلُّ شيءٍ إلى . . .

. . . السَّوادِ.



الفصلُ السّادسُ والعشرونَ

أينَ (دُبّ)؟

«إبريل؟» كانَ الصَّوتُ بعيدًا - كأنَّهُ يأتيها مِنْ أرضٍ بعيدةٍ.

«إبريل؟»

كانَتْ مُستلقِيَةً عَلى سريرٍ داخلَ مَقصورةٍ تفوحُ مِنْها رائحةُ سمكِ الإِسْقَمْرِيِّ. واقفًا فوقَها، كان . . .

«*بابا؟*»

«إبريل!» تغضَّنَ وجهُهُ، وانْحَنى إلى الأمامِ، وشدَّها إلى

حِضْنِهِ. عَبَقَ بِرائحةِ اليانسونِ، ونسيجِ التّويدِ الصّوفيِّ، لكنْ أيضًا الشّوكولاتَةُ السّاخنةُ والبيتُ. «ابنتي.»

عندَما أَفْلَتَها أخيرًا، بَدا مُتفاجِئًا مِن مَشاعِرِه. وبينَما مَسَحَ عينَيهِ، بذلَتْ إبريل جُهدًا لتفكِّرَ فيما حدثَ.

لأنَّ كثيرًا مِنَ الأشياءِ لَمْ تكُنْ مفهومَةً.

لماذا شعرَتْ بِرأسْها وكأنَّهُ ممتلئٌ بِجبالٍ جليديَّةٍ؟

كيفَ عادتْ إلى هذِهِ المقصورةِ؟ كانَتْ هي سفينةُ الشَّحنِ نفسُها، أَلَيْسَ كذلِكَ؟ السَّفينةُ نفسُها الّتي وَصَلا عَلى مَتْنِها قَبْلَ أشهرٍ طويلةٍ مضَتْ.

هلْ كانَ والدُها يبكي؟

وشيءٌ آخَرُ.

شيءٌ لَمْ تستطِعْ أنْ تجِدَ لهُ تفسيرًا. لكنَّهُ بِالرَّغمِ مِنْ ذلِكَ شيءٌ مهمٌّ جِدًّا. شيءٌ يجبُ عَليها ببساطةٍ أنْ تتذكَّرَهُ.

لكنَّ الألَمَ في رأسِها عادَ، مِثْلَ شظايا جليدٍ حادَّةٍ، وانزلقَتْ إلى السَّوادِ مِنْ جديدٍ.

عندما استيقظَتْ في المَرَّةِ الثّانيةِ، ظنَّتْ في البدايةِ أنَّ المقصورةَ فارغةٌ. لَمْ يكنْ فيها شيءٌ سِوى صوتِ تَنَفُّسِها

الخَشِنِ، وبعضِ الأحلامِ الّتي لَمْ تستطِعْ تذكُّرَها.

جَفَلَتْ حينَ سمعَتْ صوتَهُ.

كانَ جالِسًا عَلى كرسيٍّ في الجانبِ الآخرِ مِنَ الغرفَةِ، يَطوي منديلَهُ بَدقَّةٍ عَلى شكُلِّ مربَّعاتٍ صغيرةْ. «ماذا كنتِ تفعلينَ هُناكَ؟»

حاولَتْ إبريل أنْ تجيبَ، لكنَّ الجليدَ في رأسِها كانَ يُقَعْقِعُ. لأنَّهُ ماذا *كانَتْ* تفعلُ هي هناكَ؟

«كانَ مِنَ المُمْكِنِ أنْ تُقتَلي!» نهضَ والِدُها مِنْ كرسِيِّهِ، ومشى بخطواتٍ واسعةٍ نَحْوَ السَّريرِ، محدِّقًا في إبريل بنظرَةٍ فاحِصَةٍ كاشِفَةٍ جعَلَتْها ترغَبُ في أنْ تنكَمِشَ إلى داخِلِ الوسادةِ.

لَمْ تَرَ مِثْلَ هذهِ المشاعرِ عَلى وجهِهِ منذُ جِنازَةِ والدتِها، وَوَتَّرَها التَّفكيرُ بِأنَّها السَّببُ في ذلِكَ الآنَ.

«أعرفُ،» قالَتْ أخيرًا رغمَ أنَّ كُلَّ عَظْمَةٍ في جسدِها كانَتْ تؤلِمُها. أراحَتْ يدَها عَلى ذِراعِهِ وقالَتْ «أنا آسفةٌ جِدًّا.»

أخذَ نَفَسًا مرتَجِفًا، وجلسَ عَلى حافَّةِ السَّريرِ، وأعادَ المنديلَ ببطءٍ إلى جيبِهِ. ثُمَّ فعلَ شيئًا لَمْ يفعَلْهُ منذُ فترةٍ طويلةٍ جِدًّا: وضعَ يدَهُ فوقَ يَدِها.

لِلَحظاتٍ لَمْ يتكلَّمْ أيٌّ منهُما. لكنْ أحيانًا لا تحتاجُ إلى أنْ تقولَ كلماتٍ مِنْ أجلِ ما في قلبِكَ.

«آخِرُ شيءٍ أذكُرُهُ هوَ السُّقوطُ تحتَ الماءِ،» قالَتْ إبريل، منتقِيَةً كلماتِها بعنايةٍ. «لكنْ بعدَ ذلِكَ . . . كُلُّ شيءٍ أسودُ.»

حاولَتْ جاهِدَةً أنْ تتذكَّرَ ما حدثَ، لكنَّ الأمرَ كانَ أشْبهَ بِالسَّيرِ في ضَبابٍ عميقٍ وكثيفٍ، وكُلّما حاولَتِ التّذكُّرَ بِجهدٍ أكبرَ آلَمَها رأسُها أكثرَ.

«عندَما أدركْتُ أنَّكِ ذَهَبْتِ،» قالَ والِدُها. «كانَ الوقتُ صباحًا، وكانَتِ السَّفينةُ قَدْ وصلَتْ مع عالِمِ الأرصادِ الجديدِ ومساعدِهِ. بَحثْنا في كُلِّ مكانٍ و . . .» صَفّى حنجرَتَهُ بِضْعَ مَرّاتٍ، وشبكَتْ إبريل أصابِعَها مَعَ أصابعِهِ. «ثُمَّ بعدَ ذلِكَ رأينا الآثارَ عَلى الشّاطِئِ، وأدركْنا أنَّكِ أخذْتِ القاربَ. لَمْ يتصوَّرِ القبطانُ أنَّ ذلِكَ ممكِنًا - إذ كيفَ يُمكِنُ لفتاةٍ صغيرةٍ أنْ تدفعَ قاربًا كَهذا إلى البحرِ؟ لكنَّ ذلِكَ الفَتى، تور، هو الَّذي خَمَّنَ إلى أينَ كنْتِ تتَّجهينَ.»

«أوه!» صاحَتْ إبريل بِدهشةٍ.

كانَ هناكَ صوتُ اندفاعٍ في أذنَيْها، صوتُ شلّالاتِ ماءٍ وشيءٌ آخَرُ. شيءٌ صاخِبٌ وعميقٌ وخامٌ.

«(دُبّ)!» انتصبَتْ في جلسَتِها فجأةً، واندفَعَ الدَّمُ في عروقِها مِثْلَ البراكينِ. «أينَ هوَ؟!»

فتحَ والِدُها فَمَهُ وأغلقَهُ، وامتقَعَ وجهُهُ بِلونٍ أحمرَ غريبٍ.

«لا!» دفعَتِ الأغطيةَ عِنْ جسدِها، ركضَتْ باضطرابٍ مُتجاوِزَةً والدَها، فتحَتِ البابَ بِعنفٍ وجَرَتْ إلى السَّطحِ حافيَةَ القَدمينِ.

«إبريل!»

صفعَتِ الرّيحُ وجهَها، كانَتْ رائحةُ سَطْحِ السَّفينةِ قذرةً وعَفِنَةً.

حامَ اثنانِ مِنْ أفرادِ الطّاقمِ بالقرْبِ منْها، ونظرا إليها بِفضولٍ.

«أينَ هوَ؟» صرخَتْ، وهِيَ تحدِّقُ حولَها بِجنونٍ.

«أينَ (دُبّ)؟» صاحت.

عوَتِ الرّيحُ، وخفَقَ المحرِّكُ، وشعرَتْ بالألَمِ في كُلِّ خليَّةٍ في جسمِها.

زعقَتِ النّوارسُ حولَها وغاصَتْ في قوسِ السَّماءِ اللّامتناهِيَةِ.

ركضَتْ عَلى طولِ سطحِ السَّفينةِ، والبردُ يكشِّرُ وينهَشُ مِنْ جِلْدِها.

لَمْ يكُنْ هُناكَ شيءٌ سِوى حبلٍ ملفوفٍ، وزيتٍ وهواءِ القُطْبِ الشَّماليِّ المريرِ يقرصُ وجهَها.

انحنَتْ فوقَ حافَّةِ السَّفينةِ، وحدَّقَتْ قَدْرَ استطاعَتِها في الأفقِ في كُلِّ الاتِّجاهاتِ، لكنَّ الشَّيءَ الوحيدَ الَّذي أمكَنَها رؤيتُهُ كانَ البحرَ الفارغَ تمامًا.

«(دُبّ)!»

تراجعَتْ عَنْ دَرابْزينِ السَّفينةِ، وقدْ تخدَّرَ وجهُها، وتجمَّدَتْ أصابعُها، وتعثَّرَتْ عندَ أقرَبِ بابٍ.

تأرجَحَ البابُ المعدنيُّ الثّقيلُ، وانصفَقَ خلفَها، وصارَتْ فجأَةً في الممرِّ المُظلِمِ المُغلَقِ الّذي يلتَوي ويدورُ في أحْشاءِ السَّفينَةِ. لَنْ يُسعِفَها في شيءٍ إنْ تملَّكَها الذُّعْرُ.

أخذَتْ نَفَسًا عميقًا، وهدَّأتْ مِنْ رَوْعِها. الآنَ، يمكِنُها أنْ تسمَعَ. أنْ تُصْغِيَ – مثلَما علَّمَها (دُبّ) أنْ تفعَلَ.

أرهَفَتْ أذنَيها، وتأهَّبَتْ حواسُّها تمامًا.

في البدايةِ، لَمْ تَسمَعْ شيئًا فوقَ هديرِ مُحرِّكاتِ السَّفينةِ المُرتفعِ، لكنْ بعدَ ذلِكَ . . . كانَ هناكَ شيءٌ صغيرٌ لِلغايَةِ حَتّى إنَّهُ كادَ يفوتُها. تماهَتْ مَعَ الصَّوتِ، وبقَلْبٍ نابِضٍ راقِصٍ، سارَتْ عَلى طولِ الممرِّ وصولًا إلى الجزءِ السُّفليِّ الغامِضِ مِنَ

السَّفينةِ. هنا وجدَتْ نفْسَها وجهًا لِوَجْهٍ أمامَ بابٍ معدنيٍّ آخَرَ مغلَقٍ – هذا البابُ كانَ يحرسُهُ تور.

«مرحبًا.» قالَ تور.

عَدا عَنِ الْتِفاتِها لِبُرهَةٍ ناحِيَتَه، بِالكادِ لاحظَتْ وجودَهُ. ارتعَشَ جسدُها كُلُّهُ مِنَ الخوفِ والتَّرقُّبِ. أخرجَ تور مِفتاحًا كبيرًا مِن جَيبِهِ، فتحَ البابَ ببطءٍ، ثُمَّ تَراجَعَ.

في الطّرفِ البعيدِ مِنَ الغرفَةِ، رابِضًا عَلى الأرضِ، وسلسِلَةٌ معدنيَّةٌ مَربوطَةٌ حولَ رقبَتِهِ بإحكامٍ، كانَ (دُبّ).



الفصلُ السّابع والعشرونَ

شَجاعَةٌ

«(دُبّ)!»

نَسِيَتْ إبريل أنَّ جسدَها يوجِعُها، وأنَّ رأسَها ينبِضُ، وأنَّها كانَتْ محظوظَةً لأنَّها ما زالَتْ عَلى قيدِ الحياةِ. رؤيةُ (دُبّ) جعلَتْها تَنْسى كُلَّ شيءٍ، حَتّى ألمَها.

سارعَتْ إلى جانِبِهِ، وجَثَتْ عَلى رُكبَتِيها مُرتَطِمَةً بِالأرضِ، ثُمَّ ألْقَتْ بِذراعَيها حولَ عنقِهِ.

مِثْلَ جَرْوٍ سريعِ الانفعالِ أخَذَ يَئِنُّ ويتلَوّى ويلعَقُ وجهَها. غابَتْ في عينَيْهِ المُشرقَتينِ بِلونِ الشّوكولاتّةِ، وشعرَتْ بقلبها يذوبُ. دفنَتْ وجهَها في فرائِهِ النّاعِمِ الأملَسِ، والْتَصقا مُتَشَبِّثينِ بِبعضِهِما بعضًا.

عندَما سحبَتْ نفْسَها مِنهُ أخيرًا، لَعَقَ (دُبّ) وجهَها وزمْجَرَ بِلطْفٍ. لَمْ تكُنْ زَمْجرَةً غاضبَةً، وإنّما زَمْجرَةٌ سعيدةٌ. زَمْجرَةٌ تَنِمُّ عَنْ طُمأنينَةٍ عميقَةٍ. احتضنَتْ خَدَّيهِ بينَ يدَيها، وقبَّلَتْ أنفَهُ.



«عندَما اتَّصلتِ بي لِتسأَليني كيفَ يمكنُكِ الوُصولُ إلى (سفالْبارد)، فكَّرتُ أنَّ الأمرَ كانَ غريبًا.» كانَتْ إبريل قَدْ نَسِيَتْ أنَّ تور وراءها. «مِنْ بينِ كُلِّ الأسئلةِ المجنونةِ الّتي يمكنُ أنْ تُسأَلَ. لكنَّ الأكثرَ جُنونًا هوَ ركوبُ قاربٍ، ومحاولَةُ القيامِ بذلِكَ بِالفعلِ.»

«عليَّ أنْ أشكرَكَ إذنْ،» قالَتْ إبريل، وهي تَضَعُ خَدَّها عَلى خَدِّ (دُبّ). «لأنَّكَ عرفْتَ أينَ تجدُنا.»



حدَّقَ تور فيهما الاثنينِ، كَمَنْ يحاولُ أنْ يفهمَ شيئًا لا يجِدُ لَهُ تفسيرًا. «كنتِ في فَمِهِ عندَما وجدنَاكِ. كانَ يصارعُ الماءَ، وكنْتِ أنتِ هناكَ، تتدلّينَ مِنْ بينِ فَكَّيْهِ. ظنَّنا أنَّهُ يحاولُ قتلَكِ.»

كانَتْ ما زالَتْ تشعُرُ بِالماءِ البارِدِ الجليديِّ داخِلَ جسدِها، ويخالِجُها ذاكَ الإحساسُ الرّهيبُ بِالسّقوطِ في مكانٍ ما عميقٍ ومظلمٍ وبِلا قاعٍ. ارتجفَتْ وابتلَعَتْ ريقَها، وارتعشَتْ بكُلِّ كَيانِها.

«لقدْ أنقذَني، أَلَيْسَ كذلِكَ؟» قالَتْ إبريل، وشعرَتْ بحلقِها يحتقِنُ. «(دُبّ) أنقذَ حَياتي.»

عانقَتْ (دُبّ) بِقوَّةٍ، وهيَ تعلَمُ أنَّهُ لا توجَدُ كَلماتٌ كافيةٌ لذلِكَ عَلى الإطلاقِ. لكنْ حَتّى مِنْ دونِ كلامٍ، كانَتْ تعرِفُ أنَّهُ سيفهَمُ.

عندَما أفلَتَتْ إبريل (دُبّ) أخيرًا، رمَقَتْ تور بنظرَةٍ حادَّةٍ. «لا تَقُلْ لي. أفترِضُ أنَّكَ حاولتَ قتلَهُ؟»

«والدي،» وضَّحَ تور، رافِعًا كفَّيهِ في اعتذارٍ. «إنَّهُ مختلفٌ عَنّا. عليكِ أنْ تفهَمي أنَّهُ لَيْسَ مثلَكِ. نشَأَ في زمنٍ كانتِ الحيواناتُ فيهِ بِمثابَةِ غنيمةٍ يجبُ اصطيادُها، وليسَ إنقاذُها.

عَدا عنْ ذلِكَ، اعتقدْنا أنَّنا بذلِكَ سننقِذُكِ.»

«ماذا حدثَ بعدَ ذلِكَ؟» سألَتْ إبريل. «لأنَّهُ مِنَ الواضِحِ أنَّ أحدًا ما منعَهُ مِن إطلاقِ النّارِ عَلى (دُبّ). هل فعلتَ أنتَ ذلِكَ؟»

شعَرَ تور بالحَرَجِ، وقالَ وقَدِ احمرَّ وجهُهُ: «ليسَ أنا. لَيسَ في بدايَةِ الأمرِ عَلى أيِّ حالٍ.»

«مَن *إذًا*؟»

لَمْ تسمَعْ وَقْعَ خطواتِهِ حَتّى ظهَرَ أبوها فجأَةً بِجوارِ تور، ومثلَ تور، فَرَكَ عينَيهِ، ولَمْ يستَطِعِ التَّوقُّفَ عَنِ التَّحديقِ فيهِما.

«أنتَ؟» قالَتْ غيرَ مُصدِّقَةٍ. «أنتَ أنقذْتَ (دُبّ)؟»

حَدَّقَتْ بِهِ كَما لَوْ أنَّها كانَتْ تَراهُ لِلمرَّةِ الأولى. بِسُتْرَتِهِ المصنوعَةِ مِنْ صوفِ التّويدِ، وشعْرِهِ الأشْعَثِ ورائحَةِ اليانسونِ، بَدا مِثْلَ أَبيها - لكنْ، في الوقتِ نَفْسِهِ، بَدا مُختلِفًا بطريقةٍ ما. كَما لَوْ أنَّ ورقَةً رقيقَةً كانَتْ تغلِّفُهُ، قَدْ ذابَتْ أخيرًا، وظهرَتْ مكانَهُا نُسخَةٌ صلبَةٌ مِنْ لحمٍ ودمٍ.

«بابا،» قالَتْ مُبتسمَةً. «هذا هوَ (دُبّ).»

تقدَّمَ إلى الأمامِ بِخطواتٍ خَرقاءَ، ومدَّ يدًا نحوَهُ «أنا مَسرورٌ للقائِكَ . . . (دُبّ).»

ألْقى (دُبّ) نظرَةً واحدَةً عَلى اليَدِ الممدودَةِ، وكشَّرَ عَنْ أنيابِهِ.

تراجَعَ والِدُها بِعجلَةٍ إلى الوراءِ.

«إنَّهُ فقطْ يقولُ: شُكرًا لَكَ،» قالَتْ إبريل ثُمَّ ألقَتْ بِذراعَيْها حولَ والِدِها. «أنا أقولُ شُكرًا لَكَ أيضًا.»

عندَما أفلَتَتْ إبريل ذراعَيْها مِنْ حولِهِ في النِّهايَةِ، كانَ شَعْرُ والدِها مُبعثَرًا أكثرَ مِنَ المُعتادِ، لكنْ كانَتْ هُناكَ ابتسامَةٌ عَلى وجهِهِ لَمْ تَرَها منذُ سَنواتٍ.

«إذنْ أنتَ تصدِّقُني الآنَ؟» قالَتْ. «كنتُ أحاولُ إنقاذَهُ! حَتّى يتمكَّنَ مِنَ العودَةِ إلى مَوطنِهِ – أنْ يعودَ إلى (سفالْبارد) ليكونَ مَعَ الدِّببَةِ القُطبِيَّةِ الأخرى.»

«إبريل،» قالَ والدُها وهوَ يخلَعُ نَظّارَتَهُ، وينظرُ إليها بِعنايَةٍ. «كانَ عَلَيَّ أنْ أصدِّقَكِ منذُ البِدايةِ.»

«لكنَّكَ لَمْ تفعَلْ. قلْتَ إنَّني أختلقُ وجودَهُ.»

«وكنتُ مُخطِئًا.» قالَ بَصوتٍ مُنخفِضٍ.

هزَّتْ إبريل رأسَها، وحاولَتْ أنْ تبتسِمَ لَهُ. لكنَّ ذلِكَ كانَ صعبًا. شعرَتْ بتكوُّرٍ في حَلْقِها، ولَمْ تثِقْ بِقدرَتِها عَلى الكلامِ.

«أتعلَمينَ لِماذا أُحِبُّ (موتزارت)؟» قالَ والدُها وهُوَ يُصَفّي

حنجُرَتَهُ بِسَعْلَةٍ خَشِنَةٍ. «كانَ واحدًا مِنْ أعظمِ المُلَحِّنينَ عَلى الإطلاقِ. لَيسَ لأنَّهُ كتبَ الموسيقى برأسِهِ، بَلْ لأنَّهُ كتَبَها بقلبِهِ. وعندَما يعيشُ الإنسانُ بقلبِهِ، فَمِنَ المُستحيلِ أنْ يكذِبَ أبدًا.» توقَّفَ لِيمسحَ شيئًا مِنْ عَينهِ، رُبَّما كانَتْ أو رُبَّما لَمْ تكُنْ دمعةً. «أنا . . . كانَ عَلَيَّ أنْ أعرِفَ أنَّكِ تقولينَ الحقيقةَ لأنَّكِ، يا إبريل، يا بنتي الحبيبةَ، مِثْلُ أمِّكِ تَمامًا، وقلبُكِ لا يكذبُ أبدًا.»

عندَها أخَذَ يدَها في يدِهِ، وإنْ فعَلَ ذلِكَ بارتِباكٍ، وشَدَّ عَليها. وعندَها أيضًا أدركَتْ إبريل أنَّها استعادَتْ والدَها. أدركَتْ كثيرًا مِنَ الأشياءِ الأخرى أيضًا الّتي اندفعَتْ كُلُّها إلى داخِلِ رأسِها وخارجِهِ مِثْلَ فراشاتٍ تتقافَزُ مُرَفْرِفَةً.

لكنْ لَمْ يكُنْ لَديها وقْتٌ لِلتَّفكيرِ فيها لأنَّ (دُبّ) أغرَقَ كُلَّ تلكَ الأفكارِ في زئيرِهِ. ذاكَ النَّوعُ مِنَ الزَّئيرِ الَّذي جعَلَ السَّفينةَ ترتَجُّ والبحرَ يهتَزُّ والحيواتِ تتحَوَّلُ وتتغَيَّرُ. ثُمَّ نَقَّلَ نظراتِهِ بينَهُمْ بابتسامَةٍ ذَكَّرَتْها بِحَلْوى غَزْلِ البَناتِ وإشراقَةِ الشَّمسِ مَعًا.

«إنَّهُ سعيدٌ،» قالَتْ إبريل لتور المصدومِ، ووالدِها المندهِشِ. «هَلْ ترغبانِ في سَماعِ زئيري أيضًا؟»

وفيما هِيَ تستعِدُّ لإطلاقِ أكبرِ زئيرٍ عَلى الإطلاقِ، انفتَحَ البابُ المؤدّي إلى عَنبرِ الشَّحنِ بِقوَّةٍ وظهَرَ القُبْطانُ حامِلًا بندقيَّةً في يَديهِ مُوجَّهَةً مُباشرَةً إلى (دُبّ).

«لا!» صرخَتْ إبريل وألقَتْ بِنفْسِها أمامَ (دُبّ). «لا تطلِقِ النّارَ!»

تقدَّمَ والدُها بَسرعةٍ إلى الأمامِ حَتّى صارَ أمامَ كُلٍّ مِنْ (دُبّ) وإبريل. «إنَّهُ آمِنٌ تَمامًا يا سَيِّدي،» قالَ بِصوتٍ هادئٍ ومُتَّزنْ. «ابْنَتي تُسيطرُ عَليهِ تمامًا. يمكِنُكَ إنْزالُ بندقيَّتِكَ.»

حَدَّقَ القُبْطانُ في فُوَّهَةِ البُنْدقِيَّةِ. «هَلْ أنتَ مُجنونٌ؟» ثُمَّ أحْكَمَ قَبضَتَهُ عَلى السِّلاحِ. «لا يمكنُكَ السَّيطرَةُ عَلى دُبٍ قُطبيٍّ مُتوحشٍ!»

«لا،» قالَتْ إبريل. «لا يمكنُكَ *أنتَ*. لكنْ أنا أستطيعُ ذلِكَ.»

علَتْ وَجْهَ القُبْطانِ كُلُّ تَعابيرِ البحرِ الهائجةِ وهوَ في أشرسِ حالاتِهِ، لكنْ في هذِهِ المَرَّةِ لَمْ تكُنْ إبريل خائفةً - ليسَ و(دُبّ) إلى جانِبِها وشجاعَتُهُ في قلبِها.

وهكَذا انتصَبَتْ، ومَطَّتْ نَفْسَها إلى طولِ قامَتِها الكامِلَةِ، ونظرَتْ إلى القُبْطانِ في عَينيهِ مُباشرَةً.

«إنَّهُ أفضلُ صديقٍ لي، ولا أتوقَّعُ مِنْ أيِّ شخصٍ لا يحبُّ

الحَيواناتِ أنْ يفهمَ ذلِكَ. لكنَّكمْ رأيتُمْ جَميعًا كيفَ أنقذَ حَياتي.» اقتربَتْ مِنْ (دُبّ) ولفَّتْ ذِراعًا حولَ رقبَتِهِ. «إذا أردْتَ قتلَهُ، عليكَ أنْ تقتلَني أنا أوَّلًا.»

«وأنا،» قالَ والدُها واضِعًا ذِراعَهُ حولَ إبريل.

«وأنا.» قالَ تور الَّذي وضَعَ نَفْسَهُ أمامَهُمْ جَميعًا.

«بُنيَّ؟» أنزلَ القُبْطانُ بُندقِيَّتَهُ. «أنتَ تصدِّقُ هذا؟»

«أبي،» أجابَ تور، مُنتصِبًا في وقفَتِهِ. «أنتَ مَنْ علَّمني أنَّ المحيطَ هوَ عالَمٌ غامِضٌ مِنَ الألغازِ لا يمكِنُ للإنسانِ أنْ يأملَ في أنْ يفهمَهُ بِالكامِلِ. حَتّى وإنْ عَنى ذلِكَ أنَّ فتاةً يمكِنُ أنْ تصادَقَ دُبًّا قطبيًّا. لِذا نعمْ، أنا أصدِّقُ ذلكَ.»

نظَرَ القُبْطانُ إلى تور، ووجهُهُ المتغضِّنُ مُمَزَّقٌ بينَ ما يطلبُهُ ابنُهُ منهُ وواجبِهِ نحوَ السَّفينةِ.

حبسَتْ إبريل أنفاسَها.

«لقدْ تغيَّرَ الزَّمنُ،» تابعَ تور بصوتٍ ألطفَ. «رُبَّما حانَ الوقتُ لِكَي نتغيَّرَ نحنُ أيضًا.»

«حسنًا، حسنًا،» قالَ القُبْطانُ أخيرًا، وإنْ خرجَتْ كَلِماتُهُ عَلى مَضَضٍ. «لكنْ ماذا عَلَينا أنْ نفعلَ؟ هلْ نأخذُ الدُّبَّ إلى أقرَبِ حديقةِ حَيواناتٍ؟»

«(دُبّ) لا يَنْتمي إلى حديقةِ الحيواناتِ!» صاحَتْ إبريل. «عَلينا إعادتُهُ إلى (سفالْبارد)!»

نظَرَ إليها القُبْطانُ مَذهولًا.

«كانَتْ جزيرةُ الدُّبِّ مُمتلئَةً بِالدِّببةِ» وضّحَتْ إبريل. «لِهذا سُمِّيَتْ جزيرةَ الدُّبِّ في الأساسِ! الآنَ لَمْ يَبْقَ عليها أيٌّ مِنْها. هلْ تعرِفُ لماذا؟ لأنَّ الأغطِيَةَ الجليدِيَّةَ ذابَتْ، ولَمْ يَعُدْ بإمكانِ الدِّبَبَةِ الوصولُ إلى هناكَ. لهذا السَّببِ عَلينا أنْ نأخذَهُ إلى موطِنِهِ.»

«ولِمَ يَتَعَيَّنُ عَلَيَّ أنا أنْ أتحمَّلَ هذه المسؤوليَّةَ؟»

«لأنَّ هذه مسؤوليَّتُنا جميعُنا!» قالتْ إبريل بِأَسى. «ألا تَرى؟ لسْتَ أنتَ أو أنا مَنْ أذابَ الأغطِيَةَ الجليديَّةَ. بَلْ نحنُ *جميعُنا*. وإذا لَمْ نفعَلْ ما بِوُسْعِنا للمساعدَةِ، فستَخْتَفي قريبًا كُلُّ الدِّببةِ القُطبيَّةِ.»

«أبي،» الْتَفَتَ تور إلى والدِهِ. «إنَّها محقَّةٌ. والأمرُ لا يقتصرُ على الدِّببةِ القُطبيّةِ فقط. لقدْ قلْتَ بنفسِكَ عدَّةَ مرّاتٍ إنَّ الجليدَ البحريَّ يتراجَعُ أكثرَ فأكثرَ كُلَّ عامٍ. نحنُ نَرى ذلِكَ بأمِّ أعيُنِنا.»

«هلْ تريدُني أنْ أنقِذَ كُلَّ دُبٍّ قُطبيٍّ أجدُهُ؟»

«لا،» قالَتْ إبريل. «هذا فقط.»

«هل تعتقدونَ أنَّني لا أرغَبُ في إنقاذِ القُطبِ الشَّماليِّ أيضًا؟» قالَ القُبْطانُ في غضبٍ. «لكنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى أكثرَ مِنْ فتاةٍ صغيرةٍ تنقِذُ دُبًّا قطبيًّا.»

«أوافقُ،» قالَتْ إبريل. «لكنْ تخيَّلْ لَوْ أنْ كُلَّ شخصٍ عَلى هذا الكوكبِ فعلَ شيئًا واحدًا فقط.»

«وإنْ حصلَ، لنْ يكونَ ذلِكَ كافيًا.»

«لكنَّهُ أفضلُ مِنْ عدَمِ فِعْلِ أيِّ شيءٍ.»

نظرَ القُبْطانُ بِتفَكُّرٍ إليهِمْ، وبَدا وكأنَّهُ يُصارعُ شيئًا عَميقًا بِداخلِهِ.

ظلَّ صامِتًا لأطولِ مَرَّةٍ قبلَ أنْ يقولَ «أبْحَرْتُ في هذِهِ المياهِ لِأكثَرَ مِنْ ثلاثينَ عامًا، وصحيحٌ أنَّني رأيتُ الأغطِيَةَ الجليديَّةَ تذوبُ في حَياتي أسرعَ مِمّا كنتُ أتصوَّرُ أنَّهُ مُمكِنٌ.»

نظَرَ القُبْطانُ بِطرَفِ عَينِهِ إلى تور وعَلى وجهِهِ تعبيرٌ يَنِمُّ عَنْ تفكيرٍ عميقٍ. «قريبًا، القُطبُ الشَّماليُّ الَّذي عرفتُهُ لَنْ يكونَ القطبَ الشَّماليَّ الَّذي سيعرفُهُ ابني. أنا لا أفعَلُ هذا مِنْ أجلِكِ فقط. أنا أفعلُ هذا مِنْ أجلِهِ.»

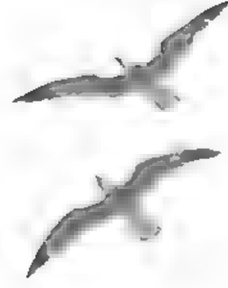
أمسكَتْ إبريل بَكَفِّ (دُبّ) مُبتهِجَةً، ولَمْ تَستطِعْ إيقافَ

شُعاعِ الفَرحِ الَّذي وَمَضَ في كُلِّ جِسْمِها.

«لكنَّني لَنْ أدَعَهُ يؤذي أيًّا مِنْ أفرادِ الطّاقمِ طَالما أنَّني المسؤولُ هنا. سيبقى مُقيَّدًا بالسَّلاسِلِ كُلَّ الوقتِ، هَلْ تفهَمينَ؟»

أومَأَتْ إبريل برأسِها موافِقَةً.

وبِهذا، اتَّجَهَتِ السَّفينةُ شَمالاً.



الفصلُ الثّامنُ والعشرونَ

(سفالْبارد)

كانَتْ (سفالْبارد) تخطفُ الأنفاسَ.

لمعَتْ مِثْلَ الألْماسِ في عينِ الشَّمسِ. رقصَتْ تحتَ سَماءٍ لا نِهايَةَ لَها مِنْ شِدَّةِ اتِّساعِها. تلألَأَتْ وتَنَفَّسَتْ وأنشَدَتْ نَوعَها الخاصَّ مِنَ السِّحْرِ.

كانوا قدْ أبحَروا إلى الميناءِ الرَّئيسيّ في (لونغيربين)، عاصمةِ (سفالْبارد) وواحِدَةٍ مِنْ مُستوطناتِ العالَمِ الواقعَةِ في

أقصى الشَّمالِ. كانَتْ مكانًا لِلحدودِ النِّهائيّةِ ولمغامراتٍ لا يُمكِنُ تَصوُّرُها، وواحِدَةً مِنْ آخِرِ الأماكِنِ عَلى الأرضِ الّتي ما زالَتْ تَعُجُّ بِالحياةِ البَرِّيَّةِ العميقةِ النَّقِيَّةِ.

بقيَتْ إبريل في قسمِ الشَّحْنِ طَوالَ الرِّحلَةِ، مُلتصِقَةً بجانبِ (دُبّ)، ولَمْ يُسمَحْ بِفَكِّ قيدِ (دُبّ) وإحضارِهِ إلى سطحِ السَّفينَةِ سِوى الآنَ، بعدَ أنْ رَسَتْ في الميناءِ بِارتطامٍ عالٍ، ونزلَ الجميعُ منها باستثناءِ القُبطانِ.

شعرَتْ إبريل بأنفاسِها تخرُجُ مِنْ جسدِها باندفاعٍ. كانَتْ (سفالْبارد) أجملَ مَكانٍ رأتْهُ عَلى الإطلاقِ. هنا، قريبًا جِدًّا مِنَ القطْبِ الشَّماليِّ، كانَتْ رائحَةُ الهواءِ مِثْلَ رائحةِ الجليدِ، نظيفةً ونقيَّةً وتُشبِهُ الحلمَ.

ارتجَفَ (دُبّ) بِجانبِها.

«هذا هوَ المكانُ،» قالَتْ إبريل. «هل تذكُرُ؟»

رَدَّ (دُبّ) بِهَزِّ رأسِهِ. أشرقَتْ عَيناهُ، وعَبَرَ وجهَهُ ما بَدا كأنَّهُ ابتسامَةٌ. وكَما لَوْ أنَّهُ يتصَرَّفُ بِدافِعٍ مِنْ غريزتِهِ، بَدَأَ يَمْشي على لوحِ العُبورِ الخَشبيِّ الممدودِ مِنَ السَّفينَةِ مُتَّجهًا نحوَ الشّاطئِ، وتمكَّنَتْ إبريل مِنْ مُواكبَتِهِ.

انتظَرَتْهُما (ليزيه) عَلى الشّاطئِ، شابَّةٌ ذاتُ شَعْرٍ بَنفسجيٍّ،

تتحدَّثُ بلهجَةٍ فرنسيَّةٍ. ومِثْلُ إبريل، كانتْ ترتدي سُترةَ مَطَرٍ حَمراءَ، وحذاءَ مَطَرٍ بِلونِ قوسِ قُزَحَ، وتبتسِمُ ابتسامَةً عريضةً جِدًّا. إبريل، الّتي كانتْ ترتدي بعضَ مَلابسِ تور القديمةِ، أحبَّتْها عَلى الفورِ.

«إذن، أنتِ هي الفتاةُ الّتي أنقذَتِ الدُّبَّ القُطبيَّ.» حدَّقَتْ (ليزيه) بها بإعجابٍ. «الجميعُ هنا يتحدَّثونَ عَنْكِ!»

احمرَّتْ إبريل خَجَلًا. «لقدْ فعلْتُ فقط ما كانَ عَلَيَّ فِعْلُهُ.»

«أنا أفهمُ ذلِكَ.» فَرَدَتْ (ليزيه) ذِراعَيْها عَلى اتِّساعِهِما لتحتضِنَ البيئةَ الجميلةَ المحيطةَ بِهِما والمهدَّدةَ بِالانقراضِ. «لِهذا السَّببِ نحنُ جَميعًا هنا. نقومُ بِدَورِنا. والآنَ، لا بدَّ أنَّ هذا هوَ دُبُّكِ الجميلُ؟»

كانَ (دُبّ) قدْ توقَّفَ لِبرهَةٍ عَلى لوحِ عُبورِ السَّفينَةِ، وراحَ يَستنشِقُ الهواءَ بِفضولٍ.

لَمْ يتبَقَ لَهُ سِوى أَخْذِ خطوَةٍ واحدَةْ قبلَ أنْ يصبحَ في مَوطنِهِ. في النَّسيمِ العليلِ، خَشْخَشَ شيءٌ، وتحرَّكَ باعِثًا رائحَةَ الدِّببةِ القُطْبيّةِ الأخْرى إلى المكانِ. كانَ بِمقدورِ إبريل أنْ تشمَّها. رائحةُ شيءٍ عَتيقٍ ووحشيٍّ وَحَيٍّ. انتصبَتْ أُذُنا (دُبّ) وتحتَ راحَةِ يَدِها، شعرَتْ بِقلبِهِ يقفِزُ.

«أوه، إنَّهُ جميلٌ، أليسَ كذلِكَ؟» قالَتْ (ليزيه). «سيَكونُ في أيدٍ أمينةٍ هُنا، وسيتنقَّلُ بحرِّيَّةٍ في مَوطنِهَ.»

في الطّريقِ إلى هُنا كانَ تور قدْ أخبرَها بِكلِّ شيءٍ عَنِ المعهدِ القُطبيِّ، مُوضِّحًا أنَّهُ منظَّمةٌ حكوميَّةٌ نِرويجيَّةٌ تبذلُ قُصارى جهدِها لِحمايةِ المنطقةِ المحيطةِ (بسفالْبارد) والحفاظِ علَيْها.

«بمجرَّدِ أنْ يستقرَّ، سَنراقِبُهُ بِعنايةٍ، فقط للتَّأكُّدِ مِنْ أنَّهُ بِكاملِ لياقتِهِ وبصحَّةٍ جيِّدةٍ بعدَ رحلتِهِ.»

أومأَتْ إبريل برأسِها، لَمْ تكُنْ واثقَةً بِقدرَتِها عَلى الكلامِ.

«لقدْ فعلْتِ شيئًا شُجاعًا جِدًّا،» قالَتْ (ليزيه) بلطْفٍ. «ليسَ بالضَّرورةِ بالطَّريقةِ الصَّحيحةِ. لكنَّهُ ينتمي إلى هذا المكانِ.»

تحتَ يدِها، تسارَعَ قلْبُ (دُبّ) ورقَصَ. كانتْ ما زالتْ أمامَهُ تلكَ الخطوةُ الأخيرةُ الّتي يجِبُ أنْ يخطوَها ليقفَ بِالفعلِ على شاطئِ (سفالْبارد)، لكنَّ جسدَهُ كلَّهُ كانَ متكوِّرًا ومتماسِكًا.

شعرَتْ إبريل بصدْرِها يخفُقُ. «لكنَّني لا أعرفُ إنْ كنتُ مُستعدَّةً!» بكَتْ وبحثَتْ بِأصابِعِها عنِ الموضِعِ النّاعِمِ خلفَ أذنِهِ. «أتمَنّى لَوْ يمكنُني أنْ أبقى معَهُ.»

«أنا متأكِّدةٌ مِنْ أنَّهُ يتمَنّى ذلِكَ أيضًا.» ابتسمَتْ (ليزيه).

«لقَدْ عشْتِ مغامرةً مُذهلةً. عودي إلى وطَنِك، شارِكي قصتَّكِ معَ كلِّ مَنْ يريدُ الاستماعَ إليها، وخاصَّةً أولئكَ الّذينَ لا يريدونَ ذلِكَ، وافْعَلي ما في وسْعِكِ لإخبارِ الجَميعِ عنّا هنا في (سفالْبارد). يحتاجُ القُطْبُ الشَّماليُّ إلى مساعدةِ الجميعِ أكثرَ مِنْ أيِّ وقتٍ مَضى.»

خلْفَها انطلَقَ بوقُ السَّفينَةِ فقفزَتْ إبريل. كانَتْ تعلَمُ أنَّهُمْ سيتوقَّفونَ لِفترةٍ قصيرةٍ فقط، لكنْ ليسَ بِهذا القِصَرِ. كانَ الوقتُ يهرُبُ مِنها سريعًا، وشعرَتْ بأنفاسِها تضيقُ وهيَ تُحاولُ أنْ تَتدارك الأمرَ.

«إنَّهُ يحبُّ التَّمسيدَ خلفَ أذنِهِ اليُسْرى،» قالَتْ بسرعَةٍ. «وعندَما يكونُ سعيدًا، يتدحْرَجُ عَلى ظهرِهِ، ويرغَبُ في أنْ تُفرَكَ بطنُهُ. وهاكِ،» أخرجَتْ آخِرَ برطمانٍ مُتبَقٍ مِنْ زُبدةِ الفولِ السّودانيِّ أحضرَهُ والدُها مِنْ تحتِ سريرِها. «إنَّهُ يحبُّ هذا.»

أخذَتْ (ليزيه) البرطمانَ وأمسكَتْهُ بإحْكامٍ. «سأبذُلُ قُصارى جهدي لأرعاهُ مِثلَما فعلتِ. لكنْ تذكَّري أنَّهُ حيوانٌ برِّيٌّ. أظُنُّ أنَّهُ بِمجرَّدِ عودَتِهِ إلى أبناءِ جنسِهِ، فلَنْ يحتاجَ إلى اتِّصالٍ بشريٍّ بَعدَها.» تفحَّصَتْ إبريل بعنايَةٍ. «في الواقِعِ، مِنْ غيرِ

المُعتادِ إقامَةُ مِثْلِ هذه العَلاقَةِ مَعَ دُبٍّ قُطبيٍّ بَرِّيٍّ. لَمْ أرَ قطُّ شيئًا كعَلاقَتِكُما.»

لَمْ تَثِقْ إبريل بقدرَتِها عَلى الكلامِ، فَأومَأَتْ برأسِها.

«هلْ ترغبينَ بِأخْذِ صورةٍ قبلَ أنْ تذهَبي؟ لكُما معًا؟ يمكِنُني إرسالُها إليكِ بِالبريدِ الإلكترونيِّ.»

كانَتْ لَدى (ليزيه) كاميرا رقمِيَّةٌ لِالتقاطِ صُوَرٍ عالِيَةِ الدِّقَّةِ يَنْشرونَها عَلى مَوقعِهِمْ عَلى الإنترنت، وجَّهَتْها نحوَهُما. انتَصَبَ (دُبّ) عَلى قائمَتَيهِ الخلْفيَّتينِ، بقوَّتِهِ وجلالِهِ، وإحدى قائمَتَيهِ تَطوِّقُ بِرفْقٍ كَتِفَيها، مالَتْ إبريل نحْوَ عناقِهِ.

عندَما التُقْطَتِ الصّورةُ - ومَضَتْ وَمْضَةً بيضاءَ جعلَتْ عَينَيها تَطرِفانِ - مدَّتْ (ليزيه) يدَيْها مُوَدِّعَةً. «أظُنُّ أنَّ سفينتَكِ جاهزةٌ،» قالَتْ حينَ انطلَقَ بوقُ السَّفينَةِ مُدَوِّيًا مَرَّةً أخرى، عندَها، ابتعدَتْ واتَّجهَتْ عائدَةً إلى مركَزِ حِفْظِ الطَّبيعةِ، تارِكَةً إبريل بمفرَدِها.

أمامَها لَمْ يبقَ سِوى (دُبّ).

«حَسنًا، يا (دُبّ). حانَ الوقتُ.»

تسارعَتْ ضَرَباتُ قلْبِها، وكانَ بِمقدورِها أنْ تشعُرَ بِقلْبِ (دُبّ) يتسارَعُ أيضًا.

لأوَّلِ مَرَّةٍ منذُ وصولِهما، حوّلَ انتباهَهُ بَعيدًا عَنْ (سفالْبارد) وأعادَهُ إلى إبريل.

«(دُبّ)؟» حضَنَتْ وجهَهُ بِيَدَيْها فحدَّقَ كُلٌّ في عَيني الآخَرِ. تلألأتْ عَيناهُ اللَّتانِ بِلونِ الشّوكولاتَةِ، وذابَتا وانْسَكَبتا في عينَيها. طرفَتْ عَيناها عِدَّةَ مَرّاتٍ حتَى تتمَكَّنَ مِنْ رؤيَتِهِ بِشكلٍ صحيحٍ. «خُضْنا كثيرًا مِنَ المُغامَراتِ مَعًا، لكنَّكَ في موطِنِكَ الآنَ، أليسَ كذلِكَ؟» همسَتْ إبريل. «يمكِنُكَ أنْ تشعرَ بِذلِكَ. أستطيعُ أنْ أرى ذلِكَ. و . . . الآنَ يجبُ أنْ أعودَ أنا إلى موطِني أيضًا.»

زمجَرَ (دُبّ) وأطلَقَ أنينًا خافِتًا مُؤلمًا جعلَ قلبَها يخفقُ. دفعَ برفقٍ وجهَها بأنفِهِ حتّى وضعَتْ ذِراعَيها حولَهُ.

أراحَتْ إبريل وجهَها عَلى خَدِّهِ. «لكنَّكَ ستكونُ بخيرٍ هنا. انظرْ! أنتَ في أيدٍ أمينةٍ. (ليزيه) لطيفةٌ. قالَتْ إنَّكَ بَرِّيٌّ، لكنْ إذا احتجْتَ إلى بعضِ التَّمسيدِ والعناقِ، يمكنُكَ أنْ تأتيَ إليها، حسنًا؟ وسأرسِلُ لكَ بعضَ زبدةِ الفولِ السّودانيِّ عَبْرَ البريدِ، لكنْ لا تأكلْ كثيرًا وإلّا ستصبحُ سَمينًا.»

ارتعشَتْ أُذُنا (دُبّ) حينَ مالا مُقتربَتَيْنِ نَحْوَ بَعضِهِما بعضًا. دوّى بوقُ السَّفينَةِ مرَّةً أخرى. تسارَعَ الوقتُ وتعجَّلَ وقَصُرَ،

مُسابِقًا دقّاتِ قلبِها. شدَّتْ قبضَتَها، وقبَّلَتْهُ ألفَ مَرَّةٍ، وشعرَتْ بشيءٍ داخلَها ينكَسِرُ.

«أنا أحبُّكَ يا (دُبّ).»

وبهذِهِ الكلماتِ، تركَتْهُ أخيرًا.



الفصلُ التّاسعُ والعشرونَ

الزَّئيرُ الأخيرُ

بينَما كانَ (دُبّ) يخطو خطواتِهِ الأولى عائدًا إلى الأرضِ الّتي ينتَمي إليها، بدأَتْ سفينةُ إبريل تُبحِرُ ببطءٍ بعيدًا عنْ (سفالْبارد). وقفَتْ إبريل على ظهرِ السَّفينَةِ، مُتسمِّرَةً في القسمِ الخلفيِّ مِنْها، وذراعاها ويَداها ممدودةٌ نَحْوَ البحرِ في حركَةِ وَداعٍ.

عَلى الشّاطِئِ، راقَبَ (دُبّ) السَّفينَةَ وهيَ تبتعِدُ في حَيرةٍ. كانَ

في النِّهايَةِ حَيوانًا، ولَمْ يعرِفْ تمامًا لماذا تركَتْهُ وراءَها.

«(دُبّ)!» صرخَتْ باكِيةً كَما لَوْ أنَّ قلبَها كُلَّهُ انفطَرَ.

«(دُبّ)!»

في هذا الوقتِ، كانَتِ السَّفينَةُ تَتسارَعُ في إبحارِها، تاركَةً وراءها سَيلًا مِنَ الزَّبَدِ الأبيضِ، فتسرِعُ مُبتعدَةً أكثرَ وأكثرَ. بَينَما كانَ (دُبّ) عَلى الشّاطِئِ يصغُرُ أكثرَ وأكثرَ.

«**(دُبّ)!**» صرخَتْ مِنْ أعماقِ كَيانِها. «**(دُبّ)!**»

ارتفَعَ الألَمُ بِداخِلِها مِنْ مكانٍ لَمْ تعرفْ حَتّى أنَّهُ موجودٌ. اندفَعَ بِقوَّةٍ مِثْلَ مَوجَةٍ، والْتَفَّ حولَها مِثْلَ الرَّعْدِ. كانَ هُناكَ شَقٌّ في مكانٍ ما في هوَّةِ الكَونِ. شيءٌ يَتَشَظّى إلى ألفِ تِريليونِ قِطعةٍ. وعرفَتْ أنَّها مَهْما بذلَتْ مِنْ جهدٍ في البحثِ، فلَنْ تتمكَّنَ مِنْ أنْ تعثُرَ عَلَيها وتُلَمْلِمَها جميعَها مِنْ جديدٍ.

كيفَ يمكنُها أنْ تَعيشَ مِنْ دونِهُ؟

كيفَ؟

لَمْ يكُنْ حَتّى سُؤالًا لأنَّهُ لا يوجَدُ جوابٌ. كانَتْ صرخَةً صدرَتْ مِنْ أعمَقِ جزءٍ مِنْ كِيانِها، الجزءِ الّذي لَمْ تكُنْ تعلَمُ بِوجودِهِ حَتّى الآنَ، لكنَّهُ كانَ دائمًا موجودًا.

بَدا الأمرُ كَما لَوْ أنَّ روحَها انتُزِعتْ منْها.

كيفَ يمكِنُ أنْ تكونَ سعيدةً مِنْ دونِ أنْ تلمسَهُ مرَّةً أخرى؟ مِنْ دونِ أنْ تكونَ قادرَةً عَلى أنْ تدسَّ وجهَها في فرائِهِ النّاعِم؟ مِنْ دونِ أنْ تَرى أذنَيهِ تَرتعِشانِ؟ والابتسامةُ عَلى وجهِهِ وهوَ يتدحْرَجُ ويتَلَوّى عَلى ظهرِهِ في الشَّمسِ؟ ومِنْ دونِ أنْ تشعُرَ بأنفِهِ الرَّطبِ عَلى بشرتِها؟ أو بلسانِهِ وهوَ يلعَقُ النَّمشَ عَلى وجهِها؟ مِنْ دونِ أنْ تَراهُ وهوَ يَثِبُ خارِجًا مِنَ البحرِ؟ أوْ تَرْكَبَ عَلى ظهرِهِ وتتسلَّقَ الجِبالَ، وتشعرَ بأنَّها أكثرُ فتاةٍ سعيدةٍ ومحبوبةٍ عَلى وجْهِ الأرضِ؟

كيفَ يمكِنُ للوقَتْ أنْ يمضيَ مِنْ دونِ أنْ يكونَ (دُبّ) جزءًا مِنْ حياتِها؟

«لا أستطيعُ!» شهقَتْ بِالبكاءِ. «لا أستطيعُ العيشَ دونَهُ.»

كانَ حزنُها هائلًا، ومُتَغَوِّلًا، وقبيحًا لِدرجَةِ أنَّها بِالكادِ استطاعَتْ أنْ تبلعَ ريقَها.

ما زالَ بإمكانِها أنْ تَراهُ. يتضاءَلُ شيئًا فشيئًا. ليسَ دُبَّها ذا القامَةِ العملاقةِ. وإنَّما كيانٌ يصغُرُ ويصغُرُ. كيانٌ صَغير جِدًّا! يختفي أمامَ عَينَيْها.

«(دُبّ)!» صرخَتْ مرَّةً أخرى، بصوتٍ أَجَشَّ مِنَ الألَمِ. **«(دُبّ)!»**



عَلى الشّاطِئِ - كانَ ما زالَ بإمكانِها أنْ تلمَحَهُ - نهضَ (دُبّ) عَلى قائمتَيْهِ الخلفيَّتَينِ، وفتحَ فمَهُ مُصدِرًا زئيرًا أجوَفَ أخيرًا. دارَ الزَّئيرُ ورقصَ وسابقَ عَبْرَ الأمواجِ. تدافَعَ عَبْرَ الماءِ، مُطارِدًا السَّفينَةَ، حَتّى وصَلَ إليها أخيرًا.

زئيرُ (دُبّ).

زئيرُ (دُبّ) *الأخيرُ.*

الْتَقَطَتْهُ وقبضَتْ عَليهِ بِكِلْتا يدَيْها. قبضَتْ عَليهِ كأنَّهُ أثمنُ شيءٍ في العالَمِ بأسْرِهِ؛ قبضَتْ عَليهِ كَما لَوْ أنَّها لنْ تتركَهُ مُطلقًا.

وبينَما انسكَبَتِ الدُّموعُ عَلى وجهِها، شاهَدَتْ (دُبّ) يختفي عَنِ الأنظارِ للمرَّةِ الأخيرةِ.

«لا بأسَ. إنَّهُ بِأمانٍ الآنَ.» حطَّتْ يدٌ لطيفةٌ فوقَ مِرفَقِها. «إبريل، ابنتي الحبيبةَ الغاليةَ.»

استدارَتْ إليهِ، ودسَّتْ وجهَها في سُترتِهِ الصّوفيَّةِ. لَمْ تشعُرْ بِها قَطُّ مألوفَةً ومريحَةً مِثْلَ الآنَ.

بقيَتْ هناكَ لفترةٍ طويلةٍ معهُ. كانَ يُمَسِّدُ شعرَها بينَما انهارَتْ في بكاءٍ شديدٍ جعلَها غيرَ قادرَةٍ عَلى التَّنَفُّسِ، واحمرَّتْ عَيناها وانتفَخَتا.

لكنْ في النِّهايَة، خَبَتْ شَهقاتُها واستحالَتْ إلى فواقٍ صغيرةٍ، هدأَتْ أنفاسُها، وتمكَّنَ والدُها مِنْ تمريرِ مِنديلِهِ إليها لِتمخُطَ أنفَها.

«سيكونُ بخيرٍ، أليسَ كذلِكَ؟»

«لقدْ أنقذتِهِ يا إبريل.» قرفَصَ والدُها قليلًا لِيصيرَ بِطولِها. «يمكنُهُ الآنَ أنْ يحظى بحياةٍ. حياةٍ تليقُ بِدُبٍّ قُطْبيٍّ.»

«لكنْ . . .» أخذَتْ إبريل نَفَسًا عميقًا ومُرتجِفًا. «ماذا لَوْ لَمْ يعتَدْ عَلى الوجودِ مَعَ الدِّببةِ الأخرى؟»

«ألَيسَ هذا ما أرادَهُ؟» نظرَ والدُها في وجهِها. «أنْ يعودَ إلى المكانَ الّذي ينتمي إليهِ؟ ألّا يَبْقى عالِقًا وحدَهُ عَلى الجزيرةِ؟»

«بلى،» أجابَتْ بصوتٍ صَغيرٍ.

«لقدْ أعدتِهِ إلى موطنِهِ الحقيقيِّ؛ حَتّى يبقى عَلى قيدِ الحياةِ. أظنُّ أنَّهُ سيكونُ سعيدًا، ألا تعتقدينَ ذلِكَ؟»

تجرَّعَتْ دموعَها، وابتلعَتْها. «لكنْ . . . ماذا عَنّي أنا؟»

«لنْ ينساكِ أبَدًا يا إبريل وود.» أجابَ والدُها. «كيفَ يمكِنُهُ ذلِكَ؟ لقدْ أنقذْتِ حياتَهُ.»

«لَمْ أقصِدْ ذلِكَ.»

«ماذا قصَدْتِ إذنْ؟»

«كيفَ سأكونُ سعيدةً؟» أغمضَتْ عَينَيها لِتَحْبسَ دُموعَها، ثُمَّ فتحَتْهُما. «أنتَ لَمْ تَتَخَطَّ يومًا . . .»

عَبَّ والِدُها نَفَسًا كَبيرًا وحادًّا. «أمُّكِ، تقصدينَ؟» تَنَهَّدَ بِعمقٍ. «لأنَّ الكِبارَ بِإمكانِهِمْ أنْ يكونوا عُمْيًا أحيانًا. لَدَيَّ هُنا أمامَ ناظِرَيَّ أروعُ ابْنَةٍ، لَدَيْها أشجعُ قَلْبٍ، ومِنَ الآنَ فَصاعِدًا، سنكونُ عائلَةً حقيقيَّةً، وسأكونَ أبًا حقيقيًّا.»

حاولَتْ إبريل أنْ تستجمِعَ ابتسامَةً، لكنْ أكثرَ ما نَدَّ عَنْها كانَ فُواقَةً.

«ماذا تشعرينَ حِيالَ الانتقالِ لِلعيشِ قُرْبَ شاطئِ البحرِ لِتكوني قريبةً مِنَ الجَدَّةِ (أبلز)؟ يمكنُنا العثورُ عَلى بيتٍ صغيرٍ جميلٍ، ويمكنُكِ الذَّهابُ إلى إحدى المدارسِ المَحلِّيَّةِ اللَّطيفةِ.»

«لكنْ ماذا عَنْ عملِكَ في الجامعةِ؟»

«سأقدِّمُ استقالَتي،» قالَ. «فكَّرْتُ أنّي . . . قدْ أتقدَّمُ لِوظيفةٍ في إحدى الجامعاتِ الموجودةِ هناكَ. سمعتُ أنَّ إحداها تبحثُ عَنْ أشخاصٍ يقترحونَ حَلًّا ليصبحَ البلاستيكُ قابِلًا للتَّحلُّلِ.»

«ستكونُ جَيِّدًا في ذلِكَ،» قالَتْ إبريل وهيَ تفكِّرُ كَمْ هوَ ذَكِيٌّ، ثُمَّ رَبَّتَتْ عَلى ذراعِهِ. «هذا جَيِّدٌ. بِالنِّسْبَةِ لي.»

«وسنقْضي المزيدَ مِنَ الوقتِ معًا،» قالَ، مُبتسِمًا لَها بعيونٍ تلألأتْ كالنُّجومِ. «أَعِدُكِ.»

وفيما حَدَّقَتْ إبريل في وجهِهِ، أدركَتْ أنَّ أباها لَمْ يكُنْ يتحَدَّثُ بِالكلِماتِ فَحَسْبُ. بَلْ كانَ يتحدَّثُ بِكُلِّ تلكَ الأشياءِ غيرِ المنطوقَةِ الّتي تجعلُ الكلماتِ تَعْني شيئًا مميَّزًا، وشعرَتْ بِمعنَويّاتِها ترتفِعُ استجابَةً لذلِكَ.

لقدْ بَدا لَها العيشُ بِالقُرْبِ مِنَ الجَدَّةِ (أبلز) وبِالقُرْبِ مِنْ شاطئِ البَحرِ جَميلًا، وفي حينِ شعرَتْ بِمعِدَتِها ثقيلةً لمجَرَّدِ التَّفكيرِ في مغادرَةِ القُطبِ الشَّماليِّ مِنْ دونِ (دُبّ)، كانَتْ عَلى الأقلِّ تغادِرُهُ مَعَ أبٍ حقيقيٍّ.

«سأرسِلُ لكِ صُورًا عندَ زِيارَتِنا المقبلَةِ،» قالَ تور.

لَمْ تكُنْ قَدْ لاحظَتْ وجودَهُ.

لَمْ تستطِعْ أنْ تتخيَّلَ كيفَ يُبْدو شكلَها. بوجْهٍ أحمَرَ مُبقَّعٍ يُغطِّيهِ المُخاطُ. لكنَّها لَمْ تكتَرِثْ لذلِكَ.

«سوفَ تفعلُ ذلِكَ؟»

«بالطَّبْعِ،» قالَ تور. «سأرسِلُ لكِ كثيرًا مِنَ الصّوَرِ قَدْرَ ما

تشائينَ. سأرسلُ لكِ كثيرًا مِنَ الصّوَرِ، وستتمكّنينِ مِنْ صُنْعِ ورقِ حائطٍ مِنْها.»

«سأحِبُّ ذلِكَ،» قالتْ إبريل. «سأحُبِّ ذلِكَ كثيرًا.»

«ورُبَّما يمكنُكِ العودةُ يومًا ما.» قالَ تور بابتسامةٍ في عَينَيهِ الزَّرْقاوينِ.

«أوه،» قالَتْ. «سأفعلُ. بالتَّأكيدِ سَأعودُ. وبعدَها، عندَما أكبرُ، سأنتقِلُ إلى هُنا، وسأعملُ في المعهَدِ القُطْبيِّ.»

«على نحوٍ ما،» قالَ تور. «لا أشكُّ بأنَّكِ ستفعلينَ.»

«في النِّهايَةِ،» قالَتْ إبريل، ناصِبَةً قامَتَها إلى كُلِّ طولِها، وناظِرَةً إلى البحرِ. «يجِبُ عَلى شخصٍ ما أنْ ينقِذَ الدِّببةَ القُطْبيَّةَ.»

وبعدَ قولِها هذا، فتحَتْ فَمَها وزأرَتْ.

ولأنَّها تعلَّمَتْ أنْ تزأرَ زئيرَ دُبٍّ قُطبيٍّ حقيقيٍّ - وليسَ زئيرَ فتاةٍ صغيرةٍ - ولأنّها احتفظَتْ بأفضَلِ زئيرٍ حَتّى النِّهايَةِ، فقَدِ ارْتَحَلَ زئيرُها ورقَصَ، ولامَسَ الأمواجَ وكشَطَها فوقَ البحرِ عَلى طولِ المسافةِ إلى (سفالْبارد).

كانَ (دُبّ) ما زالَ مُنتظِرًا عَلى الشّاطِئِ. واقِفًا عَلى قائمتَيْهِ الخَلفِيَّتينِ مِثْلَ حِصانٍ أبيضَ رائعٍ. أذناهُ مشدودتانِ، وأنفُهُ

مُرتعِشٌ، وعيناهُ دامِعتانِ بِفعْلِ الرّيحِ أو بفعْلِ شيءٍ آخَرَ. عندَما وَصَلَهُ زئيرُها أخيرًا، قافِزًا وراكِضًا عَبْرَ الأمواجِ، هَبطَ واستقَرَّ عندَ قدمَيهِ. وقَفَ (دُبّ) لِلحظَةٍ، وسمَحَ للزَّئيرِ بِأَنْ يطوِّقَهُ في عِناقٍ أخيرٍ بِحجمِ قامَةِ إبريل. كانَ العِناقَ الأكبرَ والأجمَلَ عَلى الإطلاقِ. ثُمَّ نزلَ عَلى قوائمِهِ الأربَعِ، وانطلَقَ لِيبدَأَ حياتَهُ الجديدَةَ.

النِّهايَةُ

ملاحظةُ المؤلِّفةِ

عندما جلسْتُ لكتابةِ *الدُّبِّ الأخيرِ*، كانت لدَيَّ فكرةٌ بسيطةٌ واحدةٌ في رأسي وهي الكتابةُ عن معظمِ الأشياءِ الَّتي أحبَبْتُها أكثرَ مِنْ أيِّ شيءٍ آخَرَ في العالَمِ. ومِنْ ثَمَّ فهذا يعني الكتابةَ عَنِ الحَيواناتِ، خاصَّةً الكبيرةَ الَّتي يطيبُ عناقُها، والصَّداقةِ الخاصَّةِ الَّتي تربطُ البشَرَ، ولا سِيَّما الأطفال بها، وأواصِرِ المحبَّةِ العميقةِ الَّتي يمكنُ أنْ تنشأَ بينَ قلوبِها وقلوبِنا.

المكوِّنُ الرَّئيسُ الآخَرُ كانَ شَغَفي بكوكبِ الأرضِ - ليسَ فقط كيفَ هي مبهِرةٌ ومدهشةٌ إلى حَدٍّ كبيرٍ (وهي كذلك!) لكنْ أيضًا كيفَ تحتاجُ مِنّا إلى أنْ نحمِيَها، وكيفَ يمكنُ لِأَيِّ شخصٍ كانَ، بغضِّ النّظرِ عَنْ كونِهِ كبيرًا أو صغيرًا، أنْ يُلهِمَ الأملَ، ويُحدِثَ التَّغييرَ. وبالنَّظرِ إلى الأحداثِ الصَّعبةِ الَّتي شهدَها العالَمُ خلالَ الأشهرِ القليلةِ الماضيةِ، فإنَّ القدرةَ على

توفيرِ كُتبٍ ممتلِئةٍ بِمشاعرِ العطفِ والودِّ والدِّفءِ تبدو أكثرَ أهميّةً مِنْ أيِّ وقتٍ مَضى.

مِنَ المهمِّ الإشارةُ إلى أنَّ الدُّبَّ الأخيرَ هوَ عمَلٌ خياليٌّ مَعَ بعضِ الحقائقِ المنثورةِ هنا وهناكَ. راودَتْني فكرةُ شخصيَّةِ دبٍّ أوَّلًا. لا أستطيعُ أنْ أتذكَّرَ متى أو كيفَ، لكنْ فجأةً كانَ يحدِّقُ في وجهي بعينَيهِ الدّاكِنتينِ بِلونِ الشّوكولاتةِ، وقدِ ارتسَمَ على وجهِهِ تعبيرٌ بائسٌ متوسِّلٌ. لَطالما شعَرْتُ أنَّهُ مِنَ المستحيلِ تجاهُلُ الحَيواناتِ، خاصَّةً الحَيواناتِ الرّائعةَ المهيبةَ ذاتَ القلبِ الكبيرِ مثلَ دُبٍّ في هذه القصَّةِ. كانَتْ هناك قصَّةٌ لابُدَّ له أنْ يروِيَها، ويبدو أنَّني كنْتُ الشَّخصَ الَّذي عليه روايَتُها. لَمْ أكُنْ أعرفُ كثيرًا عَنِ الدِّببةِ القُطبيَّةِ في ذلك الوقتِ، فجلسْتُ لأُجْرِيَ بعضَ الأبحاثِ. أوَّلًا وقبلَ كلِّ شيءٍ، أينَ سيعيشُ دُبٌّ في القصَّةِ؟

هناكَ كنْتُ، جاثيةً فوقَ أرضيّةِ غرفةِ نومي، وخريطةُ الدّائرةِ القُطبيَّةِ الشّماليّةِ مفروشةٌ أمامي، عندَما رأيتُ جزيرةً صغيرةً جِدًّا في بحرِ (بارنتس).

جزيرةُ *الدُّبِّ*.

صرختُ بصوتٍ عالٍ بالفعْلِ لأنَّهُ، مِنَ الواضحِ تمامًا، أنَّها

المكانُ المثاليُّ لِتجريَ فيها أحداثُ كتابي. اكتشفْتُ المزيدَ عَنْ تاريخِ الجزيرةِ، وكيفَ أنَّ أحدًا لَمْ يَرَ دِببةً قُطبيَّةً عليها منذُ فترةٍ طويلةٍ مِنْ ثماني سنواتٍ، وفجأةً صارَ سَعْيُ إبريل اليائسُ لِأخْذِ الدُّبِّ إلى موطِنِهِ في (سفالْبارد) القصَّةَ الحقيقيَّةَ الوحيدةَ الَّتي عَلَيَّ أنْ أسردَها.

جزيرةُ الدُّبِّ الحقيقيّةُ هي تقريبًا، لكنْ ليسَ تمامًا، كما وردَتْ تفاصيلُها في هذا الكتابِ. هي نفسُها، مِنْ حيثُ الطّبيعةُ الجغرافيَّةُ والأبعادُ والمساحةُ. وصحيحٌ أنَّها غيرُ مأهولةٍ بِاستثناءِ وجودِ محطَّةِ أرصادٍ جَوِّيَّةٍ عَليها. ومعَ ذلك، على جزيرةِ الدُّبِّ الحقيقيَّةِ، يديرُ محطَّةَ الطّقسِ فريقٌ مكوَّنٌ مِنْ أحدَ عشرَ شخصًا بدلاً مِنْ أبٍ وابنتِهِ. (وأنا واثقةٌ أيضًا إلى حَدٍّ ما مِنْ أنَّ أساليبَهُمْ في قراءةِ الطَّقسِ ذاتُ طابعٍ علْميٍّ أكثرَ بكثيرٍ مِنْ تلكَ الَّتي وصفْتُها!) أيُّ عملٍ خياليٍّ يجبُ أنْ يشكِّلَ بطريقةٍ أو بأخرى تفاصيلَ المكانِ بِما يتلاءَمُ معَ القصَّةِ؛ لذلكَ تصرَّفْتُ ببعضِ الحرّيّةِ معَ تضاريسِ الجزيرةِ وبعضِ الجوانبِ الأخرى لِتناسِبَ السَّردَ. خليجُ (والْروس) موجودٌ بِالفعْلِ - لَمْ أختَلِقْهُ - وحتّى عزلةُ جزيرةِ الدُّبِّ، لَمْ تحمِها مِنْ وجودِ كمّيّةٍ مذهِلةٍ مِنَ البلاستيكِ الَّذي يجرفُهُ الموجُ، ويُلقي به على شواطِئها. عدا

عنْ ذلكَ، فإنَّني أتحمَّلُ أيَّ أخطاءَ وردَتْ بالكامِلِ، وأنا أعتذِرُ سلفًا عنها.

وبالطَّبعِ، تصرَّفْتُ بحرّيّةٍ أيضًا مع شخصيَّةِ (دُبّ). بقدْرِ ما هو محبوبٌ، فإنَّ الدِّببةَ القُطبيَّةَ في الحياةِ الواقعيّةِ حيواناتٌ برّيّةٌ خطيرةٌ جِدًّا، ولا أوصي أبدًا بمحاولَةِ تكوينِ صداقةٍ معَ أحَدِها.

لكنْ، هناكَ شيءٌ مميَّزٌ عَلى نَحْوٍ لا يُصَدَّقُ بشأنِ الدُّبِّ القُطبيِّ؛ لذلكَ ليسَ مِنَ المُستغْرَبِ أنْ تتصدَّرَ صورُ الدِّببةِ القُطبيَّةِ مُلصقاتِ حملاتِ مكافحةِ التَّغيُّرِ المناخيِّ - إذ إنَّهُ معَ ارتفاعِ درجةِ حرارةِ القُطبِ الشَّماليِّ بمعدَّلٍ يفوقُ مرَّتينِ مُعدَّلَ ارْتفاعِ درجةِ حرارةِ سائرِ أنحاءِ الكوكبِ، فإنَّها الأكثرُ معاناةً للأسفِ. وما هو محزنٌ أكثرُ، وفْقًا للاتّحادِ الدّوليِّ لِحفظِ الطَّبيعةِ (IUCN)، أنَّهُ مِنَ المتوقَّعِ أنْ ينخفضَ عددُ الدِّببةِ القُطبيَّةِ على نَحْوٍ مُنذِرٍ بحلولِ عامِ 2050.

هناكَ بعضُ الخِلافِ حولَ مِقدارِ ذوبانِ الجليدِ البحريِّ وسرعتِهِ. هذا لأنَّهُ يتمدَّدُ وينكمشُ معَ تغيُّرِ المواسمِ، وليسَ مِنَ السَّهلِ قياسُهُ. لكنَّ سجِلّاتِ (ناسا) على مدى اثنينِ وأربعينَ عامًا مِنَ الرَّصدِ باستخدامِ الأقمارِ الاصطناعيّةِ تُظهِرَ أنَّ القطبَ

الشّماليَّ فقَدَ نحوَ مليونِ ميلٍ مربَّعٍ مِنَ الجليدِ البحريِّ. وتشيرُ إحصائيَّةٌ أخرى إلى أنَّ الانخفاضَ بلغَ أكثرَ مِنْ ثلاثةَ عشرةَ بالمئةِ في كلِّ عَقْدٍ، معَ تسجيلِ أكبرِ انخفاضٍ شتويٍّ في منطقَتي (سفالْبارد) وبحرِ (بارنتس).

في عامِ 2019 شوهِدَ دُبٌّ قطبيٌّ واحدٌ عَلى جزيرةِ الدُّبِّ، إلّا أنَّ هذا الأمرَ كان حقًّا استثنائيًّا لأنَّهُ معَ استمرارِ ذوبانِ الجليدِ البحريِّ في القطبِ الشّماليِّ لنْ تتمكَّنَ الدِّببةُ القُطبيَّةُ بعدَ الآنَ مِنَ الوصولِ إلى الجزيرةِ الَّتي تحملُ اسمَها. للأسفِ، هذا أيضًا يعرِّضُ ملجأَ الدِّبَبةِ الَّذي توفِّرُهُ (سفالْبارد) للخطرِ.

قد يبدو كلُّ هذا مُحبِطًا جدًّا لو لَمْ يكُنْ لَدينا أطفالٌ شُجعانٌ ومتحمِّسونَ ومدهشونَ. عندَما كتَبْتُ هذا الكتابَ، كانَتْ معظمُ كتبِ الأطفالِ حولَ تغيُّرِ المناخِ تصوِّرُ واقِعًا مريرًا. لكنَّني أعتقدُ أنَّ الوقتَ لَمْ يَفُتْ بعدُ، ولِهذا السَّببِ كنتُ حريصةً عَلى سَرْدِ قصَّةٍ أظهرَتْ كيفَ يمكِنُ لِفتاةٍ بمفرَدِها، حتّى فتاةٍ صغيرةٍ جدًّا، أنْ تُحدِثَ تأثيرًا كبيرًا. لَسْتُمْ بِحاجةٍ إلى إنقاذِ دُبٍّ قُطبيٍّ بِمفردِكُمْ مثلَ إبريل (لن أنصحَ بذلكَ!)، لكنْ آملُ أنْ يشجِّعَ هذا الكتابُ كُلَّ قارئٍ عَلى أنْ يؤمِنَ بأنَّهُ قادرٌ على المساعدَةِ أيضًا.

وإذا كنتُمْ مِثْلي، قَدْ وقعتُمْ في حُبِّ (دُبّ)، فإنَّ أفضلَ

طريقةٍ لمساعدةِ الدِّببةِ القُطبيَّةِ وحمايةِ كوكَبِنا الجميلِ تتمثَّلُ في بذْلِ كلِّ ما في وسْعِكُمْ لمكافحَةِ تغيُّرِ المناخِ.

معَ زئيرٍ عالٍ بِما فيه الكفايةُ، أعلَمُ أنَّهُ يمكِنُنا إحداثُ فَرْقٍ.

معَ جرعَةٍ كبيرةٍ مِنْ حُبِّ الدُّبِّ القُطبيِّ،

هانا xxx

مصادرُ

أخيرًا، إليكُم بعضُ المصادرِ الَّتي استخدمْتُها في بحثي والَّتي ظننتُ أنَّكم قدْ تجدونَها مثيرةً للاهتمامِ أيضًا.

يمكنُكُم معرفةُ المزيدِ عنِ الحفاظِ على الدِّببةِ القُطبيَّةِ مِنْ خلالِ جمعيَّةِ الدِّببةِ القُطبيَّةِ الدَّوليَّةِ Polar Bears International، وهي مؤسَّسةٌ خيريَّةٌ تعملُ على الحفاظِ على الدِّببةِ القُطبيَّةِ وموطِنِها الجليديِّ البحريِّ. لديهِم مقالاتٌ وأبحاثٌ جديدةٌ وكثيرٌ مِنَ القصصِ حولَ الدِّببةِ القُطبيَّةِ هنا:

www.polarbearsinternational.org

يمكنُكُم أنْ تقرؤوا عنِ الصُّندوقِ العالَمِيِّ للحياةِ البرِّيَّةِ (WWF)، وما الَّذي يفعلونَهُ لِمساعدَةِ الدِّببةِ القُطبيَّةِ والأنواعِ الأخرى المهدَّدةِ بِالانقراضِ، وكيفَ يمكنُكُم المساعدةُ على هذا الرّابطِ: www.worldwildlife.org

المعهدُ القُطبيُّ The Polar Institute موجودٌ بِالفعْلِ ويمكنُكُم أنْ تقرؤوا عنهُ هنا: www.npolar.no/en/

إذا أردْتُم أنْ تقرؤوا عَنْ جزيرةِ الدُّبِّ، فقدْ وجدْتُ هذا الموقعَ مفيدًا جدًّا وفيهِ بعضُ الصّورِ الفوتوغرافيّةِ لمحطَّةِ الطَّقسِ وخليجِ والروس Walrus Bay Kvalrossbukta. يمكنُكُم أيضًا البحثُ في موقعِ خرائطِ غوغل Google Maps وإلقاءِ نظرةٍ عليها:

www.spitsbergen-svalbard.com/spitsbergeninformation/islands-svalbard-co/bjornoya.html

شكرٌ وتقديرٌ

لنْ أنسى أبدًا تلكَ اللَّحظةَ الَّتي قابلْتُ فيها لأوَّلِ مرَّةٍ فريقَ دارِ نشرِ هاربركولنز HarperCollins، في مكتبِهم الهادئِ في لندن المطلِّ على نهرِ التّايمز. بعدَ السَّلامِ جلسْنا في حجرةٍ مُحاطةٍ بأروعِ الكتبِ الَّتي كتبَها مؤلِّفونَ مشهورونَ، سألوني عمّا ألهَمَني كتابَةَ كِتابي، وانفجَرْتُ عَلى الفورِ بالبكاءِ.

أخبرتُهُم كَمْ كانَتْ شخصيَّةُ (دُبّ) قريبةً مِنْ قَلْبي، فأنا وُلِدْتُ إثْرَ مِحنةٍ مؤلِمَةٍ بِشكلٍ خاصٍّ في حَياتي. سادَ صمتٌ، وبَدا أنَّ كلًّا منهُم ينظرُ إلى الآخَرِ، قالوا أخيرًا «آه. لِهذا السَّببِ هوَ مُمَيَّزٌ جِدًّا.» أدركْتُ في تلكَ اللَّحظَةِ أنَّهُم الموطِنُ المِثاليُّ لَيسَ فقطْ (لدُبّ)، ولكنْ لي أيضًا.

لِذا، أوجِّهُ شُكرًا جزيلًا مِثْلَ الزَّئيرِ لكُلِّ فريقِ هاربركولنز الرّائعِ في HarperCollins Children's Books في المملكةِ المتَّحدةِ. إلى آن جانين مُرتاغ، ونيك ليْك، وسامانثا ستيوارت،

وفال بريثويْت، وأليكس كوان، وجو-آنا باركنسون، وتينا موريس، وكارلا ألونزي، وفيكتوريا بودل، وكيرستي برادبري، وإيلورين غرانت، ولور غيسمانز، وبيثاني ماهر. وأقدِّمُ امتنانًا لا حدودَ لهُ لـليفي بينفولد Levi Pinfold على رسْمِ الغلافِ الَّذي أدهَشَني. لقدْ نفخْتُم الحياةَ في (دُبِّي) بِقلوبِكُم وما جدتُم بهِ مِنْ تفاصيلَ ومحبَّةٍ. وأشعرُ بأنَّني أكثرُ فتاةٍ محظوظةٍ في الكونِ.

إلى المحرِّرَيْنِ الرّائعَيْنِ على جانِبَي المحيطِ الأطلسيّ - إيريكا سوسمان وهارييت ويلسون أتقدَّمُ بِشكري الجزيلِ النّابِعِ مِنَ القلبِ. أنا ممتنَّةٌ جدًّا لدعمِكُما الثّابِتِ، وحبِّكُما لِدُبِّ وإيمانِكما بي. (ما زلْتُ لا أصدِّقُ أنَّ هذا كلَّهُ يحدثُ!)

وإلى مديرةِ أعمالي الرّائعةِ، كلير ويلسون، أشكُرُكِ على تغييرِ حَياتي بفضْلِ بريدٍ إلكترونيٍّ واحدٍ ممتلئٍ بِالبهجَةِ. أنا سعيدةٌ جدًّا لِوجودِكِ بِجانبي الآنَ وفي المستقبلِ. أنتِ، بكلِّ بساطةٍ، الأفضلُ.

مِنْ دونِ ترتيبٍ معيَّنٍ، شكرًا أيضًا لتامسين موراي لأنَّهُ أوَّلُ شخصٍ قرأَ *الدُبَّ الأخيرَ* ومنَحَني الثِّقَةَ لِأعرِفَ أنَّني كنتُ عَلى الطَّريقِ الصَّحيحِ. إلى صوفي هانا، على برنامجِ Dream Author Programme، وكلِّ الحكمةِ الَّتي تتحلّى بِها. إلى أعزِّ صديقة،

أليسون بورو، لوجودِها معي عندَما كتبْتُ الكلمةَ الأولى حينَها في لندن، عَلى كلِّ الدَّعمِ لِكتاباتي السّابقَةِ الَّذي قدَّمْتِه لي، ولأنَّكِ أمسكْتِ بيدي خلالَ *ذلِكَ* الأسبوعِ. لِلجميعِ في Soul Sanctuary المميَّزِ جدًّا. إلى ماري ومونيكا وساروبا لمساعدتي على أنْ أؤمِنَ بأنَّ ذلكَ سيحدُثُ. إلى صديقاتي المقرَّباتِ - أماندا، وراشيل، وإيلويز، ودونا، وفلوجو، وسارة إتش، وكيدي - لأنَّكنَّ كنتُنَّ سنَدًا لي ورأيتُنَّ تألُّقي عندَما لَمْ أستطِعْ رؤيةَ ذلك. إلى فريقِ فرشنا Frashnah - فران غيبونس وإيسلنغ فاولر - كمْ كانَتْ ممتِعَةً مُشاركةُ هذه المغامرةِ معكُما. إلى جيليان غامبل - أنتَ تعرِفُ السَّبَبَ! إلى مجموعة Debut 20 على فيسبوك الَّتي تسلَّلتُ إليها بطريقةٍ ما. وأخيرًا، إلى كُلِّ شخصٍ شجَّعَ روايةَ *الدُّبّ الأخيرِ* منذُ أنْ بدأتُ الحديثَ عنْها ولمْ أتوقَّفْ. طاقتُكم مَنَحَتْهُ الطّاقةَ، وزئيرُكُم جعلَهُ يزأرُ.

لا بُدَّ مِنْ أنْ أذكُرَ والِدَيَّ اللَّذينِ آمنّا بي عَلى الدّوامِ، ودَعماني بأكثَرَ مِنْ طريقةٍ، وعندَما حصلْتُ عَلى وكيلٍ، قالا لي: «كنّا نعلمُ دائمًا أنَّكِ ستفعلينَ ذلكَ،» وهما أفضَلُ أمٍّ وأبٍ في العالَمِ بأسرِهِ. نحنُ لسْنا عائلةً تقولُ «أنا أحبُّكِ،» لكنَّنا نفعلُ ذلِكَ حقًّا. وشكْرٌ

خاصٌّ أيضًا لأخي جوناثان؛ وصديقَتِه نيكي. وصهري الموهوبِ، بيتر، الَّذي يقولُ لي باستمرارٍ 'هذه مجرَّدُ البدايةِ' (آملُ ذلكَ لأنَّ ما زالَ لدّيَّ كثيرٌ مِنَ القِصصِ الَّتي أريدُ أنْ أروِيَها!)؛ وابنِ زوجي كونور؛ وعمّاتي وأعمامي وخالاتي وأخوالي - بِمَنْ فيهم كريس؛ وإلى صديقةِ العائلةِ الأمريكيَّةِ بِالتَّبَنّي، مارلين ماكنايت.

أتوجَّهُ بِشكري أيضًا لأولئكَ الَّذين ليسوا هنا، لكنَّني أعلَمُ أنَّهُم ما زالوا يشجعونَني مِنَ الجانِبِ الآخَرِ، جدّي وجدَّتي ووالدِ زوجي الحبيبِ. ولأنَّ قِصصي لنْ تكونَ موجودةً لو لَمْ أحُبَّ الحَيواناتِ، إلى قطَّتي المحبوبةِ، غريمي، مِنْ أجلِ كلِّ العناقاتِ المكسوَّةِ بِالفراءِ، وذكَرِ السُّلحفاةِ الأليفِ آرثر، لمساعَدَتي في عدَمِ أخْذِ الحياةِ على محمَلِ الجدِّ. خاصَّةً عندَما يتدلّى الخَسُّ مِنْ فمِهِ.

إذا لَمْ أذكُرْ زَوجي، فلا أعتقِدُ أنَّهُ سيتحَدَّثُ إليَّ مرَّةً أخْرى طَوالَ حَياتي كلِّها، ومِنْ ثَمَّ أوجِّهُ لِرفيقِ روحي كريس، شكرًا كبيرًا، كبيرًا. كانَ لِقاؤكَ تحتَ شجرةِ البرتقالِ تلكَ أفضَلَ شيءٍ حدَثَ لي على الإطلاقِ (وهذه قصّة بذاتها)، ومعَ أنَّ كُلَّ شيءٍ لَمْ يَسِرْ بِالطريقةِ الَّتي كنّا نأمَلُها، فأنا أعلَمُ أنَّ حياتَنا إلى حَدٍّ ما أكثرُ ثَراءً واتِّساعًا عَلى الرَّغمِ مِنْ ذلِكَ. لقدْ كنتَ أكبرَ بطلٍ

ومشجِّعٍ لي، وأنا أحِبُّ أنَّكَ عَلى الرَّغمِ مِنْ أنَّكَ لَمْ تقرأْ الكتابَ، غيرَ أنَّكَ تتحدَّثُ بِشغَفٍ في كُلِّ مرَّةٍ تَروي فيها قصَّةَ الدُّبِّ. أنتَ أفضلُ زوجٍ تمنَّيتُهُ.

بالطَّبعِ، لا يمكِنُني أنْ أوجِّهَ كلَّ هذا القَدْرِ مِنَ الشُّكْرِ مِنْ دونِ أنْ أشكُرَ دُبَّ. قدْ يبدو غريبًا أنْ أشكُرَ شخصِيَّتي المحوريَّةَ، لكنَّ الثِّقَةَ الَّتي وُضعِتْ فيَّ لأكتُبَ قصَّتَهُ كانَ أكثرَ امْتيازٍ مدهشٍ حصلْتُ علَيهِ عَلى الإطلاقِ، ليسَ فقطْ كمؤلِّفَةٍ، ولكنْ كإنسانَةٍ.

لقدْ كبرْتَ في قلبي، وملأتَ الفراغَ الَّذي لَمْ أكُنْ أعرِفُ حتّى أنَّهُ موجودٌ لَدَيَّ. أنتَ الآنَ في العالَمِ الواسِعِ الكبيرِ، وآملُ أنْ يزدادَ قُرّائي الأعزاءُ لِيُحبّوكَ بِقدْرِ ما أحبُّكَ تمامًا. (لكنْ مِنْ فضلِكم، لا تطعِموهُ كثيرًا مِنْ زبدَةِ الفولِ السّودانيِّ، اتَّفقْنا؟) أنتَ لا تمثِّلُ دبًّا واحدًا فقط، لكنّ الدِّببةَ القُطبيَّةَ في كلِّ مكانٍ الَّتي تحتاجُ إلى أنْ نحبَّها ونحميَها أكثرَ مِنْ أيِّ وقتٍ مضى. أنتَ برهانٌ عَلى أنَّ العلاقةَ بينَ البشرِ والحَيواناتِ على بُعْدِ نبضةِ قلبٍ واحدةٍ فقط.

وآملُ بِصدقٍ ألّا يكونَ الدُّبَّ الأخيرَ.

الكتابُ لا يمكنُ أنْ يمثِّلَ مَسعى منفرِدًا عَلى الإطلاقِ؛ لِذا قَبْلَ أنْ أذهبَ، أوجِّهَ شُكرًا خاصًّا لجميعِ المدوِّنينَ الرّائعينَ وبائعي

الكتبِ والمعلِّمينَ وأمناءِ المكتباتِ، وغيرِهِم مِنَ المؤلِّفينَ الموهوبينَ الَّذينَ قَرؤوا نسخةً مبكِّرةً وملؤوني زَهوًا بفضلِ ثَنائهم. أنا مدينةٌ لكُم جميعًا لمساعدَةِ (دُبِّي) على أنْ يحلِّقَ، ويُحدثَ الفَرْقَ الَّذي أريدُ أنْ يحدِثَهُ.

وأخيرًا، إلى قرّائي الأعزاءِ، هذا الكتابُ في النّهايةِ لكُم! نحنُ نعيشُ في عالَمٍ يتغيَّرُ بِخطًى سريعةٍ، وقدْ يكونُ هذا مُخيفًا في بعضِ الأحيانِ. لكنْ أتمَنّى أنْ تستَمِدّوا القوَّةَ مِنْ قصَّةِ إبريل، وآملُ أنْ تَستمِرّوا في رؤيةِ جمالِ كوكبِنا الجميلِ، وأشكرُكُم مِنْ أعماقِ قلْبي على قراءةِ كِتابي.

هذا يَعني لي كثيرًا.

هوامش الكتاب

1 - في إشارةٍ إلى الضّابطِ البحريِّ والمستكشِفِ البريطانيِّ (روبرت فالكون سكوت) الّذي استكشفَ القارَّةَ القُطْبيَّةَ الجنوبيَّةَ في أوائلِ القرنِ العشرينَ.

2 - الأرخبيل هو أحدُ أشكالِ سطحِ الكرةِ الأرضيّةِ، ويرمزُ إلى مجموعةٍ متقاربةٍ مِنَ الجُزُرِ.

3 - شعبُ قوميَّةِ السّاما وباللّغةِ الإنجليزيّةِ Saami أو Sami همْ سُكّانُ المناطقِ الشّماليّةِ الباردةِ في عددٍ مِنْ دولِ شَمالِ أوروبا الّتي تُعرَفُ عندَهُمْ باسمِ سابمي (Sápmi).

4 - زورقُ كانو زَورقٌ صَغيرٌ خَفيفٌ وضَيِّقٌ. لَهُ مقدِّمَةٌ ومؤخِّرَةٌ مُدَبَّبَتينِ، يَتحرَّكُ بِواسِطَةِ مِجدافٍ بِريشَةٍ واحِدَةٍ.

5 - مَجموعةٌ مِنَ القِيَمِ وَالإحْداثِيّاتِ الّتي تُحَدِّدُ مَوقِعَ أيِّ مَكانٍ في العالَمِ بِاستخْدامِ نِظامِ تَحديدِ المَوقعِ المُتَّصِلِ بِالأقْمارِ الصِّناعِيَّةِ ويطلق عليه بالإنجليزية (Global Positioning system GPS)

هُناكَ في الأفقِ، مُسْقِطًا ظِلَّ جسدِهِ
أمامَ الشّمسِ، تحرَّكَ شيءٌ! حدثَ هذا في طَرْفَةِ عينٍ.
شيءٌ كبيرٌ وذو خطواتٍ واسعةٍ، ولا يمكِنُ توقُّعُهُ أبدًا.
طَرَفَتْ إبريل عينَيْها مرَّةً أُخْرى.
أيًّا كانَ فقدِ اخْتَفى.

لكنَّ إبريل كانَ بإمكانِها أنْ تُقْسِمَ أنَّها
لَمَحَتْ لِلتَّوِّ دُبًّا قُطْبِيًّا.

الروايةُ الحائزةُ على جائزةِ بلو بيتر (Blue Peter Book Awards 2022)

«روايةٌ جميلةٌ، مؤثرةٌ بعمقٍ، لا تُنسى»
مايكل موربورغو ـ أديب بريطاني

«نداءٌ يزأرُ لحمايةِ كوكبِ الأرض»
الصنداي تايمز

«هذا الكتابُ بهجةٌ»
ديلي ميل

«روايةٌ أولى للكاتبةِ، مبهرةٌ»
ذا تايمز



